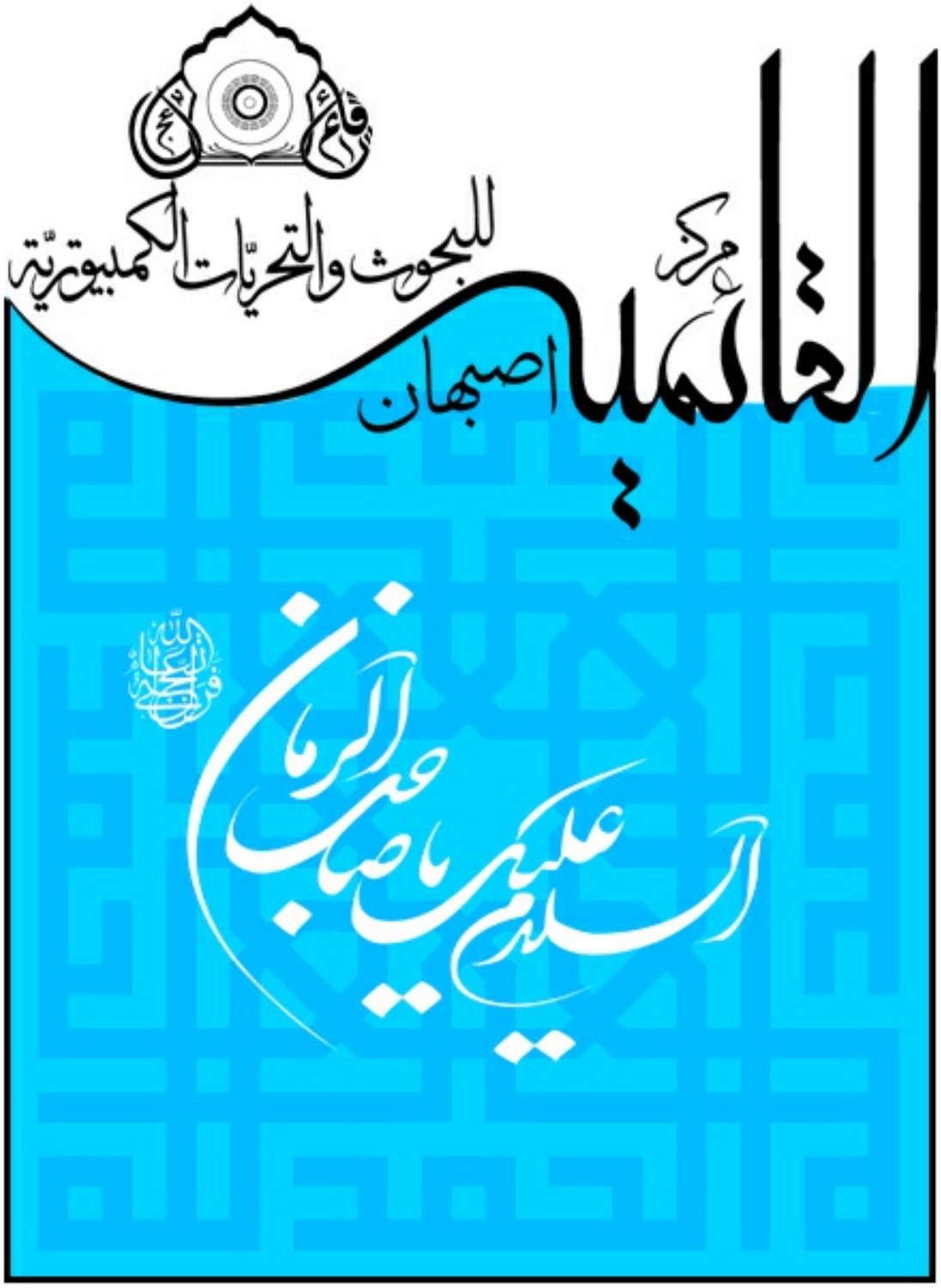

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

تقابل الحق والباطل في القرآن

تالیف:
علی جبوری

بسم الله الرحمن الرحیم

تقابل الحق و الباطل فی القرآن

كاتب:

علی جبوری

نشرت فی الطباعة:

زائر- آستانه مقدسه قم

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
تقابل الحق و الباطل فی القرآن ----- ۱۱
اشاره ----- ۱۱
اشاره ----- ۱۱
کلمه دار التحقیق ----- ۲۱
المقدمه ----- ۲۳
اشاره ----- ۲۳
تعریف الحق والباطل لغةً ----- ۲۹
الباطل ----- ۳۲
القسم الأول: الآیات التی تبیّن أن الله حق و المنکرین لهذا الأمر باطل ----- ۳۵
اشاره ----- ۳۵
علائم الحق فی العالم الکبیر والصغیر ----- ۳۹
تقابل الحق فی عقیده التوحید والباطل فی عقیده الشرک ----- ۴۰
اجتناب مجالس أهل الباطل ----- ۴۳
مراحل الکفر ----- ۴۴
وقوف أهل الباطل والعناد بوجه الحق ----- ۴۶
اتمام الحجه علی المشرکین ----- ۴۷
ملاحظات ----- ۴۸
المشرکون والمؤامرات الشیطانیه ----- ۴۹
انتصار الحق وهزیمه الباطل ----- ۵۰
حقانیه الإسلام مقابل باطل المعاندین من أهل الکتاب ----- ۵۰
غزوه بدر أول مواجهه بین الحقّ المتمثل بالإسلام والباطل المتمثل بالکفر ----- ۵۲
الجهاد حق وتجاره لا نظیر لها ----- ۵۴
حقانیه الجهاد والدفاع ----- ۵۶

الله أعلم بمصالح العباد ---- ٥٧
الصراع بين الحق المتمثل بالتقوى والباطل المتمثل بالحسد ---- ٥٨
نقاط مهمه يجب الانتباه لها ---- ٦٠
الدعوه إلى التقوى ---- ٦٣
المؤمنون أنصار الحق والكافرون أنصار الباطل ---- ٦٤
حرمه دماء البشر ---- ٦٧
الله هو الحق وتنزيهه من الظلم الذى هو الباطل ---- ٦٨
انتصار الحق على الباطل ---- ٦٩
الحق فى التوحيد والباطل فى الشرک ---- ٧١
الشفاعه حق والأوثان باطل ---- ٧٢
العلم حق والظن باطل ---- ٧٣
التحذير من موده أعداء الحقّ أعداء الله وأعداء المسلمين ---- ٧٥
المباحات حق والمحرمات باطل ---- ٧٨
تغيير القبله حق والمعاندون باطل ---- ٧٩
وصف دقيق لمنظر الحق والباطل ---- ٨٢
أصحاب الكهف رمز الحق ---- ٨٤
ليس الأكثريه دائماً معياراً للحق ---- ٨٥
الله حق والأصنام باطل ---- ٨٦
دعاء الله حق ودعاء الأصنام باطل ---- ٨٧
ولايه الله حق ---- ٨٨
تكبّر فرعون وأعوانه أعماه وأصمه عن الحق ---- ٩٢
رد القرآن على المشركين باسلوب آخر ---- ٩٣
ذريعه للفرار من الحق ---- ٩٤
أساس الانحراف بالنسبه للمشركين ---- ٩٧
توبيخ اليهود على أعمالهم الباطله ---- ١٠٠
نماذج من ممارسات اليهود العدوانيه والباطله ---- ١٠١

حجج أخرى لليهود ----- ۱۰۳
أبناء اليهود مثل أسلافهم ----- ۱۰۵
تقابل الحقّ الذى هو الله والباطل الذى هو غلو أهل الكتاب ----- ۱۰۶
حقانيه المسيح وبطلان شرک أتباعه ----- ۱۱۰
النصارى أقرب إلى الحق من اليهود المشركين ----- ۱۱۲
نفى ألوهيّه المسيح ----- ۱۱۴
الخلق على أساس الحق ----- ۱۱۵
المصير المؤلم لقوم ثمود ----- ۱۱۶
رابطه الدين أسمى من رابطه النسب ----- ۱۱۷
القسم الثانى: الآيات التى تبحث فى حقانيه الأنبياء و الرسل والكتب السماويه و الملائكه و من يعارض ذلک باطل ----- ۱۱۹
اشاره ----- ۱۱۹
العصبيه القوميه لدى اليهود ----- ۱۲۰
ردّ القرآن على تخرصات المجرمين ----- ۱۲۱
القرآن حقّ ومنطق التعصب الأعمى باطل ----- ۱۲۲
حقانيه الرسول والقرآن ----- ۱۲۴
وظيفه الرسل التبشير والإنذار ----- ۱۲۵
حقانيه القرآن وتصديقه الكتب السماويه التى سبقته ----- ۱۳۱
الاختيار حق والإجبار باطل ----- ۱۳۲
النبىّ المرسل يحمل شريعه الحق والعداله ----- ۱۳۴
عشّاق الحقّ ----- ۱۳۶
القرآن وطلاب الحقّ ----- ۱۳۸
غفله المشركين عن نزول القرآن ----- ۱۴۱
اعتراف الجن بحقانيه القرآن ----- ۱۴۲
من هم الشهود؟ ----- ۱۴۳
حقانيّه الرسول مقابل بطلان المشركين والمعاندين ----- ۱۴۴
ما المقصود «بالشاهد» فى الآيه؟! ----- ۱۴۷

ما الكتاب المبين ---- ۱۴۹
أُولوا الألباب وحقانيه القرآن ---- ۱۵۰
حقانيه الرسول وبطلان أعذار المنكرين ---- ۱۵۱
عظمه القرآن وتهمه المشركين والمنافقين ---- ۱۵۳
وعد الله حق ---- ۱۵۵
الأمرين المهمين والبشاره الكبرى للنبى ---- ۱۵۶
يرى العلماء دعوه الرسول حقّاً ---- ۱۵۷
محرّفون آيات الحق ---- ۱۵۹
آيات الله وحقانيه القرآن والوحى ---- ۱۶۰
المباهله دليل قاطع على أحقيّه نبى الإسلام ---- ۱۶۲
حقانيه القرآن وعناد اليهود ---- ۱۶۵
تقابل الحق فى شعيب والباطل فى قومه ---- ۱۶۶
المواجهه بين الحق المتمثل بموسى وبين الباطل المتمثل بفرعون ---- ۱۶۹
انتصار الحق على الباطل فى النهايه ---- ۱۷۱
عوده موسى إلى حضن أمّه ---- ۱۷۳
حقانيه النبى عيسى وبطلان شک المشككين ---- ۱۷۷
داود وحكم الحقّ ---- ۱۷۸
القسم الثالث: الآيات التى تبحث فى حقانيه المبدأ والمعاد والجنه والنار والحساب والعقاب مقابل بطلان المنكرين ---- ۱۸۱
اشاره ---- ۱۸۱
حقانيه المعاد ---- ۱۸۴
الكافرون على أعتاب القيامه ---- ۱۸۶
حوار بين أصحاب الجنه وأصحاب النار ---- ۱۸۷
من هو المؤذّن والمنادى؟ ---- ۱۸۹
العهد الإلهى الحق ---- ۱۹۱
هدفيه الدنيا وحقانيتها ---- ۱۹۲
الهدف من الخلق ---- ۱۹۳

دليل هدفيه الخلق ---- ١٩٤
الموت حق ---- ١٩٥
علائم يوم القيامه ---- ١٩٨
حقانيه المعاد والعذاب الإلهى ---- ١٩٩
أقصر الأدله على المعاد ---- ٢٠٠
تحقق الوعد الإلهى فى المعاد ---- ٢٠٣
الجدال فى الحق والباطل ---- ٢٠٦
القيامه حقّ والشيطان وأتباعه باطل ---- ٢٠٧
العبره فى ضرب الأمثال ---- ٢١٠
الله غير محتاج إلى مخلوقاته ---- ٢١١
واحده من علامات الحق والباطل ---- ٢١٢
القسم الرابع: بحوث أخرى فى الحق والباطل ---- ٢١٩
اشاره ---- ٢١٩
الحقّ نور والباطل ظلمه ---- ٢٢١
السنه الإلهيه على أساس الحق ---- ٢٢٤
الارتداد عن الإسلام باطل ---- ٢٢٦
الحقُ يعلو ولا يُعلى عليه ---- ٢٢٧
علائم معرفه الحق والباطل ---- ٢٢٨
النهى عن خلط الحق بالباطل ---- ٢٢٩
روح الدين التسليم للحقّ ---- ٢٢٩
صراع الحق والباطل مستمر ---- ٢٣٠
الذين استجابوا لدعوه الحقّ ---- ٢٣١
الباطل له أشكال مختلفه ---- ٢٣١
كيف يطرد الحقّ الباطل؟ ---- ٢٣٢
الباطل مدينٌ للحقّ ببقائه ---- ٢٣٢
حرمه كتمان الحق ---- ٢٣٢

مفاسد كتمان الحق ---------- ٢٣٣
كتمان الحق فى الأحاديث ---------- ٢٣٥
الدعوه إلى الحق ومكافحه الفساد ---------- ٢٣٥
تلازم الحق والوظيفه ---------- ٢٣٨
دينٌ حق ومعبود واحد ---------- ٢٣٩
لابد من قلوبٍ مهيأه.. لقبول الحقِّ ---------- ٢٤٠
الفناء نهايه الباطل ---------- ٢٤٢
المراد «الهدى ودين الحقّ» ---------- ٢٤٤
انتصار المنطق أم إنتصار القوّه؟ ---------- ٢٤٤
روايات حول ثوره المهدى ---------- ٢٤٦
نتيجه البحث ---------- ٢٤٩
المصادر ---------- ٢٥٩
تعريف مركز ---------- ٢٦٢

تقابل الحق و الباطل فی القرآن

اشاره

عنوان و نام پدیدآور : اتقابل الحق و الباطل فی القرآنه/علی جبوری.

مشخصات نشر : قم: زائر، ۱۳۸۹.

مشخصات ظاهری : ۲۵۰ص.

شماره کتابشناسی ملی : ۲۸۳۵۰۲۲

پژوهشکده علوم و معارف قرآنی علامهٔ طباطبائی

جبوری، علی، ۱۳۲۹ .

۹۷۸-۹۶۴-۱۸۰-۱۳۷-۵

کتابنامه ص[۲۴۹] ۲۵۱ ؛ همچنین بصورت زیرنویس.

۱. حق و باطل جنبه های قرآنی. الف. عنوان.

ص: ۱

اشاره

کلمه دار التحقیق

(إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ یَهْدِی لِلَّتِی هِیَ أَقْوَمُ).

القرآن الکریم کتاب الإنسانیه، وأعظم معجزه خالده، إن حارت عقول نوع البشر تجاه المعجزات الفعلیه کشق القمر و تسبیح الحصی و شفاء المرضی و إحیاء الموتی، ویقرّون بعجزهم ویعترفون بعدم قدرتهم، فاکابر المتفکّرین و العلماء المتضلّعین یعکفون علی عتبه القرآن الذی هو معجزه قولیّه لخاتم الأنبیاء ﷺ ویعبدون ویخضعون لإله القرآن و یسجدون له: و عبرات الأشواق جاریه من قلوبهم وضمائرهم أمام عظمه القرآن، و یترنّمون بقولهم: «الخواص للقولیه والعوام للفعلیه أطوع».

وجه اعجاز القرآن وإن کان بالنسبه الی الفصاحه والبلاغه ظاهراً، إلّا ان أهمّ وجهه نظر اعجاز القرآن لیس اعجازه العلمی و... البحت، بل القرآن خالق الانسانیه، والتربیه القرآنیه ربّت شخصیه کالام امیرالمومنین علیه السلام الذی هو فخر الکائنات و قطب أولیاء الله ورئیسهم، لابدّ وان نفحص اعجاز القرآن فی معارفه السّامیه، و فی معرفه الله و معرفه أسمائه و صفاته تعالی.

ولا یصل کتاب ولن یصل، قطّ فی معرفه التوحید - التی هی الغایه القصوی لآمال اولیاء الله - الی مرتبه القرآن، هؤلاء الفلاسفه والمتکلّمون والعرفاء مدی

التاریخ جاؤا وکلّهم تغذّوا ویتغذون من فتات مائده القرآن، وکلّهم خاضعون تجاه القرآن الکریم ویضعون جبهه التواضع والخضوع علی تراب عتبته المقدّسه.

لهذا الغرض دار تحقیق العلّامه الطباطبائی للعلوم والمعارف القرآنیه – بفضل الله وعنایته وبالإستعانه من حضره ولیّ العصر (عجل الله تعالی فرجه الشریف) وعلی ضوء کرامات السیّده فاطمه المعصومه - یهدف مطالبه المحققین والمؤلفین والمترجمین وأصحاب الآراء والنظریّات حول مختلف العلوم والمعارف القرآنیه، لأجل الاستفاده من إمکانیّات وقدرات الثوره الجبّاره للجمهوریه الاسلامیه - یهدف التحقیق والتنقیب فی العلوم القرآنیه، وإشاعه وتبیین المعارف العالیه للقرآن الکریم، وتألیف الکتب والبحث والتنقیب العلمی والتحقیق، وتربیه المحقّقین والمدرّسین فی الحوزات المختلفه للعلوم القرآنیه، بوساطه الروضه المقدّسه للسیّده فاطمه المعصومه أسّست فی سنه ۱۳۸۸هـ ش، و جعل التنقیبات والتحقیقات العصریه وجهه النظر وموضع اهتمام کبیر.

تأسیس هذه الدار کان من اهداف حضره آیه الله المسعودی الخمینی المتولّی المعظّم للرّوضه المقدسه منذ زمن بعید، وبسعیه وعنایته وجدّه المستمر تمّ انجاز هذا الدار ونحن الآن نغمز بحفاوه وحراره أیدی المحقّقین الأعزاء للمساهمه فی هذا المجال.

من الواجب علینا هنا ان نقدّم من صمیم القلب شکرنا الجزیل المتواصل الی مؤلّف هذا الأثر الحاضر الذی سعی فی انجازه سعیاً بلیغاً.

احمد العابدی

المقدمه

اشاره

الحمد لله رب العالمين الذى أنزل الكتاب على عبده تبياناً لكل شىء وهدىً وبشرى للمحسنين، وأنزل من القرآن ما هو شفاء وصحه للمؤمنين، وجعله كافياً لمن اعتصم به وشافياً لمن تمسكَ به.

وأحمده وأشكره وأستعين به واستنصره وأتوب إليه، واستغفره فى كل وقتٍ وحين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا معين ولا وزير، واشهد أن محمداً عبد الله ورسوله سيد الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين وعلى الأئمه الطاهرين وبعد:

قُمت وبالتوكل على الله سبحانه بكتابه هذا البحث تحت عنوان (تقابل الحق والباطل فى القرآن).

شعوراً منى بأهميه هذا البحث التى تظهر لما يلى:

أولاً: معرفه الحق والباطل والتمييز بينهما طبق ما جاء فى القرآن الكريم للتمسك بالحق وأهله واجتناب الباطل واهله.

حيث نلاحظ هناك مؤامره وهجمه عالميه، وليست جديده كما يتصور البعض وإن تطورت الآن وأخذت اشكالاً جديده، واسلوباً آخر، فهى قديمه تتمثل فى الحرب الاعلاميه ضد الإسلام، ومبادئه الحقه والتى تشوّه الحقّ وتلبسه لبوس

الباطل، وتلبس الباطل لبوس الحق بتزيين الألفاظ وزخرف العبارات.

ثانياً: ارتباط مسأله الحق بمسأله انتصار الدين الإسلامى وظهوره على جميع الأديان فى العالم (هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)(۱). فإن الدين الإسلامى هو دين الحق الذى يستوعب كل مكان ولا يحول بينه وبين تقدمه أىَّ شىء أبداً. وذلك لأنّ الحقَّ هو عين الواقع وأصل الخير والبركه مقابل الباطل الذى هو الوهم والخيال وأصل الشر والفساد – ثم أن الحق يتلائم وينسجم مع فطره ووجدان الإنسان وكذلك يوافق قوانين الوجود والخلق وسنن التاريخ.

بعكس الباطل الذى يتعارض وفطره ووجدان الإنسان ولا يتوافق مع قوانين الخلق والوجود وسنن التاريخ، لذا لاثبات له قبال الحق.

وتزداد أهميه معرفه الحق لمعرفه أهله «اعرف الحق تعرف أهله»(۲). للتمسك به وأهله ونبذ الباطل وأهله (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ)(۳).

وتزداد أهميه معرفه الحق يوماً بعد آخر لأنَّ الناس يتدافعون نحو الباطل وأهله ويبتعدون عن الحق وأهله بسبب مغيرات الدنيا من المال والجاه والمقام، ووجود شياطين الإنس والجن يسعون ويبذلون أقصى جهدهم من اجل إضلال الناس وإبعادهم عن طريق الحق – طريق الصراط المستقيم كما اقسم الشيطان: (لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)(۴).

۱- الصف: ۲۹ ، التوبه: ۳۳.

۲- الآمالى: الشيخ المفيد، ص ۴، وآمالى الشيخ الطوسى، ۶۲۶.

۳- الرعد: ۱۷.

۴- الأعراف: ۱۶.

فهاهم يُضلون الناس ويُبعدونهم عن خط ومنهج أهل البيت الذين يمثّلون الحق بافضل صوره.

حتّى أدى الأمر إلى استعلاء أهل الباطل «رأيت أهل الباطل قد استعلوا على أهل الحقّ»(۱).

وللتعرف على مصاديق الحق كما ذكرها القرآن الكريم نقول: من أصدق مصاديق الحق واجلاها هو الله سبحانه وتعالى – ثم الأنبياء والرسل وأئمه الهدى (أئمه أهل البيت) – والملائكه والوحى – والكتب السماويه والقرآن والجنّه والنار والوعد والوعيد – كذلك المبدأ والمعاد- وكل مافيه خير وسعاده البشريه فهو حقّ. مقابل مصاديق الباطل وهى:

الأصنام – وعبده الأصنام- والطواغيت- وشياطين الإنس والجن- وقرناء السوء- اليزيديون- والصهاينه وحكام أمريكا على مدى التاريخ يُمثّلون اكبر الشياطين كما وصفهم الإمام الخمينى (قدس) (بالشيطان الأكبر).

وكل من تخلف عن الحق ونصرته فهو شيطان اخرس كما فى المثل المعروف.

لذا علينا بالتحصن والحذر من الوقوع فى حبائل وشِباك الباطل وذلك بالاستعانه بأهل البيت .

يذكر لنا التاريخ الإسلامى هناك شخصيّات إسلاميه لها ماضى إسلامى معروف قد ضلوا طريق الحق وسلكوا طريق الباطل أمثال طلحه والزبير.

وفى كل عصر وزمان هناك طلحه وزبير قد تخلفوا عن الحق وعن الإسلام طلبا للدنيا والرئاسه والمنصب.

لذا نرى الإمام على يخاطب كميل مبيناً له أن الأرض مملوؤه بالابالسه ولا ينجو أحدٌ إلا مَن تمسك بأهل البيت.

۱- الكافى: ۳۸/۸ ن ضمن ح ۷.

لقد بعث الله (۱۲۴۰۰۰) مأه وأربعه وعشرين ألف نبيّ لإقامه الحق والعدل وإزاله الباطل والظلم، لكن لم يُوفّقوا ولأسباب شتى لإقامه الحق والعدل وإزاله الباطل والظلم.

لكن يبقى إنتظارنا صاحب الأمر والزمان لإقامه الحق والعدل وإزاله الباطل والظلم.

وأول حق يطلبه هو دمّ جده الحسين ودم ولده عبد الله الرضيع ، قال رسول الله : «المهدى من ولدى... يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما مُلئت ظلماً وجوراً»(۱).

يتضمن هذا البحث الآيات القرآنيه الخاصه بالحق بكل مصاديقه والخاصه بالباطل بكل مصاديقه وجعلها فى متناول يدى القارئ الكريم وباسلوب سهل وشيّق، بدل من وجودها متفرقه ومتناثره بين طيّات كتب التفسير أو كتب علوم القرآن.

وقد أحصيتُ ما يقارب (۲۵۰) مئتين وخمسين آيه فى موضوع الحق وما يقارب (۳۰) ثلاثين آيه فى موضوع الباطل مع توضيحاتها. وجدير بالذكر أن قله الآيات التى تتحدث عن الباطل مقابل التى تتحدث عن الحق يرجع إلى:

كما قلنا: ان الباطل وهم وخيال لا وجود له فى الواقع وإنّما وجوده بهذا المقدار لأجل المقارنه بينه وبين الحق الذى هو عين الواقع والحقيقه والذى يميل إليه الإنسان بطبعه ويرفض الباطل.

اضافه إلى ذلك أنّ القرآن الكريم كتاب هدايه وتربيه للإنسان (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ)(۲).

۱- كمال الدين: ۲۸۷ ، ج ۵، عنه البحار: ۷۲/۵۱،ف ح۱۷، معجم أحاديث المهدى.

۲- الإسراء: ۹.

فالله سبحانه وتعالى يرغّب الناس نحو الأمور الحسنه والصفات الحميده كالحق والعدل والصدق واداء الأمانه.

ويبعّدهم عن الباطل والصفات الرذيله – كالباطل والظلم والكذب وخيانه الأمانه.

يتضمن هذا البحث ما يلى:

تعريف الحق والباطل كما جاء فى كتاب مفردات الراغب (كتاب الحاء – وكتاب الباء).

بحث مصاديق الحق بِذكر الآيات القرآنيه التى بهذا الخصوص وما يقابلها من الآيات التى تبحث فى الباطل والمواضيع التى لها علاقه بهذا الموضوع.

كالصراع بين الحق والباطل – والحق والإمام المهدى - وحرمه كتمان الحق.- كتمان الحق فى الأحاديث- مفاسد كتمان الحق – عدم صمود الباطل أمام الحقّ لا- يفوتنى أن اذكر أن البدء فى كتابه هذا البحث هو قد تزامن مع أيّام عاشوراء الحسين ذكرى ثوره أبى الأحرار الحسين بن على التى مثّلت الحقّ بأعلى وأروع صوره ومصاديقه الثوريّه التى انتصر فيها الدم على السيف التى علّمت احرار العالم كيف يثورون ضد الباطل والظلم معلنين صرخاتهم هيهات منها الذله كما صرخ بها أبو الأحرار.

اما الباطل والظلم المتثمل بيزيد واتباعه الذين مثّلوا أخسّ وأقبح صور الباطل والانحراف.

لذا نرى هذه الثوره باقيه ومتجدده باحسن صورها سنه بعد أخرى وستبقى مشعلاً ينير الطريق لطلاب الحق والعداله اما يزيد وامثاله الطواغيت ولّوا وذهبوا إلى مزبله التاريخ يلاحقهم الذل والعار فى الدنيا والآخره ويلعنهم

التاریخ ویلعنهم اللاعنون (وَسَیَعْلَمُ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَیَّ مُنقَلَبٍ یَنقَلِبُونَ)(۱).

ولابد من تقدیم الشکر والامتنان إلی سماحه حجه الإسلام والمسلمین الدکتور عابدی لاهتمامه بالتحقیق وتشجیعه وتحمل مسؤولیه متابعه نشر آثار المحققین اسأل الله تعالی ان یوفقه للمزید فی هذا المجال.

اللهم انصر الحق وأهله واخذل الباطل وأهله إنّک أنت الحق والداعی إلی الحق وناصر الحق إنّک سمیع الدعاء.

علی الجبوری

۱/ محرم الحرام/ ۱۴۳۱ه_. ق

الموافق ۱۳۸۸

۱- الشعراء: ۲۲۷.

قال تعالى:

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ).(۱)

تعريف الحق والباطل لغةً

الحق: ضد الباطل

يقول الراغب(۲): أصل الحق بمعنى المطابقه والموافقه، كمطابقه رِجل الباب فى حُقّه (۳).لدورانه على استقامه.

والحقُّ يقال على أوجه:

الأول: يُقال لموُجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمه، ولهذا قيل فى الله تعالى هو الحقُّ(۴)، قال الله تعالى: (وَرُدُّواْ إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ)(۵)، وقيل بُعيد ذلك: (فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)(۶).

۱- الاسراء:۸۱.

۲- مفردات الراغب: باب حق، ص ۲۴۶-۲۴۸.

۳- هى عقب الباب.

۴- راجع الأسماء والصفات: ص ۲۶ .

۵- يونس: ۳۰.

۶- يونس: ۳۲.

والثانی: یُقال للموجَد بحسب مقتضی الحکمه، ولهذا یُقال: فِعْلُ الله تعالی کلُّه حقّ، نحو قولنا: الموت حق، والبحث حق، وقال تعالی: (هُوَ الَّذِی جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِینَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِکَ إِلاَّ بِالْحَقِّ)(۱).

وقال فی القیامه (وَیَسْتَنبِئُونَکَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِی وَرَبِّی إِنَّهُ لَحَقٌّ)(۲) و(یَکْتُمُونَ الْحَقَّ)(۳) وقوله عزّ وجلّ: (الْحَقُّ مِن رَّبِّکَ)(۴)، (وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّکَ)(۵).

الثالث: فی الاعتقاد بالشیء المطابق لما علیه ذلک الشیء فی نفسه، کقولنا: اعتقاد فلان فی البعث والثواب والعقاب والجنَّه والنار حق، قال الله تعالی: (فَهَدَی اللهُ الَّذِینَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِیهِ مِنَ الْحَقِّ)(۶).

والرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما یجب وبقدر ما یجب، وفی الوقت الذی یجب، کقولنا: فعلُک حق، وقولُک حق قال الله تعالی: (کَذَلِکَ حَقَّتْ کَلِمَتُ رَبِّکَ)(۷) و(حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی لأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ)(۸) وقوله تعالی: (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ)(۹)، یصح أن یکون المراد به الله تعالی، ویصح أن یراد به الحکم الذی هو

۱- یونس:۵.

۲- یونس: ۵۳.

۳- البقره:۱۴۶.

۴- البقره:۱۴۷.

۵- البقره: ۱۴۹.

۶- البقره:۲۱۳.

۷- یونس: ۳۳.

۸- السجده:۱۳.

۹- المؤمنون:۷۱.

بحسب مقتضی الحکمه. ویُقال أحققتُ کذا أی: أثبته حقّاً أو حکمتُ بکونه حقّاً، وقوله تعالی: (لِیُحِقَّ الْحَقَّ)(۱).

أما إحقاق الحق علی ضربین:

أحدهما: بإظهار الأدله والآیات، کما قال تعالی: (وَأُوْلَئِکُمْ جَعَلْنَا لَکُمْ عَلَیْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِینًا)(۲).

والثانی: بإکمال الشریعه وبثّها فی الکافه کقوله تعالی: (وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ کَرِهَ الْکَافِرُونَ)(۳) و(هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَی وَدِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَلَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ)(۴) وقوله: (الحَاقَّهُ مَا الْحَاقَّهُ)(۵) إشاره إلی القیامه کما فُسره بقوله (یَوْمَ یَقُومُ النَّاسُ)(۶)، لأنه یحقّ فیه الجزاء، ویستعمل استعمال الواجب واللازم والجائز، نحو (وَکَانَ حَقًّا عَلَیْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ)(۷) وقوله تعالی: (حَقِیقٌ عَلَی أَن لاَّ أَقُولَ عَلَی اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ)(۸)، قیل معناه جدیر، وقرئ (حَقِیقٌ عَلَی)(۹). وقوله تعالی: (وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ)(۱۰).

والحقیقه تستعمل تاره فی الشیء الذی له ثباتٌ ووجود کقوله لحارثه: «لکل

۱- الأنفال:۸.

۲- النساء:۹۱.

۳- الصف:۸.

۴- التوبه: ۳۳، الصف:۹.

۵- الحاقه:۱و۲.

۶- المطففین:۶.

۷- الروم: ۴۷.

۸- الأعراف: ۱۰۵.

۹- وبها قرآن نافع وحده انظرک الاتحاف، ص ۲۱۷ .

۱۰- البقره:۲۲۸.

حقٍ حقیقه، فما حقیقه إیمانِک»؟(۱) أی: ما الذی ینبئ عن کون ما تدَّعیه حقّاً؟

وفلانٌ یحمی حقیقته، أی ما یحقّ علیه أن یُحمی. وتاره تستعمل فی الاعتقاد کما تقدّم وتاره فی العمل وفی القول فیقال: فلان لفعله حقیقه: إذا لم یکن مرائیاً فیه، ولقوله حقیقهٌ: إذا لم یکن فیه مُتخرّصاً ومستزیداً، ویستعمل فی ضدّه المتجوز والمتوسّع والمتفسَّح، وقیل: الدنیا باطل والآخره حقیقه، تنبیها علی زوال هذه وبقاء تلک، وأما فی تعارف الفقهاء والمتکلمین فهی اللفظ المستعمل فیما وُضِع له فی أصل اللغه(۲).

والحِقُّ من الإبل: ما استحق أن یُحمَل علیه والأنثی حِقه، والجمع حقاق، وأتت الناقه علی حقّها(۳) أی: علی الوقت الذی ضربت فیه من العام الماضی.

أما معنی الحق فی القاموس: الحق ضد الباطل، والصدق وهو ثابت وغیره زائل، وفی المجمع: الحق: یعنی وضع الشیء فی موضعه.

(لِیُحِقَّ الْحَقَّ وَیُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ کَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)(۴).

الباطل

الباطل: نقیض الحق، وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه(۵) قال تعالی: (ذَلِکَ

۱- عن صالح بن مسمار أن رسول الله ۹ قال لحارث بن مالک کیف أنت؟ أو: ما أنت یا حارث؟ قال: مؤمن: قال: عزفت نفسی عن الدنیا، فاسهرت لیلی واظمأت نهاری، وکأنی انظر إلی عرش ربی عزّ وجلّ، وکأنی انظر إلی أهل الجنه یتزاورون فیها، وکأنی اسمع عواء أهل النّار، فقال رسول الله : «مؤمن نوّر الله قلبه». أخرجه ابن المبارک فی الزهد، ص ۱۰۶ مرسلاً والبزاز والطبرانی، وهو حدیث معضل. انظر: الإصابه، ۲۸۹/۱، مجمع الزوائد ،۵۷/۱.

۲- انظر: شرح تنقیح الفصول، للقرافی، ص ۴۲.

۳- انظر: اللسان (حقق)، ۵۵/۱۰.

۴- الأنفال:۸.

۵- مفردات الراغب: باب باطل، ص ۱۲۹-۱۳۰.

بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ)(۱).

وقد يُقال ذلك فى الاعتبار إلى المقال والفعال، يُقال: بطل بطولاً وبُطلاً وبُطلاناً، وأبطله غيره، قال عزّ وجلّ: (وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)(۲) وقال تعالى: (لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ)(۳).

وبَطُل دمُهُ: إذا قُتِل ولم يحصل له ثأر ولا ديّه، وقيل للشجاع المتعرض للموت: بطل تصوّراً لبطلان دمه، كما قال الشاعر:

فق_لتُ له_ا: لا تن_كح_يه فإنهلأوَّل بُطلِ أن يلاقى مجمعاً(۴)

فيكون فِعلا بمعنى مفعول، أو لأنه يُبطل دم المتعرِّض له بسوء، والأول أقرب.

فقد بَطلَ الرجل بطولةً صار بطلاً، وبُطّل: نسب إلى البطاله، ويُقال: ذهبَ دمُه بُطلاً أى: هدراً، والابطال يُقال فى إفساد الشىء وإزالته، حقّاً كان ذلك الشىء أو باطلاً قال الله تعالى: (لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ)(۵)، وقد يقال فيمن يقول شيئاً لا حقيقه له، نحو: (وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ)(۶) وقوله تعالى: (وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)(۷) أى: الذين يبطلون الحق.

۱- الحج: ۶۲.

۲- الأعراف: ۱۱۸.

۳- آل عمران:۷۱.

۴- البيت: لتأبّط شرّاً، وهو فى ديوانه، ص ۱۱۲ ،والاغانى، ۲۱۸/۱۸، وايضاح الشعر للقارى، ص ۴۴۹، شرح الحماسه، للتبريزى، ۲۶/۲.

۵- الأنفال: ۸.

۶- الروم: ۵۸.

۷- غافر: ۷۸.

القسم الأول: الآيات التى تبيّن أن الله حق و المنكرين لهذا الأمر باطل

اشاره

بعد التعرف على الحق والباطل نستعرض الآيات التى تتكلم عن الحق الذى هو الله وما يقابلها بالنسبه للباطل المتمثل فى - الأصنام وعبده الأصنام والمشركين وشياطين الإنس والجن والمعاندين من أهل الكتاب-.

قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)(١).

بعد التوصل إلى أن الله هو الخالق وهو المالك وعلمه وقدرته لا متناهيتين. لذا فالله هو الحق وحده، وكل شيء غيره زائل وباطل ومحدود ومحتاج، وهو والعلى الكبير الذى يسمو على كل شيء ويُجلّ عن كل وصفٍ، هو ذاته المقدسه، فقول الشاعر:

ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلٌ وكـلُ نعـيـمٍ لا محـالـه زائـل

ويمكن إيضاح هذا التعبير كما يلى:

إن الحق إشاره إلى الوجود الحقيقى الثابت، وفى هذا العالم فإن الوجود الحقيقى القائم بذاته والثابت المستقر الخالد هو الله فقط، وكل ما عداه لا وجود له بذاته وهو عين البطلان، حيث إنه يستمد وجوده عن طريق الارتباط بذلك الوجود الحقّ الدائم، فإذا انقطع الفيض عنه لحظه فإنه سيُفنى ويُمحى فى ظلمات الفناء والعدم، وبهذا فإنه كلّما قوى ارتباط الموجودات الأخرى بوجود الله تعالى فإنها تكتسب بتلك النسبه حقا أكبر.

١- لقمان: ٣٠.

وعلی کلٍّ، وکما قلنا سابقا، فإن هذه الآیات مجموعه من عشر صفات من صفات الله تعالی، وعشره أسماء من أسمائه، وتشتمل علی أدله قویه - لا یمکن إنکارها - وعلی بطلان کل أنواع الشرک، ولزوم التوحید فی کل مراحل العبودیه وفی الآیه الکریمه قوله تعالی: (مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَیْنِ فِی جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَکُمُ اللَّائِی تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِکُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِیَاءکُمْ أَبْنَاءکُمْ ذَلِکُمْ قَوْلُکُم بِأَفْوَاهِکُمْ وَاللهُ یَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ یَهْدِی السَّبِیلَ)(۱).

فی هذه الآیه یُبیّن سبحانه أنّه لیس للإنسان إلا قلب واحد، ولا یحتوی هذا القلب ولا یختزن إلا عشق معبود واحد، وعلی هذا فإن أولئک الذین یدعون إلی الشرک والآلهه المتعدده ینبغی أن تکون لهم قلوب متعدده، لیجعلوا کل واحد منها بیتاً لعشق معبودٍ واحدٍ!

من المسلم أن شخصیّه الإنسان السلیم شخصیه واحده، وخطه الفکری واحد، ویجب أن یکون واحدا فی وحدته واختلاطه بالمجتمع، فی الظاهر والباطن، فی الداخل والخارج، وفی الفکر والعمل، فإن کل نوع من أنواع النفاق أو ازدواج الشخصیّه أمرٌ مفروض علی الإنسان وعلی خلاف طبیعته. ویسلک طریقا واحداً معیناً فی حیاته، بأن یتآلف مع فریق واحدٍ، ومجتمع واحدٍ، وإلا فإن التعدد والتشتت والطرق المختلفه والأهداف المتفرقه ستقوده إلی اللاهدفیه والانحراف عن المسیر التوحیدی الفطری.

ولهذا نری فی حدیثٍ عن أمیر المؤمنین علی فی تفسیر هذه الآیه: یقول: «لایجتمع حبنا وحب عدونا فی جوف إنسان، إن الله لم یجعل لرجل قلبین فی جوفه، فیحب بهذا ویبغض بهذا، فأما محبنا فیخلص الحب لنا کما یخلص الذهب بالنار لا کدر فیه، فمن أراد أن یعلم فلیمتحن قلبه، فإن شارک فی حبنا حب عدونا فلیس منا ولسنا منه»(۲).

۱- الأحزاب: ۴.

۲- تفسیر علی بن إبراهیم، طبقاً لنقل نور الثقلین، المجلد ۴، ص ۲۳۴.

علائم الحق فی العالم الکبیر والصغیر

(سَنُرِیهِمْ آیَاتِنَا فِی الْآفَاقِ وَفِی أَنفُسِهِمْ حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ یَکْفِ بِرَبِّکَ أَنَّهُ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ)(۱).

مثل هذه الآیه تسمی بالآیات الآفاقیه والنفسیّه أثبتت أن القرآن علی حقٍّ. وهکذا فإن الخالق العظیم الذی یشهد علی کل شیء، شهد أیضا علی حقانیه القرآن عن طریق القدره التکوینیه التی کُتبت علی ناصیه جمیع الکائنات، علی أوراق الشجر، فی الأوراد والزهور، وبین طبقات المخ العجیبه، وعلی الاغشیه الرقیقه للعین، وفی آفاق السماء وبواطن الأرض، وفی کلّ شیء من الوجود تجد أثراً یدل علی الخالق، وشهاده تکوینیه علی وحدانیته وقدرته وحکمته وعلمه (سبحانه وتعالی).

إن هذا هو أحد التفسیرین المعروفین للآیه، إذ بناءاً علی هذا التفسیر فإن الآیه بجمیعها تتحدث عن قضیه التوحید، وتجلّی آیات الحقّ فی الآفاق والأنفس.

أما التفسیر الثانی فیذهب إلی قضیه إعجاز القرآن، وخلاصته أن الله یرید أن یقول: لقد عرضنا معجزاتنا ودلائلنا المختلفه لا فی جزیره العرب وحسب، وإنما فی نواحی العالم المختلفه، وفی هؤلاء المشرکین أنفسهم، حتی یعلموا بأن هذا القرآن علی حق.

فمن آیات الآفاق ما تمثّل بانتصار الإسلام فی میادین الحرب المختلفه، وفی میدان المواجهه الفکریه والمنطقیه، ثم انتصاره فی المناطق التی فتحها وحکم فیها علی أفکار الناس.

۱- فصّلت:۵۳.

تقابل الحق فی عقیده التوحید والباطل فی عقیده الشرک

(وَکَیْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَکْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّکُمْ أَشْرَکْتُم بِاللهِ مَا لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ عَلَیْکُمْ سُلْطَانًا فَأَیُّ الْفَرِیقَیْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إن کُنتُمْ تَعْلَمُونَ)(۱).

تعقیبا علی ما جری بحثه فی الآیات السابقه بشأن استدلالات إبراهیم التوحیدیه، تشیر هذه الآیات إلی ما دار بین إبراهیم والأقوام المشرکه من عبده الأصنام، الذین بدأوه بالمحاجه (وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ).

فردّ علیهم إبراهیم قائلا: لماذا تجادلوننی فی الله الواحد الأحد، وتخالفوننی فیه وهو الذی وهبنی من الدلائل المنطقیه الساطعه ما هدانی به إلی طریق التوحید قال: (وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّی فِی اللهِ وَقَدْ هَدَانِ) یتضح فی هذه الآیه بجلاء أن قوم إبراهیم – المشرکین من عبده الأصنام – کانوا یحاولون جهدهم وبأیّ ثمن أن یبعدوا إبراهیم عن عقیدته ویُرجعوه إلی عباده الأصنام، ولکنّه وبکل شجاعه وجرأه ردّ علیهم بالدلائل المنطقیه الواضحه. لا تشیر هذه الآیات إلی المنطق الذی توسل به قوم إبراهیم لحمله علی ترک عقیدته، ولکن یبدو من جواب إبراهیم أنّهم قد حذّروه وهددوه بغضب آلهتهم وعقابها فی محاوله لإرعابه وإخافته، لأننا علی أثر ذلک نسمع إبراهیم یستهین بتهدیدهم ویُؤکّد لهم أنّه لا یخشی أصنامهم التی لا حول لها ولا قوه فی إیصال أی أذی إلیه (وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِکُونَ بِهِ...) فما من أحد ولا من شیء بقادر علی أن یلحق بی أی ضرر إلا أن یشاء الله: (إلا أَن یَشَاء اللهُ رَبُّ الْعَالَمِینَ)(۲).

یظهر من هذه الآیه أن إبراهیم سعی لاتخاذ إجراء وقائی تجاه حوادث

۱- الأنعام: ۸۱.

۲- هذا أشبه بالاستثناء المنقطع، فقد نفی عن الأصنام کل قدره علی النفع والضرر، وأثبتها لله.

محتمله، فیؤکّد أنّه إذا أصابه فی هذا الصراع شیء - فرضاً - فلن یکون لذلک أی علاقه بالأصنام، بل یعود إلی إراده الله، لأن الصنم الذی لا روح فیه ولا قدره له علی أن ینفع نفسه أو یضرها، لا یتأتی له أن ینفع أو یضر غیره. ویضیف إلی ذلک مبیناً أن ربّه علی درجه من سعه العلم بحیث یسع بعلمه کل شیء: (وَسِعَ رَبِّی کُلَّ شَیْءٍ عِلْمًا).

هذه العباره - فی الواقع - دلیل علی العباره السابقه التی تقول: إن الأصنام لا قدره لها علی النفع والضرر، لأنّها لا تملک العلم ولا المعرفه اللازمین لمن یرید أن ینفع أو یضرّ، إنّ الله الذی أحاط علمه بکل شیء هو وحده القادر علی أن یکون منشأ النفع والضرر فلِمَ إذن أخشی غضب غیر الله سبحانه؟!

ثم یحرّک فیهم روح البحث والتفکیر فیخاطبهم قائلا: (أَفَلَا تَتَذَکَّرُونَ).

فی الآیه التالیه ینهج إبراهیم منطقاً استدلالیاً آخر، فیقول لعبده الأصنام: کیف یمکننی أن أخشی الأصنام ویستولی علیَّ الخوف من تهدیدکم، مع أنّی لا أری فی أصنامکم أثراً للعقل والإدراک والشعور والقوه والعلم، أما أنتم فعلی الرغم من إیمانکم بوجود الله وإقرارکم له بالعلم والقدره ویأمرکم بعدم عباده هذه الأصنام لا تخافون غضبه: (وَکَیْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَکْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّکُمْ أَشْرَکْتُم بِاللهِ مَا لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ عَلَیْکُمْ سُلْطَانًا)(۱).

إننا نعلم أن عبده الأصنام لم یکونوا ینکرون وجود الله خالق السماوات والأرض، ولکنهم کانوا یشرکون الأصنام فی عبادته ویعتبرونها شفیعه لهم عنده، فکانوا منصفین إذن وقالوا: (فَأَیُّ الْفَرِیقَیْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إن کُنتُمْ تَعْلَمُونَ).

۱- لسلطان: بمعنی التفوق والانتصار، ولما کان الدلیل والبرهان من أسباب الفوز والانتصار فقد یوصفان بالسلطان أیضاً .

یستند منطق إبراهیم هنا إلی منطق العقل القائم علی الواقع، إنّکم تهددوننی بغضب الأصنام، مع أن تأثیرها وهم من الأوهام، ولکنکم بعدم خشیتکم من الله العظیم الذی نؤمن به جمیعاً، ونعتقد بوجوب إتّباع أمره تکونون قد ترکتم أمراً ثابتاً، وتمسکتم بأمر وهمی فهو لم یصدر إلینا أمراً بعباده الأصنام.

وفی هذه الآیه جواب یُدلی به إبراهیم علی سؤال کان قد ألقاه فی الآیه السابقه (وهذا أسلوب من أسالیب الاستدلال العلمی، فقد یسأل المتکلم سؤالا عن لسان المخاطب ثم یبادر إلی الإجابه علیه مباشره کدلیل علی أن الجواب من الوضوح بحیث ینبغی أن یعرفه کل شخص).

یقول: إن المؤمنین الذین لم یمزجوا إیمانهم بظلم، هم الآمنون وهم المهتدون (الَّذِینَ آمَنُواْ وَلَمْ یَلْبِسُواْ إِیمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِکَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)(۱).

ثمه روایه عن أمیر المؤمنین علی تؤید کون هذه الآیه استکمالاً لحوار إبراهیم مع عبده الأصنام(۲).

بعض المفسّرین یری أنّ من المحتمل أن تکون هذه الآیه بیانا إلهیّاً، ولیست مقوله قالها إبراهیم، إلا ما ذکرناه - فضلا عن تأیید الروایه المذکوره له - أکثر انسجاماً مع ترتیب الآیات ووضعها، أما القول بأن هذه الآیه لسان حال عبده الأصنام، وأنّهم قالوها بعد تیقظهم علی أثر سماع أدله إبراهیم: فبعید الاحتمال (قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِینَ)(۳).

بعد المنطق القاطع والسلیم لعبده الأصنام ودحض حججهم فالتعبیرات المقرونه بالتأکیدات والحاکیه عن الحزم التام سبّب أن یرجع عبده الأصنام إلی أنفسهم قلیلاً،

۱- الأنعام: ۸۲.

۲- تفسیر مجمع البیان فی تفسیر الآیه.

۳- الأنبیاء:۵۵.

ویتوجّهوا إلی التحقق من قول إبراهیم، فأتوا إلی إبراهیم (قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِینَ) لأن أولئک الذین کانوا قد اعتادوا علی عباده الأصنام، وکانوا یظنّون أنّ ذلک حقیقه حتمیّه، ولم یکونوا یصدّقون أن أحداً یخالفها بصوره جدیّه، ولذلک سألوا إبراهیم هذا السؤال تعجباً.

إلّا أن إبراهیم قد بین بهذه الکلمات القاطعه أن الذی یستحق العباده هو خالقهم وخالق الأرض وکل الموجودات.

(قَالَ لَقَدْ کُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُکُمْ فِی ضَلَالٍ مُّبِینٍ) وقوله تعالی علی لسان إبراهیم : (قَالَ بَل رَّبُّکُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِی فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَی ذَلِکُم مِّنَ الشَّاهِدِینَ).

اجتناب مجالس أهل الباطل

بما أن المواضیع التی تتطرق إلیها هذه السوره تتناول حال المشرکین وعبده الأصنام، وهما أهل الباطل.

فهاتان الآیتان تبحثان موضوعاً آخراً من المواضیع التی تتعلق بهم، ففی البدایه تقول للرسول : (وَإِذَا رَأَیْتَ الَّذِینَ یَخُوضُونَ فِی آیَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّی یَخُوضُواْ فِی حَدِیثٍ غَیْرِهِ وَإِمَّا یُنسِیَنَّکَ الشَّیْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّکْرَی مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ)(۱).(۲)

علی الرغم من أن الکلام هنا موجه إلی رسول الله ، إلا أنه لا یقتصر علیه وحده، بل هو موجه إلی المسلمین کافه، إنّ فلسفه هذا الحکم واضحه، إذ لو اشترک

۱- الأنعام:۶۸.

۲- «الخوض» کما یقول الراغب الأصفهانی فی (مفرداته) هو الدخول فی الماء والمرور فیه، ثم أستعیر للورود فی أمور أخری، وأکثر ما ترد فی القرآن بشأن الدخول فی موضوع باطل لا أساس له.

المسلمون فی مجالسهم، لاستمرّ المشرکون فی خوضهم فی آیات الله بالباطل نکایه بالمسلمین واستهزاءً بکلام الله ولکن المسلمین إنْ أصرّوا دون أن یبالوا بهم، فسیکفّون عن ذلک ویُغیّرون الحدیث إلی أمور أخری، لأنّهم کانوا یتقصدون إیذاء رسول الله والمسلمین.

ثم تخاطب الآیه رسول الله مؤکده أهمیه الموضوع: (وَإِمَّا یُنسِیَنَّکَ الشَّیْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ(۱) بَعْدَ الذِّکْرَی مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ) أی إذا أنساک الشیطان هذا الأمر وجلستَ مع هؤلاء القوم سهواً، فعلیک - حالما تنتبه - أن تنهض فوراً وتترک مجالسه الظالمین.

مراحل الکفر

(وَمَا تَأْتِیهِم مِّنْ آیَهٍ مِّنْ آیَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ کَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِینَ * فَقَدْ کَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ یَأْتِیهِمْ أَنبَاء مَا کَانُواْ بِهِ یَسْتَهْزِؤُونَ)(۲).

إن معظم الخطاب فی سوره الأنعام موجه إلی المشرکین، والقرآن یستخدم شتّی السبل لإیقاظهم وتوعیتهم، فهذه الآیه والآیات الکثیره التی تلیها تواصل هذا الموضوع.

تشیر هذه الآیه إلی روح العناد واللامبالاه والتکبر عند المشرکین تجاه الحق وتجاه آیات الله فتقول: (وَمَا تَأْتِیهِم مِّنْ آیَهٍ مِّنْ آیَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ کَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِینَ)(۳).

أی أن أبسط شروط الهدایه - وهو البحث والتفصی - غیر موجود عندهم، ولیس فیهم أی اندفاع لطلب الحقیقه، ولا یحسّون بعطش إلیها لیبحثوا عنها.

۱- لاتقعد: لا تعنی النهی عن مجرد الجلوس مع هؤلاء، بل تعنی النهی عن معاشرتهم فی جمیع حالات الجلوس، والوقوف والمسیر.

۲- الأنعام: ۴و۵.

۳- کلمه آیه، وردت فی سیاق النفی، فیکون المعنی یعرضون علی کل آیه ولا یفکّرون فیها.

وهذا دَيدَن المشركين والمعاندين دائماً الوقوف بوجه الحق والحقيقه بدون أى دليل وصمّوا وعموا عن قبول الحقيقه ولم يكلّفوا أنفسهم فى البحث عن هذه الحقيقه الناصعه وهذا الينبوع الزلال.

وحتى لو تدفق ينبوع الماء الزلال عند عتبات بيوتهم لأعرضوا عنه ولا نظروا إليه كذلك فهم يُعرضون عن آيات ربهم النازله لتربيتهم وتكاملهم.

مثل هذه النفسيّه لا يقتصر وجودها على عهود الجاهليه ومشركى العرب، فاليوم أيضاً نجد من بلغ الستين من عمره ومع ذلك لم يجشم نفسه عناء ساعه واحده من البحث والتحقيق فى الله والدين، وإن وقع بيده كتاب أو بحث فى هذا الموضوع لم ينظر إليه، وإن تحدث إليه أحد بهذا الشأن لم يصغ إليه، هؤلاء هم الجهلاء المعاندون الغافلون الذين قد يظهرون أحيانا أمام الناس بمظهر العالم المتجبر!

تبيّن الآيه نتيجه أعمالهم، وهى: أنّهم عندما رأوا الحقيقه كذبوها، ولو أنّهم دققوا فى آيات الله جيدا لرأوا الحقيقه وأدركوها وآمنوا بها: (فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ)، ولسوف تصلهم نتيجه هذا التكذيب والسخريه: (فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ).

فى هاتين الآيتين إشاره إلى ثلاث مراحل من الكفر تتزايد فى الشده على التوالى.

المرحله الأولى: وهى مرحله الإعراض.

المرحله الثانيه: مرحله التكذيب.

المرحله الثالثه: مرحله الاستهزاء بآيات الله.

يدل هذا على أن الإنسان فى كفره لا يتوقف فى مرحله واحده، بل يزداد باستمرار إنكاراً للحق وعداوه له وابتعادا عن الله.

المقصود من التهديد المذكور فى آخر الآيه أن أوزار عدم الإيمان ستُحيقُ بهم عاجلاً فى الدنيا وآجلاً فى والآخره.

وقوف أهل الباطل والعناد بوجه الحق

(وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)(۱).

لقد قالوا ذلك لشده تعصبهم وعنادهم، وكانوا يتصورون أنّ الدين الإسلامى لا أساس له أبداً، وإلا فإنّ أحداً يحتمل حقانيه الإسلام كيف يمكنه أن يدعو على نفسه بمثل هذا الدعاء؟

كما ويحتمل أيضاً أنّ شيوخ المشركين وسادتهم يقولون ذلك الكلام لتضليل الناس وليُثبتوا لبسطائهم أنّ رساله النبى ﷺ باطله تماماً، فى حين أنّهم لا يعتقدون بما يقولون. وكأنّهم - أى المشركين - يريدون أن يقولوا للنبى ﷺ: إنّك تتكلم عن الأنبياء السابقين، وإن الله قد أهلك أعداءهم بحجاره أمطرها عليهم كما هى الحال فى شأن قوم لوط فإن كنت صادقاً فيما تقول فأمطر علينا حجاره من السماء!

وقد ورد عن الإمام الصادق ﷺ (فى مجمع البيان) إنّه لما نصب رسول الله ﷺ علياً ﷺ يوم الغدير فقال: مَن كنت مولاه فعلى مولاه، طار ذلك فى البلاد، فقدم على النبى ﷺ النعمان بن الحارث الفهرى، فقال: أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنّك رسول الله، وأمرتنا بالجهاد والحج والصوم والصلاه والزكاه فقبلنا، ثم لم ترضَ حتى نصبت هذا الغلام فقلت: مَن كنت مولاه فعلى مولاه، فهذا شىء منك أو أمرٌ من عند الله؟ فقال ﷺ: «والله الذى لا إله إلا هو، إن هذا من الله». فولّى النعمان بن الحارث وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجاره من السماء، فرماه الله بحجر على رأسه فقتله(۲).

۱- الأنفال: ۳۲.

۲- راجع: مجمع البيان، ج ۵، ص ۳۵۲، وتفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۵۱.

اتمام الحجه على المشركين

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاهَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَهِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)(۱).

الآیتان أعلاه أکملتا الحجه مع دلائل اعجاز القرآن على المشرکین والمنکرین، ولکن جماعه منهم امتنعوا عن القبول - لحفظ منافعهم الشخصیّه - بالرغم من وضوح الحق، فالآیه هذه تشیر إلى مصیر هؤلاء فتقول: (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاهَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا) من رزق مادی وشهره وتلذذ بالنعم (نُوَفِّ إِلَيْهِمْ) نتیجه (أَعْمَالَهُمْ فِيهَا) فی هذه الدنیا (وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ) أی لا ینقص من حقوقهم.

هذه الآیه تبیّن سنه إلهیّه دائمه، وهی أنَّ الأعمال الإیجابیه والمؤثره لا تضیع نتائجها، مع فارق وهو أنّه إذا کان الهدف الأصلی منها هو الوصول إلى الحیاه المادیه فی هذه الدنیا فإنّ ثمراتها فی الدنیا فحسب، وأما إذا کان الهدف هو الله وکسب رضاه فإنَّ تأثیرها ونتائجها ستکون فی الدنیا وفی الآخره أیضا حیث تکون النتائج کثیره الثمار.

الواقع إن القسم الأول من هذه الأعمال کالبنایه المؤقته والقصیره العمر، فلا یستفاد منها إلا قلیلاً، ثم مصیرها إلى الزوال والفناء.

أما القسم الثانی منها فإنها تشبه البناء المرصوص المحکم الذی یدوم قروناً وینتفع به مده مدیده.

وهذا من قبیل ما نراه بوضوح على أرض الواقع المعاش، فالعالم الغربی فتح أسراراً کثیره بعلمه المتواصل والمنُسق، وأصبح متسلطاً على قوى الطبیعه وحصل على مواهب کثیره لتصدیه الدائب لمشاکل الحیاه الدنیویه بصبر واستقامه وجد. فلا کلام

۱- هود: ۱۵و۱۶.

فی نیل العالم الغربی جزاء أعماله وتحقیقه انتصارات مشرقه، ولکن لأنّ هدفه الحیاه المادیه فحسب فأعماله لا تثمر غیر توفر الإمکانات المادیه حتی الأعمال التی ظاهرها إنسانیه کبناء المستشفیات وإعانه الدول الفقیره فهی مصیده لاستعمارهم واستثمارهم للآخرین، فلأنها تحمل هدفا مادیاً فقط ومن أجل حفظ المنافع المادیه فإنّ أثرها یکون ماديّاً فحسب کذلک الحال بالنسبه لمن یعمل ریاء.

فلذلک یقول سبحانه عنهم فی الآیه التالیه: (أُوْلَئِکَ الَّذِینَ لَیْسَ لَهُمْ فِی الآخِرَهِ إلاَّ النَّارُ) لیزول کل أثر أُخروی لما عملوا فی هذه الدنیا ولا ینالون علیه أی ثواب (وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ) وکل ما کان لغیر الله سیزول (وَبَاطِلٌ مَّا کَانُواْ یَعْمَلُونَ) هذا التعبیر الطریف یُقال للأعمال التی تبدو فی الظاهر مفیده وإنسانیه، إلا أنها فی الباطن مقرونه بنیه ذمیمه وخبیثه!

ملاحظات

من الممکن أن یُتَصور فی البدایه أن الآیتین محل البحث متعارضتان، فالآیه الأولی تقول: إن من کان هدفه الحیاه الدنیا فإنه سینال جزاءه فیها کاملا غیر منقوص (مَن کَانَ یُرِیدُ الْحَیَاهَ الدُّنْیَا وَزِینَتَهَا نُوَفِّ إلَیْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِیهَا وَهُمْ فِیهَا لَا یُبْخَسُونَ) أمّا الآیه الثانیه فتقول إن أعماله تکون بلا أثر وباطله:(وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِیهَا وَبَاطِلٌ مَّا کَانُواْ یَعْمَلُونَ).

لکن مع الالتفات إلی أن إحدی الآیتین تشیر إلی ما یجری فی الدنیا والثانیه تشیر إلی الدار الآخره، یتضح الجواب علی هذا الإشکال، وهو أنّهم ینالون جزاء أعمالهم فی هذه الدنیا، ولکن لا قیمه لهذا العمل حتی لو کان من أهم الأعمال إذ لم یکن له فی الآخره أیّ أثر. لأن هدفهم لم یکن نقیّاً ونیتهم غیر خالصه.

۲ – فی کتاب «الدر المنثور» حدیث منقول عن النبی فی تفسیر هذه الآیات یُبیّن مفاد هذه الآیات

بجلاء، قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامه صارت أمتی علی ثلاث فرق: فرقه يعبـدون الله خالصا، وفرقه يعبدون الله رياء. فرقه يعبدون الله يصيبون به الدنيا».

فيقول للـذی كان يعبـد الله للدنيا: بعزّتی وجلالی، ما أردت بعبادتی؟ فيقول: الدنيا، فيقول: لاجرم لا ينفعُكَ ما جمعت ولا ترجع إليه. انطلقوا به إلی النـار. ويقول للـذی يعبـد الله رياءً: بعزّتی وجلالی، ما أردت بعبادتی؟ قال: الرياء، فيقول: إنّما كانت عبادتُك التی كنت ترائی بها لا يصعد إلیّ منها شیء ولا يَنفعُكَ اليوم، انطلقوا به إلی النار.

ويقول للـذی كان يعبـد الله خالصا: بعزّتی وجلالی، ما أردت بعبادتی؟ فيقول: بِعزّتِك وجلالك لأنت أعلمُ منّی، كنتُ أعبـدُك لوَجهِكَ ولدارك، قال: صدق عبدی، انطلقوا به إلی الجنه(۱).

المشركون والمؤامرات الشيطانيه

(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِی الشَّيْطَانُ فِتْنَهً لِّلَّذِينَ فِی قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَهِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِی شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَی صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(۲).

إن المؤامرات الشيطانيه التی كان يُحيكها المشركون والكفره، كانت تشكّل ساحه لامتحان المؤمنين والمتآمرين فی آن واحد، إذ تضيف الآيه (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِی الشَّيْطَانُ فِتْنَهً لِّلَّذِينَ فِی قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَهِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِی شِقَاقٍ بَعِيدٍ) فهم بعيدون عن الحقّ لشده عداوتهم وعنادهم. وكذلك الهدف من هذا البرنامج:

۱- تفسير الميزان، ج ۱۰ ، ص ۱۸۶ .

۲- الحج: ۵۳ و ۵۴.

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ) وطبيعى أن الله لا- يترك المؤمنين الواعين المطالبين بحقوقهم والمدافعين عن الحقّ وحدهم فى الطريق الوعر(وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

انتصار الحق وهزيمه الباطل

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)(۱).

إن شاهدتم انتصار الحق وهزيمه الباطل، فإنّ ذلك بلطف الله الذى ينجد المؤمنين ويترك الكافرين لوحدهم. إن المؤمنين ينسجمون مع قوانين الوجود العامه، بعكس الكافرين الذين يكون مآلهم إلى الفناء والعدم بمخالفتهم تلك القوانين. والله حق وغيره باطل. وجميع البشر والمخلوقات التى ترتبط بشكل ما بالله تعالى هى حق أيضاً. أما غيرها فباطل بمقدار ابتعادها عنه عزّ وجلّ(۲).

حقانيه الإسلام مقابل باطل المعاندين من أهل الكتاب

(قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)(۳).

كان الكلام فى الآيات السابقه لهذه الآيه عن وظيفه المسلمين إزاء المشركين، أما الآيه فتُبيّن تكليف المسلمين ووظيفتهم إزاء أهل الكتاب.

۱- الحج: ۶۲.

۲- تقرأوا «الميزان» إن اطلاق الحق على الله والباطل على غيره، لان الحق الذى لم يختلط بباطل أبداً هو الله سبحانه لكنه مستقلاً عن غيره فى حقانيّته والآخرون تابعين له.

۳- التوبه:۲۹.

فقد جعل الإسلام لأهل الكتاب سلسله من الأحكام تُعدّ حداً وسطاً بين المسلمين والكفار، لأن أهل الكتاب من حيث اتباعهم لدينهم السماوى لهم شَبه بالمشركين.

ولهذا فإن الإسلام لا يُجيز قتلهم، مع أنّه يُجيز قتل المشركين الذين يقفون بوجه المسلمين، لأن الخطه تقضى بقلع جذور الشرك والوثنيه من الكره الأرضيّه، غير أن الإسلام يسمح بالعيش مع أهل الكتاب فى صوره ما لو احترم أهل الكتاب الإسلام، ولم يتآمروا ضده، أو يكون لهم إعلام مضاد. والعلامه الأخرى لموافقتهم على الحياه المشتركه، السلميّه مع المسلمين هى أن يوافقوا على دفع الجزيه للمسلمين، بأن يعطوا كل عام إلى الحكومه الإسلاميه مبلغاً قليلاً من المال بحدود وشروط معينه.

وفى غير هذه الحال فإنّ الإسلام يصدر أمره بمقاتلتهم، ويوّضح القرآن دليل شده هذا الحكم فى جمل ثلاث فى الآيه محل البحث: إذ تقول الآيه (قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ).

لكن كيف لا- يؤمن أهل الكتاب - كاليهود والنصارى - بالله وباليوم الآخر، مع أننا نراهم فى الظاهر يؤمنون بالله ويقرون بالمعاد أيضاً؟

الجواب: لأن إيمانهم مزيج بالخرافات والأوهام.

أما فى مسأله الإيمان بالمبدأ وحقيقه التوحيد، فلأنه:

أولاً: يعتقد طائفه من اليهود أن عزير ابن الله، كما يعتقد المسيحيون عامه بألوهيه المسيح والتثليث [الله والابن وروح القدس].

وثانياً: كما يشار إليه فى الآيات المقبله، فإنّ كلاً- من اليهود والنصارى مشركون فى عبادتهم، ويعبدون أحبارهم - عمليّاً - ويطلبون منهم العفو والصفح عن الذنب، وهذا مما يختص به الله، مضافا إلى تحريف الأحكام الإلهيه بصوره رسميه.

وأما إيمانهم بالمعاد فإيمان محرّف، لأن المعاد كما يستفاد من كلامهم منحصر بالمعاد الروحانى، فبناء على ذلك فإن إيمانهم بالمبدأ مخدوش، وإيمانهم بالمعاد كذلك.

ثم تشير الآيه إلى الصفه الثانيه لأهل الكتاب، فتقول: (وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ).

ومن الممكن أن يكون المراد من كلمه «رسوله» نبيّهم موسى أو عيسى ، لأنّهم لم يكونوا أوفياء لأحكام دينهم، وكانوا يرتكبون كثيرا من المحرمات الموجوده فى دين موسى أو عيسى، ولا يقتصرون على ذلك فحسب، بل كانوا يحكمون بحليتها أحيانا.

ويمكن أن يكون المراد من «رسوله» نبىّ الإسلام محمد ، أى إنّما أمر المسلمون بمقاتله اليهود والنصارى وجهادهم إيّاهم، لأنّهم لم يذعنوا لما حرّمه الله على يد نبيّه، وارتكبوا جميع أنواع الذنوب.

وهذا الاحتمال يبدو أقرب للنظر، والشاهد عليه الآيه (۳۳) من هذه السوره ذاتها إذ تقول: (هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ).

أضف إلى ذلك حين ترد كلمه «رسوله» فى القرآن مطلقه فالمراد منها النبى محمد .

غزوه بدر أول مواجهه بين الحقّ المتمثل بالإسلام والباطل المتمثل بالكفر

(وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)(۱).

تبحث الآيتان عن جوانب مهمه وحساسه فى تلك المعركه ليستلهم المسلمون من

۱- الأنفال: ۷و۸.

هذه الآيات الحقائق التى مرت بهم فى الماضى القريب، ويجعلوها أمام أعينهم للعبره والاتعاظ.

ولإيضاح الآيتين محل البحث والآيات التاليه، من المناسب أن نلقى الضوء على ما جرى فى هذه المعركه الحاسمه، وكيف كانت هذه المواجهه المسلحه الأولى وهذا الجهاد الإسلامى بِوجه العدو اللدود؟ لتتجلى لنا دقائق الأمور ولطائف ما أشارت إليه الآيات الكريمه فى شأن معركه بدر الكبرى. أمر النبى أصحابه أن يتعبؤا ويتهيؤا لمواجهه قافله أبى سفيان التجاريه المهمه القادمه من الشام إلى المدينه ومصادره أموالها لتوجيه ضربه اقتصاديه نحو العدو وتعقبها ضربه عسكريه قاصمه.

وكان للنبى وأصحابه الحق فى مثل هذه الحمله أو الهجوم، لأنه،

أولا: عندما هاجر المسلمون من مكّه نحو المدينه استولى أهل مكه على كثير من أموالهم، ونزلت بهم خساره كبيره. فكان لهم الحق أن يجبروا مثل هذه الخساره.

فكانت هذه المعركه أول مواجهه مسلحه بين المسلمين وعدوّهم من قريش، وانتهت بالنصر الساحق للمسلمين على عدوّهم.

بعد ذكر وبشكل مختصر جداً معركه بدر نعود ثانيه إلى تفسير الآيتين مورد البحث:

فى الآيه الأولى – محل البحث - إشاره إلى وعد الله بالنصر فى معركه بدر إجمالاً، إذ تقول الآيه: (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ).

لكنكم لخوفكم من الخسائر واخطار وبلايا الحرب لم تكونوا راغبين فيها (وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ).

وقد جاء فى بعض الروايات الإسلاميه أن النبى قال لهم: «إحدى الطائفتين لكم، إما العير وإما النفير».

وكلمه العير تعنى القافله، والنفير يعنى الجيش.

إلاـ نرى انه - وكما يلاحظ فى الآيه الكريمه-، أن التعبير جاء بذات الشوكه مكان الجيش والنفير، وبغير ذات الشوكه مكان القافله أو العير.

وهذا التعبير – يحمل- فى نفسه معنى لطيفاً، لأن الشوكه ترمز إلى القدره وتعنى الشده، وأصلها مأخوذ من الشوك، ثم استعملت هذه الكلمه «الشوكه» فى نصول الرماح، ثم أطلق هذا الاستعمال توسعا على كل نوع من الأسلحه، ولما كان السلاح يمثل القوه والقدره، والشده فقد عُبِّر عنه بالشوكه.

فهناك من المسلمين مَن لا يرغب فى الحرب ويرغب فى المنافع الماديه وابتغاء الراحه فى حين أن الحرب أثبتت بعد تمامها أن الصلاح يكمن فى تحطيم قوى العدو العسكريه، لتكون الطريق راحبه لانتصارات كبيره لاـحقه ولهذا فإن الآيه تُعقب بالقول (وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)(۱).

الجهاد حق وتجاره لا نظير لها

(إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّهَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاهِ وَالإنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(۲).

فى هذه الآيه قد بيّن الله المقام الرفيع للجهاد والمجاهدين المؤمنين مع ذكر مثال رائع.

لقد عرّف الله سبحانه وتعالى نفسه فى هذا المثال بأنّه مشتر والمؤمنين بأنهم بائعون، وقال: (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّهَ).

۱- الأنفال: ۷.

۲- التوبه:۱۱۱.

ولما كانت كل معامله تتكون فى الحقيقه من خمسه أركان أساسيه، وهى عباره عن: المشترى، والبائع، والمتاع، والثمن، وسند ووثائق المعامله، فقد أشار الله سبحانه إلى كل هذه الأركان، فجعل نفسه مشترياً، والمؤمنين بائعين، وأموالهم وأنفسهم (المبيع) والبضاعه، والجنه ثمناً لهذه المعامله. غايه ما فى الأمر أنه بين طريقه تسليم البضاعه بتعبير لطيف، فقال: (يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) وفى الواقع يد الله سبحانه حاضره فى ميدان الجهاد لتقبل هذه البضاعه.

سواء كانت روحاً أم مالاً يُبذل فى أمر الجهاد. ثم يشير بعد ذلك إلى سند المعامله الثابت، والذى يشكل الركن الخامس فيها، فقال: (وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاهِ وَالإنجِيلِ وَالْقُرْآنِ).

إذا أمعنا النظر فى قوله: (فِى سَبيل اللهِ) يتضح جليّاً أن الله تعالى يشترى الأرواح والجهود والمساعى التى تبذل وتصرف فى سبيله، أى سبيل إحقاق الحق والعداله، والحريه والخلاص لجميع البشر من قبضه الكفر والظلم والفساد. ثمَّ، ومن أجل التأكيد على هذه المعامله، تضيف الآيه: (وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ) أى أن ثمن هذه المعامله وإن كان مؤجلاً، إلا أنه مضمون، ولا وجود لأخطار النسيئه، لأن الله تعالى لقدرته واستغنائه عن الجميع أوفى من الكل بعهده، فلا هو ينسى وعده والعياذ بالله وعلى هذا فلا يبقى أى مجال للشك فى وفائه بعهده، وأدائه الثمن فى رأس الموعد المقرر والأروع من كل شىء أنه تعالى قد بارك للطرف المقابل صفقته، ويتمنّى لهم أن تكون صفقه وفيره الربح، تماما كما هو المتعارف بين التجّار، فيقول عزّ وجلّ: (فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

وقد جاء نظير هذا المبحث بعبارات أخرى، ففى الآيتين (۱۰) و(۱۱) من سوره الصف يقول الله عزّ وجلّ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَهٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ).

(يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

حقانيه الجهاد والدفاع

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ)(۱).

تقول الآيه: إنّ الله تعالى أذن لمن يتعرض لقتال الأعداء وعدوانهم بالجهاد، وذلك بسبب أنهم ظُلِموا: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ).

إن وعد الله بالنصر جاء مقرونا ب_«قدره الله». وهذا قد يكون إشاره إلى القدره الإلهيه التى تُنجد الناس حينما ينهضون بأنفسهم للدفاع عن الإسلام، لا أن يجلسوا فى بيوتهم بأمل مساعده الله تعالى لهم، أو بتعبير آخر: عليكم بالجدّ والعمل بكل ما تستطيعون من قدره، وعندها تستحقّون النصر بإخلاصكم ينجدكم الله سبحانه وينصركم على أعدائه، وهذا ما حدث للرسول فى جميع حروبه التى كانت تتكلل بالنصر.

ثم توضح هذه الآيات للمظلومين - الذين أُذن لهم بالدفاع عن أنفسهم - بواعث هذا الدفاع، ومنطق الإسلام فى هذا القسم من الجهاد فتقول: (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ) وذنبهم الوحيد أنهم موحدون: (إلاّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ) ومن البديهى أن توحيد الله موضع فخر للمرء وليس ذنبا يبيح للمشركين إخراج

۱- الحج: ۳۹ و ۴۰.

المسلمين من بيوتهم وإجبارهم على الهجره من مكه إلى المدينه، فنحن على سبيل المثال نقول لناكر الجميل: لقد أذنبنا عندما خدمناك، وهذه كنايه عن جهل المخاطب الذى يجازى الخير شرّاً.

الله أعلم بمصالح العباد

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِى الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ)(۱).

فى هاتين الآيتين محل البحث يقول الله سبحانه لأولئك: هذه ليست أول مره تكرهون شيئا مع أنّه فيه صلاحكم كما كان الأمر فى أساس غزوه بدر وكانوا غير راضين بادئ الأمر، إلا أنّهم رأوا كيف تمت هذه المعركه لصالح الإسلام والمسلمين.

فإذن لا ينبغى أن تقوّم أحكام الله بالنظرات الضيقه المحدوده، بل ينبغى الانصياع والتسليم لها ليستفاد من نتائجها النهائيه.

تقول الآيه الأولى من الآيتين محل البحث: إنّ عدم رضا بعض المسلمين فى شأن تقسيم الغنائم يشبه عمليه إخراجك من مكه وعدم رضى بعض المؤمنين بذلك: (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ).

والتعبير بالحق إشاره إلى أن أمر الخروج كان طبقاً لوحى الإلهى والدستور السماوى، وكانت نتيجته الوصول إلى الحق واستقرار المجتمع الإسلامى، إلا أنَّ هؤلاء الأفراد لا يرون إلا ظواهر الأمور، ولهذا: (يُجَادِلُونَكَ فِى الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ).

إلا أن الحوادث التاليه كشفت لهم عن خطئهم فى حساباتهم، وأن خوفهم وقلقهم دونما أساس، وأن هذه المعركه (معركه بدر) حققت للمسلمين انتصارات

۱- الأنفال: ۵و۶.

مشرقه، فمع رؤیه مثل هذه النتائج علام یجادلون فی الحق وتمتد ألسنتهم بالاعتراض؟! والتعبیر ب_(فَرِیقاً مِّن المؤمِنِینَ) یکشف ضمنا - أولاً - أن هـذا التشاجر أو المحاوره لم تکن عن نفاق أو عدم إیمان، بل عن ضـعف الإیمان وعدم امتلاک النظره الثاقبه فی المسائل الإسلامیه. وثانیاُ: إن الذین جادلوا فی شأن الغنائم کانوا قله وفریقا من المؤمنین، غیر أن بقیتهم وغالبیتهم أذعنوا لأمر رسول الله واستجابوا له.

الصراع بین الحق المتمثل بالتقوی والباطل المتمثل بالحسد

(وَاتْـلُ عَلَیْهِـمْ نَبَـأَ ابْنَیْ آدَمَ بِـالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَـا قُرْبَانًـا فَتُقُبِّلَ مِـن أَحَـدِهِمَا وَلَـمْ یُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَـرِ قَـالَ لأَقْتُلَنَّکَ قَـالَ إِنَّمَـا یَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ)(۱).

لقـد تناولت هذه الآیه قصه ولَدَی آدم وکیف قتل أحـدهما أخاه الآخر، ولعلَّ وجه الصـله بین هذه الآیه والآیات التی تتحدث عـن بنی إسـرائیل وقتلهـم الأنبیـاء والصـاق التهـم بمریم ، هـو غریزه «الحسـد» الـتی کـانت دائمـاً أساسـاً للکـثیر من مخالفـات وانتهاکات بنی إسرائیل حیث یحذرهم الله فی هذه الآیات من مغبه وعاقبه الحسد الوخیمه القاتله، التی تؤدی أحیاناً إلی أن یَعمد أخ إلی قتل أخاه! والآیه تقول فی هذا المجال لنبی الله أن یتلو علی قومه قصه ولَدی آدم : (وَاتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ ابْنَیْ آدَمَ بِالْحَقِّ).

ولعل اسـتخدام کلمه «بالحق» فی هـذه الآیه للإشاره إلی أن القصه المـذکوره قد أصـبغت لها خرافات مختلفه، ولبیان أنّ القرآن الکریم جاء بالقصه الحقیقیه التی حصلت بین ولدی آدم .

۱- المائده: ۲۷.

ولاـ شـک أن كلمه «آدم» الوارده فی الآـیه، تشـیر إلی «آدم» أبی البشـریه الحاضـره، وإن ما ذهب إلیه البعض مع أنّها إشاره إلی شخص من بنی إسـرائیل اسـمه «آدم» لا أساس له من الواقع، لأن هـذه الكلمه اسـتخدمت مراراً فی القرآن للـدلاله علی اسم أبی البشـریه، فلو صحّ الافتراض الأخیر لوجب أن تشتمل الآیه - أو الآیات - التی بعدها علی قرینه تصرف الاسم عن مسماه الحقیقی الأول، ولا یمكن لآیه (مِنْ أجْلِ ذَلِكَ...) أنْ تكون قرینه علی الافتراض المذكور.

وتواصل الآیه سرد القصه فتقول: (إذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ...).

وقـد أدت هـذه الواقعه إلی أن یهـدد الأـخ - الـذی لم یتقبل الله القربان منه - أخاه بالقتل ویقسم أنه قاتله لا محاله، كما جاء فی قوله تعالی فی الآیه: (قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ).

أما الأخ الآخر فقد نصح أخاه مشیراً إلی أن عدم قبول القربان منه إنما نتج عن عله فی عمله، وأنه لیس لأخیه أی ذنب فی رفض القربان، مؤكداً أنّ الله یتقبل أعمال المتقین فقط حیث تقول الآیه: (قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ).

وأكـد له أنّه لو نفـذ تهدیـده وعمـد إلی قتله، فإنّه - أی الأخ الذی تقبل الله منه القربان - لن یمد یده لیقتل أخاه، فهو یخاف الله ویخشـاه، ولن یرتكب أو یلوث یـده بمثل هـذا الإثم حیث تقول الآیه: (لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ).

انظر فی هـذا المقطع من الآـیه إلی الصـراع بین الحق المتمثـل فی الاخ الـذی قُبل منه القربان والباطل المتمثل فی الاخ الـذی لم یتقبل منه القربان.

والفرق بین منطق الحق ومنطق الباطل حیث اضاف هـذا الاخ الصالـح - مخاطباً اخاه الذی أراد أن یقتله - أنّه لا یرید ان یتحمل آثام الآخرین، قائلاً له: (إنّی أُرِيدُ

أَن تَبُوءَ(۱) بِإِثْمِی وَإِثْمِکَ).

(أی لأنّک إن نفذت تهدیدک فستتحمل ذنوبی السابقه أیضاً، لأنّک سلبت منی حق الحیاه وعلیک التعویض عن ذلک، ولما کنت لا تمتلک عملاً صالحاً للتعویض به، فما علیک إلا أن تتحمل إثمی أیضا).

کما تقول الآیه: (فَتَکُونَ مِنْ أَصْحَابِ النّارِ وَذَلِکَ جَزَاء الظّالِمِینَ).

نقاط مهمه یجب الانتباه لها

۱ - أن القرآن الکریم لم یذکر فی هذه الآیه - ولا فی آیات أخری - أی اسم لأبناء آدم :

لکن الروایات الإسلامیه تدل علی أن ولدی آدم المذکورین فی هذه الآیه کان اسم أحدهما «هابیل» والآخر «قابیل» وقد ورد فی سفر التکوین من التوراه فی الباب الرابع أن ولدی آدم المذکورین اسمهما «قائن» و«هابیل».

وقد ذکر المفسر المعروف «أبو الفتوح الرازی» أن هذین الاسمین قد وردا بألفاظٍ مختلفه، فالاسم الأول جاء فیه «هابیل» و «هابل» و«هابن»، أما الاسم الثانی فجاء فیه «قابیل» و «قائن» و «قایل» و «قاین» وعلی أی حال فان الاختلاف بین الروایات الإسلامیه ونص التوراه بخصوص اسم «قابیل» نابع عن الاختلاف اللغوی، ولا یشکل أمراً مهماً فی المجال. والاختلاف اللغوی أمر شائع وبالأخص فی مجال الأسماء - فمثلا کلمه «إبراهیم» الوارده فی القرآن قد وردت فی التوراه علی شکل «أبراهام»، القرآن الکریم لم یذکر مطلقاً «هابیل» و «قابیل» بل فقط فی الروایات الإسلامیه(۲).

۱- إنّ کلمه تبوأ مشتقه من المصدر «بواء» أی «العوده».

۲- قد کتب العلامه الفقیه الشیخ (محمّد جواد البلاغی) رساله فی هذا المجال سمّاها ب(الأکاذیب الأعاجیب) جمع فیها أکاذیب من نمط الکذبه التی جاء ذکرها أعلاه.

۲- إنّ المعروف عن «القربان» هو أنّه كل شیء یحصل به التقرب إلی الله، لكن القرآن الكریم لم یذكر شیئاً عن ماهیه القربان الذی قدمه ولدا آدم ، بینما نقلت الروایات الإسلامیه - والتوراه فی سفر التكوین، الباب الرابع - أن «هابیل» كان یمتلك ماشیه فاختار أفضل أغنامه ومنتوجاتها للقربان المذكور، وأن «قابیل» الذی كان صاحب زرع، قد اختار لقربانه أردأ الأنواع من زرعه.

۳ - لم یرد فی القرآن أی توضیح عن الأسلوب الذی عُرف به ابنا آدم قبول قربان أحدهما ورفض قربان الآخر عند الله - والذی ورد فی هذا المجال هو ما نقلته بعض الروایات الإسلامیه من أن هذین الشخصین كانا قد وضعا قربانهما علی قمه جبل، فنزلت صاعقه فأحرقت قربان «هابیل» دلاله علی قبوله، وبقی قربان «قابیل» علی حاله لم یمسه شیء، وكانت لهذه العلامه سابقه معروفه فی ذلك المجتمع.

لكن بعض المفسرین یعتقدون أن قبول ورفض القربانین إنّما أُعلنا عن طریق الوحی لآدم ، وما كان سبب ذلك غیر أن هابیل كان إنساناً ذا سریره نقیه یحب التضحیه والعفو فی سبیل الله فتقبل الله لذلك قربانه، بینما كان قابیل رجلاً ملوث القلب حسوداً معانداً فرفض الله قربانه، والآیات التالیه توضح حقیقه ما جُبلت علیه نفسا هذین الأخوین من خیرٍ وشرٍ.

۴ - یستنتج من هذه الآیات - بصوره جلیه - أن مصدر أُولی النزاعات والجرائم فی العالم الإنسانی هو «الحسد» ویُدلنا هذا الموضوع علی خطوره هذه الرذیله الأخلاقیه وأثرها العجیب فی الأحداث الاجتماعیه.

۵- إنّ الله سبحانه وتعالی دائماً وأبداً مع الحق المتمثل فی التضحیه والعفو والأخلاق الحمیده وضد الباطل المتمثل فی العناد والكبریاء والحسد والأخلاق الرذیله (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِیهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِینَ)(۱).

۱- المائده: ۳۰.

وتواصل هذه الآيه بقيه الواقعه التى حصلت لابنى آدم ، فتبيّن الآيه الأولى أن نفس قابيل هى التى دفعته لارتكاب جريمه قتل أخيه فقتله حيث تقول: (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ).

ونظراً لان كلمه «طوع» تأتى فى الأصل من «الطاعه» لذلك يُستدل من هذه العباره على أن قلب «قابيل» بعد أن تقبل الله قربان أخيه هابيل أخذت تعصف به الأحاسيس والمشاعر المتناقضه، فمن جانب استعرت فيه نار الحسد وكانت تدفعه إلى الانتقام من أخيه «هابيل».

ومن جانب آخر كانت عواطفه الإنسانيه وشعوره الفطرى يقبح الذنب والظلم والجور وقتل النفس، يحولان دون قيامه بارتكاب الجريمه، لكن نفسه الأماره بالسوء تغلبت رويدا رويدا على مشاعره الرادعه فطوّعت ضميره الحى وكبلته بقيودها واعدّته لقتل أخيه، وتدل عباره «طوعت» مع قصرها على جميع المعانى التى ذكرناها لأن عمليه التطوّع كما نعلم لا تتم فى لحظه واحده، بل تحصل بشكل تدريجى وعبر صراعات مختلفه.

وتشير الآيه - فى آخرها - إلى نتيجه عمل «قابيل» فتقول (فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) فأى ضرر أكبر من أن يشترى الإنسان لنفسه عذاباً سيلازمه إلى يوم القيامه، ويشمل عذاب الضمير وعقاب الله والعار الأبدى.

ثم تشير الآيه الكريمه (يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي...)(۱).

فهل كان ندمه على جريمته، خوفاً من افتضاح أمره أمام أبويه؟ أم كان سبب الندم هو ما يشعر به الإنسان - عاده - من قلق واستياء بعد ارتكاب كل عمل قبيح؟

۱- المائده: ۳۱.

مهما كانت أسباب الندم ودوافعه لدى «قابيل» فذلك لا يعنى أنّه تاب من فعلته وجريمته التى ارتكبها، فالتوبه معناها أن لا يعاود الإنسان المذنب تكرار الذنب، خوفاً من الله واستقباحاً للذنب، ولم يُشر القرآن الكريم إلى صدور مثل هذه التوبه عن «قابيل».

وفى حديث عن النبى قوله: «لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنّه كان أول من سنّ القتل»(۱).

الدعوه إلى التقوى

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)(۲).

فى هذه الآيه دعوه إلى التقوى لتكون التقوى مقدمه للاتحاد والتآخى. وفى الحقيقه أن الدعوه إلى الاتحاد دون أن تستعين هذه الدعوه وتنبع من الجذور الخلقيه والاعتقاديه، دعوه قليله الأثر، إن لم تكن عديمه الأثر بالمره، ولهذا يُركز الاهتمام فى هذه الآيه على معالجه جذور الاختلاف، وإضعاف العوامل المسببه للتنازع فى ضوء الإيمان والتقوى، ولهذا توجه القرآن بالخطاب إلى المؤمنين: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ).

يبقى ان نعرف أنه قد وقع كلام كثير بين المفسّرين حول المراد من قوله تعالى (حَقَّ تُقَاتِهِ) ولكن مما لا شك فيه أن «حق التقوى» يُعد من أسمى درجات التقوى وأفضلها لأنه يشمل اجتناب كل إثم ومعصيه، وكل تجاوز وعدوانٍ، وانحرافٍ عن الحقّ.

۱- مسند احمد بن حنبل كما جاء فى تفسير القرآن «فى ظلال القرآن» ج ۲، ص۷۰۳، فى تفسير الآيه.

۲- آل عمران: ۱۰۲.

ولذا نُقل عن الرسول الأكرم كما فی تفسير الدرّ المنثور، وعن الإمام جعفر الصادق كما فی تفسير العيّاشی ومعانی الأخبار - فی تفسير قوله (حَقَّ تُقَاتِهِ) أنّهما قالا: «أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر».

ومن البديهی أن القيام بهذا الأمر كغيره من الأوامر الإلهيّه، يرتبط بمدى قدره الإنسان واستطاعته ولهذا لا تنافی بين هذه الآيه التی تطلب حق التقوى وأسمى درجاته والآيه ۱۶ من سوره التغابن التی تقول: (فَاتّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) فالكلام حول المنافاه بين الآيتين وادعاء نسخ إحداهما بالأخرى مما لا أساس له مطلقا، ولا داعی له أبداً.

المؤمنون أنصار الحق والكافرون أنصار الباطل

(وَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزّلَ عَلَى مُحَمّدٍ وَهُوَ الْحَقّ مِن رّبّهِمْ كَفّرَ عَنْهُمْ سَيّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنّ الّذِينَ كَفَرُوا اتّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنّ الّذِينَ آمَنُوا اتّبَعُوا الْحَقّ مِن رّبّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنّاسِ أَمْثَالَهُمْ)(۱).

هذه الآيه وصف لوضع المؤمنين الذين يقفون فی الصف المقابل للكافرين الذين وردت صفاتهم فی الآيه السابقه، فتقول: (وَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزّلَ عَلَى مُحَمّدٍ وَهُوَ الْحَقّ مِن رّبّهِمْ كَفّرَ عَنْهُمْ سَيّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)(۲).

إنّ ذكر الإيمان بما نزل على نبی الإسلام بعد ذكر الإيمان بصوره مطلقه، تأكيد على تعليمات هذا النبی العظيم ومناهجه، وهو من قبيل ذكر الخاص بعد العام، وتبيان لحقيقه أن الإيمان بالله سبحانه لا يتم أبداً بدون الإيمان بما نُزل على النبی .

۱- محمّد، ۲و۳.

۲- اعتبر جماعه من المفسّرين جمله (وهو الحق من ربهم) جمله معترضه.

ویحتمل أیضا أن تکون الجمله الأولی إشاره إلی الإیمان بالله تعالی، ولها جانب عقائدی، وهذه الجمله إشاره إلی الإیمان بمحتوی الإسلام وتعلیمات النبی ﷺ، ولها جانب عقائدی.

وبتعبیر آخر، فإنّ الإیمان بالله سبحانه لا یکفی وحده، بل یجب أن یؤمنوا بما نزل علی النبی ﷺ، وأن یکون لهم إیمان بالقرآن، وإیمان بالجهاد، وإیمان بالصلاه والصوم، وإیمان بالقیم الأخلاقیه التی نزلت علیه. ذلک الإیمان الذی یکون مبدأ للحرکه، وتأکیدا علی العمل الصالح.

ومما یستحق الانتباه أنّ الآیه تقول بعد ذکر هذه الجمله: (وَهُوَ الْحَقّ مِن رّبّهِمْ) وهی تعنی أنّ إیمانهم لم یکن تقلیدا، أو أنّه لم یقم علی دلیل وحجه، بل آمنوا بعد أن رأوا الحق.

وعباره (مِن رَّبِّهِمْ) تأکیداً علی حقیقه أن الحقَّ یأتی دائماً من قبل الله سبحانه، فهو یصدر منه، ویعود إلیه.

والجدیر بالذکر أن الآیه تبیّن ثوابین للمؤمنین الذین یعملون الصالحات، فی مقابل العقابین اللّذَین ذُکرا للکفار الصادین عن سبیل الله: أولهما: التکفیر عن السیئات التی لا یخلو منها أی إنسان غیر معصوم، والثانی: إصلاح البال.

لقد جاء (البال) بمعان مختلفه، فجاء بمعنی الحال، العمل، القلب، وعلی قول الراغب: بمعنی الحالات العظیمه الأهمیه، وبناءً علی هذا فإن إصلاح البال یعنی تنظیم کل شؤون الحیاه والأمور المصیریه، وهو یشمل - طبعاً - الفوز فی الدنیا، والنجاه فی الآخره، علی عکس المصیر الذی یلاقیه الکفار، إذ لا یصلون إلی ثمره جهودهم ومساعیهم، ولا نصیب لهم إلا الهزیمه والخسران بحکم: (أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ).

یمکن القول بأنَّ غفران ذنوبهم نتیجه إیمانهم، وأن إصلاح بالهم نتیجه أعمالهم الصالحه.

إنّ للمؤمنين هـدوءاً فكريـاً واطمئناناً روحياً من جهه، وتوفيقاً ونجاحاً فی برامجهم العمليه من جهه ثانيه، فإن لإصـلاح البال إطاراً واسعاً يشمل الجميع، وأی نعمه أعظم من أن تكون للإنسان روح هادئه، وقلب مطمئن، وبرامج مفيده بناءه.

وبينت الآيه الأخيره العله الأساسيه لهذا الانتصار وتلك الهزيمه من خلال مقارنه مختصره بليغه، فقالت: (ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ).

وهنا يكمن سر المسأله بأن خطی الإيمان والكفر يتفرعان عن خطّی الحق والباطل. فالحق يعنی الحقائق العينيه، وأسماها ذات الله المقدسه، وتليها الحقائق المتعلقه بحياه الإنسان، والقوانين الحاكمه فی علاقته بالله تعالی، وفی علاقته بالآخرين.

والباطـل يعنی الظنون، والأوهام، والمكائـد والخـدع، والأساطير والخرافات، والأفعال الجوفاء التی لا هـدف من ورائها، وكل نوع من الانحراف عن القوانين الحاكمه فی عالم الوجود.

نعم، إنّ المؤمنين يتبعون الحقّ وينصرونه، والكفّار يتبعون الباطل ويؤازرونه، وهنا يكمن سر انتصار هؤلاء، وهزيمه أولئك.

يقول القرآن الكريم: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)(۱).

وفسر البعض « الباطل » بالشيطان، وآخرون بالعبثيه، لكن كما قلنا، فإنّ للباطل معنیً واسعاً يشمل هذين التفسيرين وغيرهما.

وتضـيف الآـيه فی النهـايه: (كَذَلِكَ يَضْـرِبُ اللهُ لِلنّـاسِ أَمْثَـالَهُمْ) أی: كمـا أنّه سـبحانه قـد بيّن الخطوط العـامه لحيـاه المؤمنين والكفار، وعقائدهم وبرامجهم العمليه ونتائج أعمالهم فی هذه الآيات، فإنه يوضح مصير حياتهم وعواقب أعمالهم.

۱- ص: ۲۷.

يقول الراغب فی مفرداته: المثل عباره عن قول يشبه قولا فی شیء آخر بينهما مشابهه يُبيّن أحدهما الآخر.

والظاهر أن المراد فی هـذه الآيه هو المعنی الثانی، أی إن الله سـبحانه يصف حال الناس هكذا، كما مثل الجنه فی الآيه (۱۵) من سوره محمد : (مَثَلُ الْجَنَّهِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ).

وعلی أيه حال، فالذی يسـتفاد من هذه الآيه جيداً، أنّنا كلما اقتربنا من الحق اقتربنا من الإيمان، وسـنكون أبعد عن حقيقه الإيمان وأقرب إلی الكفر بتلك النسبه التی تميل بها أعمالنا نحو الباطل، فإن أساسی الإيمان والكفر هما الحق والباطل.

حرمه دماء البشر

(وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالحَقِّ)(۱).

إنّ احترام دمـاء البشـر وحرمه قتـل النفس تعتبر من المسائـل المتفق عليهـا فی كل الشـرائع السـماويه وقوانين البشـر، فقتل النفس المحترمه لدی الجميع من الذنوب الكبيره، إلا أن الإسـلام أعطی أهميّه اسـتثنائيه لهذه المسأله بحيث اعتبر من يقتل إنساناً فكأنّما قتل الناس جميعاً، كما فی الآيه (۳۲) من سوره المائده (مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِی الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا).

بل نسـتفيد من بعض الآيات القرآنيه أن جزاء قتل النفس بغير حق هو الخلود فی النار، وأن هؤلاء الـذين يتورطون فی دم الأبرياء يخرجون عن ربقه الإيمان، ولا يمكن أن يخرجوا من هذه الدنيا مؤمنين: (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا)(۲)، وحتی فی الإسلام فإن الذين يشهرون السلاح بوجه الناس ينطبق عليهم

۱- الإسراء: ۳۳.

۲- النساء:۹۳.

عنوان «المحارب» وهذا الصنف له عقوبات شديده مفصله فی المصنفات الفقهيّه.

فالإسلام يحاسب على أقلّ أذى ممكن أن يلحقه الإنسان بالآخرين، فكيف بقضيّه القتل وإراقه الدماء؟! وهنا نستطيع أن نقول - باطمئنان -: إننا لا نرى أىَّ شريعه غير الإسلام أعطت هذه الحرمه الاستثنائيه لدم الإنسان، بالطبع هناك حالات ينتفى معها احترام دم الإنسان، كما لو قام بالقتل أو ما يوجب إنزال العقوبه به، لذلك فإن الآيه بعد أن أثبتت حرمه الدم كأصل، تشير للاستثناء بالقول: (إلاَّ بِالحَقِّ).

وفى حديث معروف عن الرسول نقرأ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزانى المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعه»(۱). أما القاتل فتكون نهايته معلومه بالقصاص، الذى يؤمن استمرار الحياه واستقرارها، أما الزانى المحصن، فإنّ قتله فى قبال واحدٍ من أعظم الذنوب قباحه، وهو يساوى سفك الدم الحرام فى المرتبه.

وأما قتل المرتد فيمنع الفوضى والإخلال فى المجتمع الإسلامى والإخلال بنظامه.

الله هو الحق وتنزيهه من الظلم الذى هو الباطل

(تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ)(۲).

هذه الآيه إشاره إلى ما تعرضت الآيات السابقه له حول الإيمان والكفر، والاتحاد، والاختلاف، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وآثارها وعواقبها، إذ تقول: (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ).

۱- صحيح البخارى ومسلم، نقلاً عن تفسير فى ظلال القرآن، ج ۵،ص ۳۲۳.

۲- آل عمران: ۱۰۸.

فکل هـذه الآیات تحـذیرات عن تلک العواقب السیئه التی تترتب علی أفعال الناس أنفسـهم: (وَمَا اللهُ یُرِیدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِینَ) وإنّما هی آثار سیئه یجنیها الناس بأیدیهم.

ویـدلُّ علی ذلـک أنّ الله لا یحتاج إلی ظلم أحـد، کیف وهو القوی المالک لکل شـیء وإنما یحتاج إلی الظلم الضـعیف، وإلی هذا یشیر قوله سبحانه: (وَلِلهِ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَمَا فِی الأَرْضِ وَإِلَی اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)(۱).

فالآیه - فی الحقیقه - تشتمل علی دلیلین علی عدم صدور الظلم منه سبحانه:

الأـول: إن الله مالـک الوجود کله فله ما فی السـماوات وما فی الأرض، فلا معنی للظلم ولا موجب له عنـده، وإنما یظلم الآخرین ویعتدی علیهم مَن یفقد شیئاً، وإلی هذا یشیر المقطع الأول من الآیه وهو قوله تعالی: (وَلِلهِ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَمَا فِی الأَرْضِ).

الثانی: إن الظلمَ یمکن صـدوره ممن تقع الأمور دون إرادته ورضاه، أما مَن ترجع إلیه الأمور جمیعاً، ولیس لأحد أن یعمل شـیئاً بدون إذنه فلا یمکن صدور الظلم منه، وإلی هذا یشیر قوله سبحانه: (وَإِلَی اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ).

انتصار الحق علی الباطل

(إِنَّمَا السَّبِیلُ عَلَی الَّذِینَ یَظْلِمُونَ النَّاسَ وَیَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِکَ لَهُم عَذَابٌ أَلِیمٌ)(۲).

هذه الآیه تبیّن أنّ الظالمین الذین یظلمون الناس ینتظرهم عقابان عقاب فی الدنیا وآخر فی الآخره.

۱- آل عمران: ۱۰۹.

۲- الشوری:۴۲.

یقول بعض المفسرین حول الاختلاف بین جمله (یَظْلِمُونَ النَّاسَ) وجمله (وَیَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ) أن الجمله الأولی إشاره إلی موضوع (الظلم) والثانیه إلی (التکبّر)(۱).

البعض الآخر اعتبرَ الأولی إشاره إلی (الظلم) والثانیه إشاره إلی الوقوف بوجه الحکومه الإسلامیه.

«بغی» تعنی فی الأصل الجد والمثابره والمحاوله للحصول علی شیء ما، ولکن کثیرا ما تطلق علی المحاولات لغصب حقوق الآخرین، والتجاوز عن حدود وحقوق الخالق، لذا فإن للظلم مفهوما خاصاً وللبغی مفهوماً عاماً یشمل أیَّ تعدٍ أو تجاوز للحقوق الإلهیّه.

عباره (بغیر الحق) تأکید لهذا المعنی، وعلی هذا الأساس فإن الجمله الثانیه من باب ذکر العام بعد ذکر الخاص. وقال تعالی: (وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ کَانَ زَهُوقًا)(۲).

بعد ذکر الظلم الذی هو الباطل جاءت هذه الآیه تؤکّد حتمیّه انتصار الحق وجاء الأمل بالنصر النهائی والذی یعتبر بحد ذاته عاملاً للتوفیق فی الأعمال، إذ خاطبت الآیه الرسول بِوعد الله تعالی: (وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ)(۳) لأن طبیعه الباطل الفناء والدمار: (إِنَّ الْبَاطِلَ کَانَ زَهُوقًا). فللباطل جوله، إلا أنه لا یدوم والعاقبه تکون لانتصار الحق واصحابه وانصاره.

۱- تفسیر (الکشاف) و(روح المعانی) و(روح البیان) نهایه الآیات التی نبحثها.

۲- الإسراء:۸۱.

۳- (زهق) من ماده «زهوق» بمعنی الاضمحلال والهلاک والاباده، (زهوق علی وزن قبول) صیغه مبالغه وهی تعنی الشیء الذی تمت ابادته بالکامل.

الحق فی التوحید والباطل فی الشرک

(بَلْ مَتّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتّی جَاءهُمُ الْحَقّ وَرَسُولٌ مّبِینٌ * وَلَمّا جَاءهُمُ الْحَقّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنّا بِهِ کَافِرُونَ)(۱).

هـذه الآـیه جواب عن سؤال فی الحقیقه، وهو: فی مثـل هـذه حالاـت مشـرکی مکه لِمَ لا یعـذب الله مشـرکی مکه؟ ألم نقرأ فی الآیات السابقه: (فانتقمنا منهم)؟

فتقول الآیه مجیبه: (بَلْ مَتّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتّی جَاءهُمُ الْحَقّ وَرَسُولٌ مّبِینٌ).

فنحن لم نکتف بحکم العقل ببطلان الشرک والوثنیه، ولا بحکم وجدانهم بالتوحید، بل أمهلناهم لإتمام الحجه علیهم حتی یقوم هذا الکتاب الذی لا یأتیه الباطل من بین یدیه ولا من خلفه، وهذا النبیّ العظیم محمد بهدایتهم.

وبتعبیر آخر، فإن جمله (لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ) فی الآیه السابقه توحی بأن الهـدف من مساعی إبراهیم الحثیثه کان رجوع کل ذریّته إلی خط التوحیـد، فی حین أن العرب کانت تـدّعی أنّها من ذریه إبراهیم ورغم ذلک لم ترجع، إلا أن الله سـبحانه أمهلهم مع ذلک حتی یأتی النبی العظیم بالکتاب الجدید لیوقظ هؤلاء من نومهم، وبالفعل فقد استیقظت جماعه عظیمه منهم.

إلا أنّ العجیب أنّه: (وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ کَافِرُونَ).

نعم. لقد عدوا القرآن المجید سـحراً، والنبی الأکرم ساحراً، وإذا لم یرجعوا عمّا قالوا فإن عذاب الله سـیحیط بهم ویأخذهم من حیث لا یشعرون.

۱- الزخرف: ۲۹ و ۳۰.

الشفاعه حق والأوثان باطل

(وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَهَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)(۱)

لا زال الحديث فی هذه الآيات _ وهی آخر آيات سوره الزخرف _ حول إبطال عقيده الشرک وتفنيدها، وعاقبه المشرکين المُرّه، وهی توضح بطلان عقيدتهم بدلائل أُخری. تقول الآيه الأولی: (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَهَ) فلا تقام الشفاعه عند الله إلّا بإذنه، ولم يأذن الله الحكيم بها لهذه الأحجار والأخشاب التی لا قيمه لها، والفاقده للعقل والشعور والإدراک مطلقاً.

لكن لما كانت الملائكه وأمثالها من بين آلهه هؤلاء، فقد استثنوا فی ذيل الآيه، فقالت: (إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ) وهم الذين أسلموا لوحدانيه الله سبحانه فی جميع المراحل، وأذعنوا لها. نعم، هؤلاء هم الذين يشفعون بإذن الله تعالی.

ولكن ليس الأمر كما تتوهمون أنّهم يشفعون لأی كان، حتی وإن كان وثنياً ومشركاً ومنحرفاً عن طريق التوحيد وضالاً عن الصراط المستقيم، بل (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) جيداً لمن يشفعون.

وعلی هذا فإنّهم يقطعون الأمل من شفاعه الملائكه لسببين:

الأوّل: أنّها كانت بنفسها تقرّ بوحدانيه الله وتشهد بها، ولذلک حصلت علی إذن الشفاعه.

والآخر: أنهم يعرفون جيداً من له أهليه الشفاعه ومستحقها، واعتبر البعض جمله (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) مكمله لجمله (إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ).

وعلی هذا يصبح معنی الآيه: إن الذين يشهدون بالتوحيد ويعلمون حقيقته هم الذين يملكون حق الشفاعه فقط. إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب. وعلی أيه حال،

۱- الزخرف:۸۶.

فإنّ هذه الآیه تبیّن الشـرط الأساس الذی ینبغی توفره فی الشفعاء عند الله تعالی، وهم الشاهدون بالحق، والعالمون به علی الدوام والمحیطون بروح التوحید جیداً، أو هم کذلک عالمون بأحوال المشفوع لهم وأوضاعهم.

العلم حق والظن باطل

(وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إن یَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وَإنَّ الظَّنَّ لَا یُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَیْئًا)(۱).

فی الآیات التی سبقت هذه الآیه تحکی أن المشرکین وعبده الأصنام یسمّون الملائکه تسمیه الأناث وینسبون هذه الملائکه بأنها بنـات الله، فیرد علیهم سـبحانه وتعـالی بالـدلائل العقلیّه والقرآنیه علی أنه لیس لله من ولـد، ولیس الملائکه اُناثاً، ولا هم بنات الله کذلک!

وإنّ مثل هذا الکلام لا معنی له. وإنّ هذه الأسماء لا مسمیات لها، وبتعبیر آخر إنّها لا تعدو حدود التسمیه ولا واقع لها أبداً.

ثمّ یتناول القرآن واحـداً من الأدلّه الواضـحه علی بطلان هـذه التسـمیه فیقول معقّباً: (وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إن یَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وَإنَّ الظَّنَّ لَا یُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَیْئًا)..

فالإنسان الهادف والمعتقـد لا یطلق کلامه دون علم ودرایه، ولا ینسب أیّه نسـبه لأحد دونما دلیل... فالتعویل علی الظنّ والتصوّر إنّما هو من عمل الشیطان أو من یتّصف بالشیطانیّه... وقبول الخرافات والأشیاء الموهومه دلیل الانحراف وعدم العقل!

وواضـح أنّ کلمه «الظنّ» لهـا معنیـان مختلفـان، فتـارهً تطلق هـذه الکلمه علی الأوهام التی لا أساس لها، وطبقاً لتعبیر الآیات آنفه الذکر تعنی الخرافات والأوهام وما تهوی الأنفس... والمراد من هذه الکلمه فی الآیه هو هذا المعنی ذاته.

۱- النجم: ۲۸.

المعنی الآخر، الظنّ المعقول وهو ما یخطر فی الذهن، ویکون مطابقاً للواقع غالباً، وعلیه یکون مبنی العمل فی الیوم ـ مرةً أو أکثر ـ کشهاده الشهود فی المحکمه وقول أهل الخبره وظواهر الألفاظ وأمثال ذلک، فلو أعرضنا عن مثل هذه الأُمور وعوّلنا علی الیقین القطعی لاضطربت الحیاه واختلّ نظامها. ولا شکّ أنّ هذا القسم من الظنّ غیر داخل فی هذه الآیات، وهناک شواهد کثیره فی الآیات ذاتها علی ذلک... وفی الحقیقه أنّ القسم الثانی نوع من العلم العرفی لا الظنّ، فبناءً علی هذا لا یصحّ الاستدلال بالآیه (إِنَّ الظَّنَّ لا یُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَیْئًا) وأمثالها علی نفی حجیّه الظنّ بشکل مطلق.

وینبغی الالتفات إلی هذه اللطیفه والمسأله الدقیقه.. وهی أنّ الظنّ فی اصطلاح الفقهاء والأصولیین معناه «الاعتقاد الراجح»، إلاّ أنّه فی اللغه أوسع مفهوماً، فیشمل حتّی الوهم والاحتمالات الضعیفه. ثمّ ینهض هوی النفس فیزیّن ذلک الاحتمال، ویهمل الاحتمال الآخر الذی هو أقوی من هذا الاحتمال، ویصیر الاحتمال الضعیف اعتقاداً راسخاً مع أنّه لا أساس له أبداً.

ومن أجل أن یبیّن القرآن أنّ هؤلاء الجماعه لیسوا أهلاً للاستدلال والمنطق الصحیح، وقد ألهاهم حبّ الدنیا عن ذکر الله وجرّهم إلی الوحل فی خرافاتهم وأوهامهم یضیف قائلا: (فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّی عَن ذِکْرِنَا وَلَمْ یُرِدْ إِلَّا الْحَیَاهَ الدُّنْیَا).

والمراد من (ذکرنا) فی اعتقاد أغلب المفسّرین هو «القرآن»، وقد یُفسّر بأنّه الدلائل المنطقیه والعقلیه التی توصل الإنسان إلی الله، کما احتملوا أن یکون المراد هو ذکر الله الذی یقابل الغفله عند الإنسان. إلاّ أنّ الظاهر أنّ هذا التعبیر ذو مفهوم واسع بحیث یشمل کلّ توجّه نحو الله، سواء أکان ذلک عن طریق القرآن، أو عن طریق العقل، أو عن طریق السنّه، أو تذکّر القیامه وما إلی ذلک!

التحذير من موده أعداء الحقّ أعداء الله وأعداء المسلمين

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّی وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّهِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِی سَبِيلِی وَابْتِغَاء مَرْضَاتِی تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّهِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ)(۱).

هذه الآيه نزلت فی (حاطب بن أبی بلتعه) وقصته معروفه كيف أعطی كتاباً إلی مشركی قريش فی مكه يخبرهم بأنّ الرسول يَعدُ العده لفتح مكه فليتخذوا حذرهم وكان هذا الكتاب قد اعطاه إلی «ساره مولاه أبی عمرو بن صيفی بن هشام» وقد ارسل النبی علياً وعمار وعمر والزبير وطلحه والمقداد بن الأسود وابا مرثد ليدركوها فی روضه خاخ فأدركوها فی ذلك المكان، فقالوا لها أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحوّها وفتّشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً، فهمّوا بالرجوع، فقال علی : والله ما كذّبنا ولا كُذّبنا، وسلّ سيفه وقال: أخرجی الكتاب وإلّا والله لأضربنّ عنقكِ. فلمّا رأت جدّ علی أخرجته من ذؤابتها، فرجعوا بالكتاب إلی رسول الله ، فأرسل إلی حاطب بن أبی بلتعه واعتذر لرسول الله وحَلَف له أنّه لم يخنه وقال لرسول الله أنه عِلَم ان الله سينزل بهم باسه فما يغنی عنهم كتابه شيئاً فأراد عمر ضرب عنقه لكن رسول الله عفا عنه.

وقال لعمر وما يدريك يا عمر لعلّ الله اطّلع علی أهل بدر فغفر لهم فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

وكيفيه العلاقه التی يجب أن تتحكّم بين المسلمين من جهه، والمشركين وأعداء الله

۱- الممتحنه: ۱.

من جهه اُخرى، والتأكيد على إلغاء وتجنّب أى ولاء مع أعداء الله(۱).

علمنا ممّا تقدّم أنّ هذه الآيه تحذر المسلمين من تكرار مثل هذه التصرّفات مستقبلا وتنهاهم عنها.

يقول سبحانه فى البدايه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء) مؤكّداً أنّ أعداء الله وحدهم هم الذين يضمرون العداء للمؤمنين والحقد عليهم، ومع هذا التصوّر فكيف تمدّون يد الصداقه والودّ لهم؟

ويضيف تعالى: (تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّهِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ)(۲).

إنّهم يخالفونكم فى العقيده، كما أنّهم شنّوا عليكم الحرب عمليّاً، ويعتبرون إيمانكم بالله _ الذى هو أكبر فخر لكم وأعظم قداسه تجلّلكم _ غايه الجرم وأعظم الذنب، ولهذا السبب قاموا بإخراجكم من دياركم وشتّتوكم من بلادكم... ومع هذه الأعمال التى مارسوها معكم، هل من المناسب إظهار المودّه لهم، والسعى لإنقاذهم من يد العداله والجزاء الإلهى على يد المقاتلين المسلمين المقتدرين. ثمّ يضيف القرآن الكريم موضّحاً: (إن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِى سَبِيلِى وَابْتِغَاء مَرْضَاتِى)(۳) فلا تعقدوا معهم أواصر الولاء والودّ.

۱- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۶۹ ، بتلخيص مختصر، كما نقل هذا فى سبب النزول: البخارى فى صحيحه، ج ۹ ،ص ۱۸۵، والفخر الرازى، وورد كذلك فى تفسير روح المعانى، وروح البيان، وفى الظلال، والقرطبى، والمراغى، وفى تفاسير اُخرى باختلاف.

۲- جمله: (تلقون إليهم بالمودّه) قالوا: إنّها حال من ضمير (لا تتّخذوا) كما قيل: إنّها جمله استئنافيه (الكشّاف، ج ۴، ص ۵۱)

۳- يعتقد بعض المفسّرين أنّ هذه الجمله الشرطيه لها جزاء محذوف يستفاد من الجمله السابقه تقديره: (وإن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى لا تتولّوا أعدائى).

فإذا كنتم ممّن تدّعون حبّ الله حقّاً، وهاجرتم من دياركم لأجله سبحانه وترغبون فی الجهاد فی سبیله طلباً لرضاه تعالی، فإنّ هذه الأهداف العظیمه لا یناسبها إظهار الولاء لأعداء الله سبحانه.

ثمّ یضیف عزّ وجلّ للمزید من الإیضاح فیقول: (تُسِرُّونَ إِلَیْهِم بِالْمَوَدَّهِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَیْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ)(۱) (۲). بل انهم یسعون عن طریق المکر والخدیعه ان یصوّروا لکم الأشیاء والواقع علی غیر صورته الحقیقیه، ویصلون عن هذا الطریق إلی مقاصدهم، وإلاّ فلو کان هدفهم هو إرضاء المؤمنین الحقیقیین عنهم، فإنّ إرضاء الله ورسوله أهم من إرضاء المؤمنین، غیر أنا نری أنّهم بأعمالهم هذه قد أسخطوا الله ورسوله، ولذا عقبت الآیه فقالت: (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن یُرْضُوهُ إِن کَانُواْ مُؤْمِنِینَ).

ممّا یلفت النظر أن الجمله المذکوره لما کانت تتحدث عن الله ورسوله، فعلی القاعده النحویه ینبغی أن یکون الضمیر فی «یرضوه» ضمیر التثنیه غیر أن المستعمل هنا هو ضمیر المفرد، وهذا الاستعمال والتعبیر یشیر إلی أن رضا النّبی من رضا الله. بل أنّه لا یرتضی من الأعمال إلاّ ما یرتضیه الله سبحانه، فی الحقیقه هذا التعبیر یشیر إلی حقیقه (توحید الأفعال)، لأنّ النّبی لا یملک استقلالیه العمل فی مقابل الله، بل إن غضبه ورضاه وکل أعماله تنتهی إلی الله، فکل شیء من أجل الله وفی سبیله.

روی أنّ رجلا فی زمن النّبی قال ضمن کلامه: من أطاع الله ورسوله فقد فاز، ومن عصاهما فقد غوی. فلما سمع النّبی کلامه غضب _ حیث أن الرجل ذکر الله ورسوله بضمیر التثنیه فکأنّه جعل الله ورسوله فی درجه واحده _ وقال: «بئس

۱- الجمله أعلاه جمله استئنافیه.

۲- التعبیر هنا ب (ما أخفیتم) عوض (ما أسررتم) جاء تأکیداً للمبالغه، لأنّ الإخفاء مرحله أعمق من السرّ (تفسیر الفخر الرازی).

الخطيب أنت، هلا قلت: ومن عصى الله ورسوله»(۱).

وفى الآيه الثّانيه نرى أنّ القرآن يُهدد المنافقين تهديداً شديداً، فقال: (أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا)(۲).

وفى نهايه الآيه نجد تهديداً شديداً لمن يجانب السبيل الذى أمر به الله سبحانه بقوله: (وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ).

فمن جهه انحراف عن معرفه الله تعالى بظنّهِ أن الله لا يعلم ولا يرى ما يصنع، وكذلك انحراف عن طريق الايمان والاخلاص والتقوى، حينما يعقد الولاء وتقام أواصر المودّه مع أعداء الله، وبالاضافه إلى ذلك فإنه وجّه ضربه قاصمه إلى حياته حينما أفشى أسرار المسلمين إلى الأعداء، ويمثّل ذلك أقبح الأعمال وأردأ الممارسات حينما يسقط الشخص المؤمن بهذا الوحل ويقوم بمثل هذه الأعمال المنحرفه بَعد بلوغه مرتبه الإيمان والقداسه.

المباحات حق والمحرمات باطل

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)(۳).

لقد شاهدنا مراراً أنّ القرآن الكريم كلما تحدّث عن أمر مباح أو لازم، تحدث فوراً عن ما يقابله، من الأُمور القبيحه والمحرمات، ليكمِّل كل واحد منهما الآخر.

وهنا أيضاً تحدّث _ عقيب السماح بالتمتع والاستفاده من المواهب الإلهيه وإباحه كل ما هو زينه وجمال _ عن المحرمات على نحو العموم، ثمّ أشار بصوره خاصّه إلى

۱- تفسير أبى الفتوح الرازى، ذيل الآيه.

۲- التوبه:۶۳.

۳- الأعراف:۳۳.

عده نقاط مهمّه. ففی البدایه تحدث عن تحریم الفواحش وقال: یا أیّها النّبی (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّیَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ).

و «الفواحش» جمع «فاحشه» وتعنی الأعمال القبیحه البالغه فی القبح والسوء جمیع الذنوب، ولعلّ التأکید علی هذا المطلب (ما ظهر منها وما بطن) هو لأجل أنّ العرب الجاهلیین کانوا لا یستقبحون عمل الزنا إذا أُتی به سرّاً، ویحرّمونه إذا کان ظاهراً مکشوفاً. ثمّ عمّم الموضوع، وأشار إلی جمیع الذنوب وقال «والإثم» أی کل إثم.

والإثم فی الأصل یعنی کل عمل مضرّ، وکل ما یوجب انحطاط مقام الإنسان وتردّی منزلته، ویمنعه ویحرمه من نیل الثواب والأجر الحسن.

ومرّه أُخری یشیر بصوره خاصّه إلی عدد من کبریات المعاصی والآثام، فیقول: (وَالْبَغْیَ بِغَیْرِ الْحَقِّ) أی کل نوع من أنواع الظلم، والتجاوز علی حقوق الآخرین، ومن الواضح أنّ وصف «البغی» فی الآیه المبحوث عنها ب_«غیر الحق» من قبیل التوضیح والتأکید علی معنی «البغی».

تغییر القبله حق والمعاندون باطل

(وَمِنْ حَیْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّکَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)(۱)

هذه الآیه تأمر النبی وتقول: (وَمِنْ حَیْثُ خَرَجْتَ)... من أیه مدینه، وأیه دیار (فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ).

ولمزید من التأکید تقول الآیه: (وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّکَ).

۱- البقره: ۱۴۹.

وتنتهى الآيه بتهديد المتآمرين والمعاندين: (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ). هذه التأكيدات المتواليه فى الآيه وفى الآيه التاليه تبيّن أن مسأله تغيير القبله كانت صعبه وثقيله على مجموعه من المسلمين حديثى العهد بالإسلام، كما كانت ذريعه بيد أعداء الإسلام اللجوجين لبثّ سمومهم. مثل هذه الحاله تتطلب دائماً موقفاً قاطعاً حاسماً ينهى كل شك وريبه، من هنا توالت التأكيدات القرآنيه القارعه لتبعث العزم واليقين فى نفوس الأتباع، وتعمق اليأس والخيبه بين الأعداء، وهذا أُسلوب اتبعه القرآن فى مواقف عديده.

فالآيه تشير إلى ثلاثه أمور هامّه:

١ ـ إلجام المعارضين ـ تقول الآيه: (لِئَلاّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ).

قبل تغيير القبله كانت ألسنه المعارضين من اليهود والمشركين تقذف المسلمين بالتهم والحجج، فاليهود يعترضون قائلين: إن النّبى الموعود يصلى إلى قبلتين، وهذه العلامه غير متوفره فى محمّد ﷺ، والمشركون يعترضون على النّبى ﷺ قائلين: كيف ترك محمّد الكعبه وهو يدعى أنّه بعث لإحياء ملّه إبراهيم ﷺ.

وهؤلاء لا يستقيمون على طريق، حتّى اتجهتم صوب بيت المقدس للصلاه اتهموكم بالذيليه وعدم الأصاله، وحينما عدلتهم إلى الكعبه وصفوكم بعدم الثبات هؤلاء المفترون ظالمون حقاً، ظالمون لأنفسهم، ظالمون مَن يقطعون عليه طريق الهدايه.

٢ ـ حين وصف الآيه هؤلاء المعاندين أنهم ظالمون، فقد يُثبت هذا الوصف خوفاً فى نفوس البعض لذلك قالت الآيه: (فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِى).

وهذه الفقره من الآيه تطرح أصلا عاماً أساسياً من أصول التربيه التوحيديه الإسلاميه، هو عدم الخوف من أى شىء سوى الله.

وإذا ترسخ هذا المبدأ التربوى فى نفوس الجماعه المسلمه فلن تفشل ولن تنهزم قط.

أما المتظاهرون بالإسلام فهم يخافون من «الشرق» تاره، ومن «الغرب» تاره اُخرى، ومن «المنافقين الداخليين» ومن «الأعداء الخارجيين» ومن كل شیء سوى الله. وهؤلاء دائماً أذلاء ضعفاء مهزومون.

۳ ـ وآخر هدف ذكر لتغيير القبله هو إتمام النعمه: (وَلِاُتِمَّ نِعْمَتی عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ).

فتغيير القبله كان فی الواقع نوعاً من التربيه والتكامل والنعمه للمسلمين كی يتعرفوا على الانضباط الإسلامی ويتخلصوا من التقليد والتعصب، فالله سبحانه أمر المسلمين فی البدايه أن يصلوا تجاه بيت المقدس كی تنعزل صفوف المسلمين عن صفوف المشركين الذين كانوا يقدسون الكعبه. وبعد الهجره وإقامه الدوله الإسلاميه صدر الأمر بالصلاه نحو الكعبه.... نحو أقدم بيت توحيدی، وبذلك تحقق اجتياز مرحله من مراحل تكامل المجتمع الإسلامی.

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِی حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ)(۱).

هذه الآيه تخاطب الكافرين والمجرمين وتذكر جانباً من أنواع العذاب الجسمی والروحی الذی سينال هؤلاء جزاء كل التمتع الباطل، واتّباع الشهوات الأعمى وعباده الهوى والاستكبار والفسق والفجور وتذيقون العذاب المذل والمهين بسبب تلكم الاعمال وهنا لابد من ذكر بعض النقاط المهمه.

أولاً: التعبير ب ـ«عذاب الهون» بمثابه ردّ فعل لاستكبار هؤلاء فی الأرض، لأنّ العقوبه الإلهيه تتناسب تماماً مع نوع الذنب والمعصيه، فأُولئك الذين تكبّروا على خلق

۱- الأحقاف: ۲۰.

الله، بل وحتی علی أنبیائه، ولم یخضعوا لأیّ تشریع إلهی، یجب أن یلاقوا جزاءهم بذله وحقاره ومهانه.

ثانیاً: لقد ذُکر فی ذیل هذه الآیه ذنبان لأصحاب الجحیم، الأوّل: الاستکبار، والثّانی: الفسق. ویمکن أن یکون الأوّل إشاره إلی عدم إیمانهم بآیات الله وبعث الأنبیاء والقیامه، والثّانی إشاره إلی أنواع الذنوب والمعاصی، فأحدهما یتحدّث عن ترک أصول الدین، والآخر عن تضییع فروع الدین(۱).

ثالثاً: إنّ التعبیر ب_«غیر الحق» لا یعنی أنّ الاستکبار نوعان: حق، وغیر حق، بل إنّ هذه التعابیر تُقال عادهً للتأکید، ونظائرها کثیر.

جاء فی حدیث أنّ عمر أتی یوماً رسول الله فی مشربه أُم إبراهیم _ وهو موضع قرب المدینه _ وکان مضطجعاً علی حصیر من الخوص، وجزء من بدنه الشریف علی التراب، وکانت تحت رأسه وساده من لیف النخل، فسلّم وجلس، وقال: أنت نبیّ الله وأفضل خلقه، هذا کسری وقیصر ینامان علی أسره الذهب وفرش الدیباج وأنت علی هذا الحال؟ فقال : «أُولئک قوم عجلت طیّباتهم وهی وشیکه الإنقطاع، وإنّما أخرت لنا طیباتنا»(۲).

وصف دقیق لمنظر الحق والباطل

(أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِیَهٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّیْلُ زَبَدًا رَّابِیًا وَمِمَّا یُوقِدُونَ عَلَیْهِ فِی النَّارِ ابْتِغَاء حِلْیَهٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ کَذَلِکَ یَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَیَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا یَنفَعُ النَّاسَ فَیَمْکُثُ فِی الأَرْضِ کَذَلِکَ یَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ)(۳).

۱- تفسیر المیزان، المجلد ۱۸ ، صفحه ۲۲۴.

۲- مجمع البیان، ج ۹، ص ۸۸.

۳- الرعد:۱۷.

يستند القرآن الكريم – الذى يعتبر كتاب هدايه وتربيه - فى طريقته إلى الوقائع العينيّه لتقريب المفاهيم الصعبه إلى أذهان الناس، وهنا _ أيضاً _ لأجل أن يُجسّم حقائق الآيات السابقه التى كانت تدور حول التوحيد والشرك، والإيمان والكفر، الحقّ والباطل، يضرب مثلا واضحاً جدّاً لذلك... يقول أوّلا: (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء) الماء عماد الحياه وأصل النمو والحركه، (فَسَالَتْ أَوْدِيَهٌ بِقَدَرِهَا) تتقارب السواقى الصغيره فيما بينها، وتتكوّن الأنهار وتتّصل مع بعضها البعض، فتسيل المياه من سفوح الجبال العظيمه والوديان وتجرف كلّ ما يقف أمامها، وفى هذه الأثناء يظهر الزَّبد وهو ما يرى على وجه الماء كرغوه الصابون من بين أمواج الماء حيث يقول القرآن الكريم: (فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا). «الرابى» من «الربو» بمعنى العالى أو الطافى، والربا بمعنى الفائده مأخوذ من نفس هذا الأصل: وليس ظهور الزبد منحصراً بهطول الأمطار، بل (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَهٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ) أى الفلزات المذابه بالنّار لصناعه أدوات الزينه منها أو صناعه الوسائل اللازمه فى الحياه. بعد بيان هذا المثال بشكله الواسع لظهور الزبد ليس فقط فى الماء بل حتّى للفلزات وللمتاع، يستنتج القرآن الكريم (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ)، ثمّ يتطرّق إلى شرحه فيقول: (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ).

فأمّا الزبد الذى لا فائده فيه فيذهب جفاءً ويصير باطلا متلاشياً، وأمّا الماء الصافى النقى المفيد فيمكث فى الأرض أو ينفذ إلى الأعماق وتتكوّن منه العيون والآبار تروى العطاش، وتروى الأشجار لتُثمر، والأزهار لتتفتّح، وتمنح لكلّ شىء الحياه.

وفى آخر الآيه _ للمزيد من التأكيد فى مطالعه هذه الأمثال _ يقول سبحانه تعالى: (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ).

أصحاب الكهف رمز الحق

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)(۱).

تشير الآيات القرآنيه ـ وما هو ثابت فى التأريخ ـ إلى أنَّ أصحاب الكهف كانوا يعيشون فى بيئه فاسده وزمان شاعت فيه عباده الأصنام والكفر، وكانت هناك حكومه ظالمه تحتمى مظاهر الشرك والكفر والانحراف.

مجموعه أهل الكهف ـ الذين كانوا على مستوى من العقل والصدق ـ أحسّوا بالفساد وقرّروا القيام ضدَّ هذا المجتمع، وفى حال عدم تمكنهم مِن المواجهه والتغيير فإنّهم سيهجرون هذا المجتمع والمحيط الفاسد ويلتزموا جانب الحق قوله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى).

مِن الدروس التى نستفيدها مِن قصّه أصحاب الكهف أنَّ مقياس قيمه البشر ليست بالمنصب الظاهرى أو بالثروه، بل عندما يكون المسير فى سبيل الله يتساوى الوزير والراعى، والآيات التى نبحثها تؤكّد هذه الحقيقه المهمّه وتعطى للرّسول هذا الأمر: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاهِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)(۲) إنَّ استخدام تعبير (الغداه والعشى) إشاره إلى أنّهم كانوا دائماً وأبداً يذكرون الله.

وأما استخدام تعبير (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ) هو إشاره إلى حقيقه أنّ رسول الله كانَ قد تعرَّض إلى ضغط الأعداء المستكبرين والمشركين حتى يُبعد عنهُ مجموع المؤمنين الفقراء الحفاه الأطهار.

لذلك جاءه الأمر الإلهى بالصبر والاستقامه أمام هذا الضغط المتزايد وأن لا يستسلم له.

۱- الكهف: ۱۳.

۲- الكهف: ۲۸.

أمّا استخدام مصطلح (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) فهو دليل على إخلاصهم وإشاره إلى أنّهم يعبدون الله لذاته لا طمعاً بالجنه ولا خوفاً مِن الجحيم وعذابه بل يعبدون الله لأجل ذاته المُنزَّهه، وهذا أعلى مرتبه فى الطاعه والعبوديه والحبّ والإيمان بالله تعالى.

فأهل الكهف مؤمنون حقيقيون إلّا أنّهم فقراء، ولهم قلوب مملوءه بحبّ الله، يذكرونه باستمرار ويسعون إليه.

أما الأغنياء المستكبرون الغافلون عن ذكر الله، والذين لا يتبعون سوى هواهم، وخارجون عن حدَّ الاعتدال فى كل أُمورهم ويُفرّطون ويُسرِفون.

ولما للموضوع أعلاه مِن الأهميه بمكان- بحيث أنَّ القرآن يقول للرّسول _ بصراحه _ فى الآيه (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ)(۱).

ليس الأكثريه دائماً معياراً للحق

(وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّهٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)(۲).

فى هذه الآيه إشاره إلى حقيقه رأينا نظيرها فى القرآن الكريم، وهذه الحقيقه هى تحرى القرآن للحق، واحترامه لمكانه الأقليات الدينيه الصالحه، يعنى أنّه لم يكن ليصف جميع بنى إسرائيل بأسرهم بالفساد والإفساد، وبأنّ هذا العرق القومى برمته ضالّ متمرد من دون استثناء، بل اعترف بأنّ منهم أقليه صالحه غير موافقه على أعمال الأكثريه، وأولى القرآن الكريم اهتماماً خاصاً بهؤلاء فيقول: (وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّهٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ).

إنَّ هذه الآيه قد تشير إلى فريق صغير لم يسلّموا للسامرىّ ودعوته، وكانوا يدافعون عن دين موسى دائماً وأبداً، أو إلى الفرق والطوائف الصالحه الأُخرى التى

۱- الكهف: ۲۹.

۲- الأعراف: ۱۵۹.

جاءت بعد موسی . ولکن هذا المعنی یبدو غیر منسجم مع ظاهر الآیه، لأن «یهدون» و«یعدلون» وهو علی الأقل یحکی عن زمان الحال، یعنی عصر نزول القرآن، ویُثبت وجود مثل هذا الفریق فی ذلک الزمان.

وعلی کل حال هذه الطائفه الصغیره التی تمثل الحق مقابل الاکثریه الذین یمثلون الباطل ویتمسّکون به فرأی وعقیده الأکثریه لیست هی المعیار دائماً وانّما الحق هو المعیار وهناک أمثله کثیره فی التاریخ بأنّ أصحاب الحقّ قلیلون واصحاب الباطل کثیرون وسیره الأئمه الأطهار حافله بهکذا امر والقرآن الکریم یصرّح بقوله تعالی: (وَأَکْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ کَارِهُونَ)(۱).

وکذلک یمکن أن یکون ناظراً إلی الأقلیه الیهودیه الذین کانوا یعیشون فی عصر رسول الله والذین اعتنقوا الإسلام تدریجاً وبعد مطالعه دعوه النّبی ومحتوی رسالته، وانضموا إلی صفوف المسلمین الصادقین. وهذا التّفسیر ینسجم أکثر مع ظاهر الفعلین المضارعین المستعملین فیها.

الله حق والأصنام باطل

(فَذَلِکُمُ اللهُ رَبُّکُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلَالُ)(۲).

وبعد أن عرضت الآیات السابقه لهذه الآیه، نماذج من آثار عظیمه وتدبیر الله سبحانه فی السماء والأرض وایقظت وجدان وعقل المخالفین ودعوتهم للحکم فی أمر الخالق، واعترف هؤلاء بذلک، خاطبتهم الآیه التالیه بلهجه قاطعه وقالت: (فَذَلِکُمُ اللهُ رَبُّکُمُ الْحَقُّ) لا الأصنام، ولا سائر الموجودات التی جعلتموها شریکه للباری عزَّ وجلّ، والتی تسجدون أمامها وتعظمونها.

۱- المؤمنون.

۲- یونس:۳۲.

کیف یمکن أن یکون هؤلاء أهلاً للعبودیه فی حین أنّهم لیسوا فقط غیر قادرین علی المشارکه فی خلق العالم وتدبیره فحسب، بل منغمسین فی الفقر والاحتیاج من الرأس حتی أخمص القدم.

ثمّ تنتهی إلی ذکر النتیجه: (فَذَلِکُمُ اللهُ رَبُّکُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلَالُ فَأَنَّی تُصْرَفُونَ) وأنّی تولوا وجوهکم عن عباده الله وأنتم تعلمون ألاّ خالق ولا معبود حقّاً سواه؟ إنّ هذه الآیه فی الواقع تطرح طریقاً منطقیّاً واضحاً لمعرفه الباطل وترکه، وهو أن یخطو الإنسان أوّلا فی سبیل معرفه الحق بآلیات الوجدان والعقل، فإذا عرف الحق فإنّ کل ما خالفه باطل وضلال، ویجب أن یُضرب عرض الحائط.

وتقول آخر آیه فی بیان العله فی عدم اتباع هؤلاء للحق رغم وضوح الأمر وظهور الحق: (کَذَلِکَ حَقَّتْ کَلِمَتُ رَبِّکَ عَلَی الَّذِینَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ یُؤْمِنُونَ)(۱) وفی الواقع فإنّ هذه خاصیه الأعمال السیئه المستمره لهؤلاء بحیث تُظلم قلوبهم وتلوث أرواحهم إلی درجه لایرون معها الحق رغم وضوحه وتجلّیه، ویسلکون نتیجه لذلک طریق الضلال.

دعاء الله حق ودعاء الأصنام باطل

(لَهُ دَعْوَهُ الْحَقِّ وَالَّذِینَ یَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ یَسْتَجِیبُونَ لَهُم بِشَیْءٍ)(۲).

الآیه تشیر إلی مطلبین:

الأول: قوله تعالی: (لَهُ دَعْوَهُ الْحَقِّ) فهو یستجیب لدعواتنا، وهو عالم بدعاء العباد وقادرٌ علی قضاء حوائجهم، ولهذا السبب یکون دعاؤنا إیّاه وطلبنا منه حقّاً، ولیس باطلا.

۱- کاف التشبیه فی فی (کذلک) هنا إشاره إلی المطلب الذی ذکر فی آخر جمله من الآیه السابقه، ومعنی الآیه هکذا: کما أنّه لیس بعد الحق إلا الضلال، کذلک حقّت کلمه ربّک.

۲- الرعد: ۱۴.

ولكن دعاء الأصنام باطل (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ) نعم هكذا فى دعوه الباطل ليست أكثر من وهم، لأنّ ما يقولونه من علم وقدره الأصنام ما هو إلاّ أوهام وخيال، أو ليس الحقّ هو عين الواقع وأصل الخير والبركه؟ والباطل هو الوهم وأصل الشرّ والفساد؟ ولتصوير هذا الموضوع يضرب لنا القرآن الكريم مثالا حيّاً ورائعاً يقول: (إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ) فهل يستطيع أحدٌ أن يجلس على بئر ويطلب الماء بإشاره يد ليبلغ الماء فاه؟ هذا العمل لا يصدر إلاّ من إنسان مجنون.

وتحتمل الآيه تفسيراً آخر، فهى تُشَبّه المشركين كمن بسط كفّه فى الماء ليتجمع فوقها الماء، وعند خروجها من الماء لم يجد فيها شيئاً منه لأنّ الماء يتسرّب من بين أصابع الكفّ المفتوحه.

وهناك تفسير ثالث وهو أنّ المشركين ـ لحلّ مشاكلهم ـ كانوا يلجأون إلى الأصنام، فمثلهم مثل الذى يحتفظ بالماء فى يده، هل يُحفظ الماء فى يد؟! وهناك مثل معروف بين العرب لمن يسعى بدون فائده يقال له: هو كقابض الماء باليد، ويقول الشاعر:

فأصبحت فى_ما كان بينى وبينهامن الودّ مثل القابض الماء باليد

لكنّنا نعتقد أنّ التّفسير الأوّل أوضح!

ولايه الله حق

(هُنَالِكَ الْوَلَايَهُ لِلهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)(۱).

ان جميع النعم والآلاء منه تعالى، وأنَّ كل ما يريده تعالى يكون طوع إرادته، وأنَّهُ بدون الاعتماد على لُطفه لا يمكن إنجاز عمل: (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا).

۱- الكهف: ۴۴.

إذن، لو أراد الإنسان أن يحب أحداً ويعتمد على شيء ما، أو يأمل بهديّه مِن شخص ما، فمن الأفضل أن يكون الله سبحانه محطَ أنظاره، وموقع آماله، ومِن الأفضل أن يتعلق بلطفه تعالى وإحسانه.

فى المقابل نرى:

١- مهما كانت نعم الدنيا الماديه كبيره وواسعه، فإنّها غير مُطمئنَه وغير ثابته، فصاعقه واحده تستطيع فى ليله أو فى لحظات معدوده أن تُبيد البساتين والمزارع التى يكمن فيها جهد سنين طويله مِن عمر الإنسان، وتحيلها إلى تل مِن تراب ورماد وأرض يابسه زلقه.

إنَّ زلزله واحده خفيفه يمكن أن تقضى على العيون الفوّاره التى هى الأصل فى هذه الحياه، بالشكل الذى لا يمكن معهُ ترميمها أبداً.

٢- إنَّ الأصدقاء الذين يلتفون حول الإنسان بغرض الإفاده من إمكاناته الماديه هم بدرجه من اللامبالاه وعلى قدر مِن الغدر والخيانه بحيث أنّهم يتخلّون عنهُ فى نفس اللحظه التى تزول فيها إمكاناته الماديه ويتركونهُ وحيداً لهمومه: (وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا).

هذا النوع مِن الأحداث الذى طالما سمعنا ورأينا لهُ نماذج تُبرهن على أنَّ الإنسان لا يملك سوى التعلق بالله وحده، وان ما دون الله كله باطل وفانى.

ولما كانت ولايه أمير المؤمنين على بموجب (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ...) قبساً من ولايه الله ورسوله والولايات غير المعينه من قبل الله ليست كذلك، فإنّ هذه الآيه من خلال نظره واسعه تشمل الجميع، وعليه ليس المقصود من هذا الحديث أن ينحصر معنى الآيه فى هذا فقط، بل إنّ هذا التّفسير قبس من مفهوم الآيه الأصلى.

لذلك نجد فى حديث آخر عن الإمام الصّادق أنّه جعل هذه الآيه تشمل

الخوارج الذين خرجوا من ولايه الله ودخلوا فى ولايه الشيطان(۱).

الآيه التّاليه فيها إشاره إجماليه لما مضى من بحث بشأن التوحيد ومجابهه الشرك كما جاء فى لسان إبراهيم: فتقول: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبْرَاهِيمَ عَلَى قومه...)(۲).

صحيح أنّ تلك الاستدلالات كانت منطقيه توصّل إليها إبراهيم بقوّه العقل والإلهام الفطرى غير أن قوه العقل والإلهام الفطرى من الله، لذلك فإنّ الله ينسبها إلى نفسه ويوقعها فى القلوب المستعده كقلب إبراهيم .

ومن الجدير بالملاحظه أنّ «تلك» اسم إشاره للبعيد، غير أنّها تستعمل أحياناً للقريب للدلاله على أهميه المشار إليه وعلو مقامه، مثل ذلك ما جاء فى أوّل سوره البقره: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ).

ثمّ تقول الآيه: (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء)(۳) ولكيلا يُخامر بعضهم الشك فى أنّ الله يحابى فى إعطاء الدرجات لمن يشاء، تقول: إن الله متّصف بالحكمه وبالعلم، فلا يمكن أن يرفع درجه من لا يستحق ذلك: (إنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ).

(قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)(۴).

تتحدّث هذه الآيه – وهى آخر آيه من سوره الأنبياء- عن غفله الناس الجهّال، فتقول حكايه عن النّبى فى عباره تشبه اللعن، وتعكس معاناته من كلّ هذا الغرور والغفله، وتقول: إنّ النّبى بعد مشاهده كلّ هذا الإعراض (قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ)(۵) وفى الجمله الثّانيه يُوجّه الخطاب إلى المخالفين ويقول: (وَرَبُّنَا

۱- تفسير البرهان، ج ۱، ص ۵۳۸.

۲- الأنعام: ۸۳.

۳- انظر المجلد الثالث، تفسير الآيه (۱۴۵) من سوره النساء لمعرفه الفرق بين «الدرجه» و «الدرك».

۴- الأنبياء:۱۱۲.

۵- لاشك أنّ حكم الله سبحانه بالحقّ دائماً، وعلى هذا فإنّ ذكر كلمه (بالحقّ) هنا له صبغه التوضيح.

الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ).

إنّه فی الحقیقه یُنبّه هؤلاء بکلمه (ربّنا) إلی هذه الحقیقه، وهی أنّنا جمیعاً مربوبون ومخلوقون، وهو ربّنا وخالقنا جمیعاً.

والتعبیر بـ «الرحمن»، والذی یشیر إلی الرحمه العامّه، یعید إلی أسماع هؤلاء أنّ الرحمه الإلهیه قد عمّت کلّ وجودنا، فلماذا لا تفکّروا لحظه فی خالق کلّ هذه النعمه والرحمه؟

وتعبیر (الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) یحذّر هؤلاء بأن لا تظنّوا أنّا وحیدون أمام جمعکم وکثرته، ولا تتصوّروا أنّ کلّ اتهاماتکم وأکاذیبکم، سواء کانت علی ذات الله المقدّسه، أو علینا، ستبقی بدون جواب وجزاء، کلّا مطلقاً، فإنّه تعالی سندنا ومعتمدنا جمیعاً، وهو قادر علی أن یدافع عن عباده المؤمنین أمام کلّ أشکال الکذب والإفتراء والاتهام.

أشارت الآیات السابقه ـ بشکل عابر ـ إلی التناقض بین التمسّک بالحقّ وبین الأهواء النفسیّه، وهی إشاره ذات مدلول کبیر، حیث تقول: (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) وتفسیر هذه المسأله لیس صعباً للأسباب الآتیه:

ألف ـ لا شکّ فی أنّ أهواء الناس متفاوته، وقد ینقض بعضها بعضاً، حتّی بالنسبه لشخص واحد فقد تتناقض أهواؤه.

ولو استسلم الحقّ لهذه الأهواء لنتج عن ذلک الفساد وعمّت الفوضی. لماذا؟ لأنّ کلّ فرد له صنم ومعبود، فلو حکمت هذه الآلهه الکثیره والمتضادّه هذا العالم المترامی الأطراف، لظهر الفساد وتعمّ الفوضی من جرّاء ذلک، وهذا لا یخفی علی أحد.

ب ـ إنّ أهواء الناس مع قطع النظر عن تناقضها، فهی تمیل نحو الفساد والشرّ ولو سادت الوجود والمجتمع البشری، فالنتیجه لا تکون سوی الفساد والشرّ.

ج ـ إنّ الميول والأهواء ذات بُعدٍ واحد، ولا تنظر إلى الاُمور إلّا من زاويه واحده وتغفل عن بقيّه الأبعاد، ومن المعلوم أنّ أحد العوامل المهمّه فى الفساد والخراب هو المنهج ذو البُعد الواحد الذى يغفل عن الأبعاد الاُخرى.

والآيه محلّ البحث تُشبه من بعض جوانبها ما ورد فى الآيه الثّانيه والعشرين من سوره الأنبياء (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا).

وبديهى أنّ الحقّ كالصراط المستقيم واحد لا نظير له، بينما الأهواء النفسيه متعدّده كأوثان المشركين. فأيّهما نتّبع الحقّ أم الهوى؟ أنتّبع الهوى الذى هو مصدر الفساد فى السّماء والأرض وفى جميع الموجودات، أم الحقّ الذى هو رمز الوحده والتوحيد والنظام والانسجام؟ الجواب فى غايه الوضوح والإشراق.

(وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ)(۱).

هذه الآيه تبيّن عباده المنافقين للدنيا وتفضح شركهم حيث أنهم إذا دعوا إلى حق لهم فيه نفع دُنيوى سارعوا إليه وبكل خضوع وتلسيم.

فلا يقنعون بحكم من الله ورسوله إلّا ما يحقق مصالحهم، فهم عبيد لها، وعلى الرغم من ادعائهم الإيمان، فهم مشركون حقّاً.

تكبّر فرعون وأعوانه أعماه وأصمه عن الحق

بعد كل ممارسات فرعون الباطله قبال الحق المتمثل فى دعوه موسى إلى الله يتحدث القرآن الكريم عن استكبار فرعون وعلوّه ومن معه، وعدم اذعانهم لمسألتى «المبدأ والمعاد» بحيث كان فرعون يرتكب ما يشاء من جرائم وجنايات بسبب انكار هذين الاصلين فيقول: (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ)(۲).

۱- النور: ۴۹.

۲- القصص: ۳۹.

هـذا الإنسان الضـعيف الذى لا يسـتطيع أن يبعد عن نفسه بعوضةً، وربّما قتله ميكروب لا يُرى بالعين المجرّده كيف يمكن له أن يدعى العظمه والألوهيّه!؟

ورد فى الحديث القدسى أنّ الله سبحانه يقول: «الكبرياء ردائى، والعظمه إزارى، فمن نازعنى واحداً منهما ألقيته فى النّار»(۱).

ومن البديهى أنّ الله لا يحتاج إلى أوصاف كهذه... ولكن حاله الطغيان والعدوان تسـتولى الإنسان حينما ينسى نفسه، وتملأ ريح الكبر والغرور فكره!

رد القرآن على المشركين باسلوب آخر

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطّفُ النّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَهِ اللهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذّبَ بِالْحَقّ لَمّا جَاءهُ أَلَيْسَ فِى جَهَنّمَ مَثْوًى لّلْكَافِرِينَ)(۲).

وفى الآيات ـ محل البحث ـ يردّ القرآن عليهم بطريق آخر فيقول: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا) أى أرض مكّه المكرمه.

فى حين أن العرب كـانوا يعيشون فى حاله غير آمنه خارج مكّه، وكانت قبائلهم مشـغوله بالنهب والسـلب والغارات، إلّا أن هـذه الأرض باقيه على أمنها (وَيُتَخَطّفُ النّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ).

فـالله المقتـدر على أن يجعـل فى هـذا البحر المتلاطم والطوفان المحـدق بأرض الحجاز «من الفتن» وحَرَم مكّه كالجزيره الهادئه الآمنه وسـط البحر. كيف لا يمكنه أن يحفظهم من أعـدائهم؟! وكيف يخافُ الناس الضـعاف قبال قـدره الله العظيمه جلّ وعلا؟ (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَهِ اللهِ يَكْفُرُونَ).

۱- تفسير روح المعانى، التّفسير الكبير، للفخر الرازى، تفسير الميزان وتفاسير أخر ذيل الآيه مورد البحث.

۲- العنكبوت: ۶۷و۶۸.

ملخص الكلام، أنّ الله القادر على أن يجعل فى أرض مضطربه فى وسط جماعه من الناس أنصاف وحشيين منطقه صغيره آمنه، فكيف لا يقدر على حفظ جماعه المؤمنين القلائل بين جماعات كثيره من الكفار.

وبعد ذكر هذا الدليل الواضح ينتهى القرآن الى هذه النتيجه فى الآيه التاليه (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذّبَ بِالْحَقّ لَمّا جَاءهُ).

لقد قدمنا دلائل واضحه لكم على أنّه لا شىء أحق بالعباده وأحرى بها من الله، لكنّكم كذبتم على الله، وصنعتم له شركاء بأيديكم، وتدعون أن هذا هو منهج إلهى.

ذريعه للفرار من الحق

(فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِىَ مِثْلَ مَا أُوتِىَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِىَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ)(۱).

تتحدّث هذه الآيه عن معاذير أولئك، وتشير إلى أنّهم ـ بعد إرسال الرسل ـ لم يكفّوا عن الحيل والذرائع الواهيه، واستمروا على طريق الانحراف، فتقول الآيه: (فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِىَ مِثْلَ مَا أُوتِىَ مُوسَى).

فلِمَ لم تكن عصا موسى فى يده؟ ولم لا تكون يده بيضاء «كيد موسى»؟ ولِمَ لا ينشقّ البحر له كما انشقّ لموسى؟! ولِمَ لِمَ... الخ.

فيجيب القرآن على مثل هذه الحجج، ويقول: (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِىَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا) أى موسى وهارون، تعاونا فيما بينهما ليضلونا عن الطريق (وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ).

والتعبير بـ«سحران» بدلاً عن «ساحران» لشده التأكيد، لأنّ العرب حين تريد

۱- القصص: ۴۸.

التأكيد على شخص فى خصله ما تقول: هو العدل عينه، أو بعينه، أو السحر وهكذا. كما يرد هذا الاحتمال إنّ مقصودهم المعجزتين العظيمتين لموسى وهما عصاه ويده البيضاء.

وإذا قيل: ما علاقه هذا الإنكار بمشركى مكّه، فهذه الأُمور متعلقه بفرعون وقومه السابقين؟

فالجواب على ذلك واضح... وهو أن التذرع بالحجج الواهيه ليس أمراً جديداً فجميعهم من نسيج واحد، وكلامهم يشبه كلام السابقين تماماً، وخطهم وطريقتهم ومنهجهم على شاكله واحده.

ومن جهه أُخرى، فإنّ القرآن الذى أنزلناه عليكم فيه دلائل الحق لائحه واضحه، إلّا أنّكم لم تكترثوا به، وألقيتموه وراء ظهوركم ظهريّاً! فهل يتصور ظلمٌ أشدّ من هذا؟! لقد ظلمتم أنفسكم وظلمتم الناس جميعاً، لأنّ الشرك ظلم عظيم.

وبتعبير آخر: هل الظلم بمعناه الوسيع إلّا الانحراف وإخراج الشيء عن محلّه الجدير به، وهل يرى أسوأ من أن يَعُدّ الإنسان حفنه من الأحجار المصنوعه التى لا قيمه لها أو الخشب المصنوع شركاء للخالق سبحانه الذى إضافه إلى ذلك فإنّ الشرك مصدر جميع المفاسد الاجتماعيه، وفى الواقع إن المظالم الأُخرى تسترفد منه، عباده الهوى، عباده المقام، عباده الدنيا، كل منها نوع من الشرك.

ولكن اعلموا أنّ عاقبه الشؤم والخزى للمشركين (أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ).

من الجدير ذكره أنّ فى القرآن الكريم ١٥ مورداً عبّر فيها القرآن عن بعض الأفراد بأنّهم الأظلم، وجميع هذه الموارد بدأت بجمله استفهاميه (وَمَنْ أَظْلَمُ) طبعاً الإستفهام هنا استنكارى.

وأخيراً يـذكر لنـا القرآن الكريم بـالرغم من أن المشاكـل المتعـدده تحيـط بطريق المسـير إلى الله، من قبيل مشـكله معرفه الحق، ومشـكله وسـاوس الشـياطين من الإنس والجن، ومشـكله عناد الأعـداء الألـداء الظالمين الـذين لا يرحمون، ومشـكله الانحرافات الاحتمـاليه، لكن هنـا حقيقه ثـابته، وهى أن الله يمنحكم القـوّه والاطمئنـان قبـال المشاكـل ويـدافع عنكم، تقـول الآـيه: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)(۱).

(ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ)(۲).

تشـير هذه الآيه إلى عله مصائب هذه المجموعه، حيث يقول تعالى كانوا يفرحون بمعارضه الأنبياء وقتل المؤمنين والتضـييق على المحرومين، وكانوا يشـعرون بالعظمه عند ارتكاب الذنوب وركوب المعاصـى. واليوم عليهم أن يتحملوا ضـريبه كلّ ذلك الفرح والغفلـه والغرور من خلالـ هـذه النيران والسـلاسل والسـعير. «تفرحـون» من «فَرَح» وتعنى السـرور والابتهـاج. وقـد يكـون الفرح ممدوحاً ومطلوباً فى بعض الأحيان، كما تفيد الآيتان (۴) و(۵) من سوره «الروم» فى قوله تعالى: (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ).

وفى بعض الأحيان يكون الفرح مـذموماً وباطلا، كما ورد فى قصه قارون، الآيه (۷۶) من سوره «القصص» حيث نقرأ قوله تعالى: (إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ).

طبعاً ان الفرح فى الآيه مورد البحث هو كما تبيّن القرائن من النوع الثّانى المذموم والباطل.

۱- العنكبوت: ۶۹.

۲- غافر:۷۵.

«تمرحون» مشتقّه من «مرح» على وزن «فرح» وهى كما يقول اللغويون والمفسرون، تأتى بمعنى شده الفرح، وقال آخرون: إنّها تعنى الفرح بسبب بعض القضايا الباطله فى حين ذهبت جماعه ثالثه إلى اعتبارها حاله من الفرح المتزامن مع نوع من الطرب والاستفاده من النعم الإلهيه فى طريق الباطل.

والظاهر أنّ هذه المعانى جميعاً تعود إلى موضوع واحد، ذلك أنّ شدّه الفرح والإفراط فيه يشمل جميع المواضيع والحالات السابقه. وفى نفس الوقت فهو يتزامن مع أنواع الذنوب والآثام والفساد والشهوه.

أساس الانحراف بالنسبه للمشركين

(وَمَا قَدَرُوا اللَّه حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَهِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)(۱).

هذه الآيه تكشف عن الجذر الرئيسى لانحرافهم، وتقول: (وَمَا قَدَرُوا اللَّه حَقَّ قَدْرِهِ) ولهذا تنزلوا باسمه المقدس حتى جعلوه رديفاً للاوثان!!

نعم، فمصدر الشرك هو عدم معرفه البارىء عزّ وجلّ بصوره صحيحه، فالذى يعلم:

أوّلا: أنّ الله مطلق وغير محدود من جميع النواحى.

وثانياً: أنّه خالق كلّ الموجودات التى تحتاج إليه فى كلّ لحظه من لحظات وجودها.

وثالثاً: أنّه يُدبر الكون ويحل كلّ عقد المشاكل، وأنّ الأرزاق بيده، وحتى الشفاعه إنّما تتمّ بإذنه وأمره، فما معنى توجه من يعلم بكلّ هذه الحقائق إلى غير ذلك.

۱- الزمر: ۶۷.

وأساساً فإنّ وجود مثل هذه الصفات فی موجودین اثنین أمر محال، لأنّه من غیر الممکن عقلاـ وجود موجودین مطلقین من جمیع الجهات.

ثمّ یأتی القرآن بعبارتین کنائیتین بعد العباره السابقه، وذلک لبیان عظمه وقدره البارىء عزّ وجلّ، إذ یقول کلام الله المجید: (وَالْأَرْضُ جَمِیعًا قَبْضَتُهُ یَوْمَ الْقِیَامَهِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِیَّاتٌ بِیَمِینِهِ).

«القبضه»: الشیء الذی یقبض علیه بجمیع الکف، تستخدم ـ عاده ـ للتعبیر عن القدره المطلقه والتسلط التام، مثلما نقول فی الاصطلاحات الیومیه الدارجه: إن المدینه الفلانیه هی بیدی، أو الملک الفلانی هو بیدی وفی قبضتی.

(قُلْ یَا أَهْلَ الْکِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِی دِینِکُمْ غَیْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ کَثِیرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِیلِ)(۱).

الآیه تأمر رسول الله ، بعد اتضاح خطأ أهل الکتاب فی الغلو أن یدعوهم بالأدله الجلیه إلی الرجوع عن السیر فی هذا الطریق: (قُلْ یَا أَهْلَ الْکِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِی دِینِکُمْ غَیْرَ الْحَقِّ)(۲).

إنّ غلو النصاری معروف، إلاّ أنّ غلو الیهود، الذی یشملهم تعبیر (قُلْ یَا أَهْلَ الْکِتَابِ) قد یکون إشاره إلی ما کانوا یقولونه عن العُزیر وقد اعتبروه ابن الله، ولما کان الغلو ینشأ ـ أکثر ما ینشأ ـ عن إتباع الضالین أهواءهم، لذلک یقول الله سبحانه: (وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ کَثِیرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِیلِ).

وفی هذا إشاره أیضاً إلی ما انعکس فی التّأریخ المسیحی، إذ أنّ موضوع التثلیث فی أمر المسیح أمرٌ متأخر عن القرون الأولی للمسیحیه، لکن ادخل بعض الهنود وأمثالهم من عبده الأصنام عندما اعتنقوا المسیحیّه شیئاً من دینهم السابق کالتثلیث والشرک.

۱- المائده: ۷۷.

۲- «لاتغلو» من ماده «الغلو» وهی بمعنی تجاوز الحدّ، إلاّ أنّها تستعمل للإشاره تجاوز الحدّ بالنسبه لمقام شخص من الأشخاص ومنزلته.

ففی الآیه الثلاثین من سوره التوبه وبعد ذکر غلو الیهود والنصاری فی مسأله العزیر والمسیح یقول سبحانه (یُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِینَ کَفَرُواْ مِن قَبْلُ). وقد وردت کلمه «ضلوا» فی هذه الآیه مرّتین بالنسبه للکفار الذین اقتبس منهم أهل الکتاب الغلو، ولعل هذا التکرار من باب التوکید، إذ أنّهم کانوا قبل ذلک من الضّالین، ثمّ لمّا أضلّوا الآخرین بدعاواهم وقعوا فی ضلال آخر، ومن یسعی لتضلیل الآخرین یکون أضلّ منهم فی الواقع، لأنّه یکون قد استهلک قواه لدفع نفسه ودفع الآخرین إلی طریق التعاسه ولحمل آثام الآخرین أیضاً علی کاهله، وهل یرتضی المرء السائر علی الطریق المستقیم أن یضیف إلی آثامه آثام غیره أیضاً؟.

تقول الآیه: (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِیحَ عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَکِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِینَ اخْتَلَفُواْ فِیهِ لَفِی شَکٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ یَقِینًا * بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَیْهِ وَکَانَ اللهُ عَزِیزًا حَکِیمًا)(۱).

ولعل هؤلاء کانوا یأتون بعباره «رسول الله» استهزاء ونکایهً، وقد کذبوا بدعواهم هذه فی قتل المسیح ، فهم لم یقتلوه ولم یصلبوه، بل صلبوا شخصاً شبیهاً بعیسی المسیح، وإلی هذه الواقعه تشیر الآیه بقولها: (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَکِن شُبِّهَ لَهُمْ...).

وأکّدت الآیه أنّ الذین اختلفوا فی أمر المسیح کانوا ـ هم أنفسهم ـ فی شک من أمرهم، فلم یکن أحدهم یؤمن ویعتقد بما یقول، بل کانوا یتبعون الأوهام والظن، تقول الآیه: (وَإِنّ الّذِینَ اخْتَلَفُواْ فِیهِ لَفِی شَکّ مّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاّ اتّبَاعَ الظّنّ...).

قد بحث المفسّرون حول موضوع الخلاف الوارد فی هذه الآیه، فاحتمل بعضهم

۱- النساء: ۱۵۷و۱۵۸.

أن يكون الخلاف حول منزله ومقام المسيح حيث اعتبره جميع المسيحيين ابناً لله، ورفض البعض الآخر _ كاليهود _ كونه نبّياً، وإن كل هؤلاء كانوا على خطأ من أمرهم.

وقد يكون المقصود بالخلاف هو موضوع كيفيه قتل المسيح حيث قال البعض بأنّه قتل، وقال آخرون بأنّه لم يقتل، ولم يكن أى من هاتين الطائفتين ليثق بقول نفسه.

أو لعل الذين ادعوا قتل المسيح وقعوا فى شك من هذا الأمر لعدم معرفتهم بالمسيح ، فاختلفوا فى الذى قتلوه هل كان هو المسيح، أو هو شخص غيره...؟!

ويأتى القرآن ليُؤكّد هنا بأن هؤلاء لم يقتلوا المسيح أبداً، بل رفعه الله إليه، والله هو القادر على كل شىء، وهو الحكيم لدى فعل أى شىء، تقول الآيه: (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

يؤكّد القرآن الكريم فى الآيه الماره الذكر على أنّ المسيح لم يقتل ولم يصلب، بل اشتبه الأمر على اليهود فظنوا أنّهم صلبوه، وهم لم يقتلوه أبداً!

توبيخ اليهود على أعمالهم الباطله

(لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ)(۱).

ذكر المفسرون أنّ هذه الآيه نزلت ردّاً على مقاله اليهود وتوبيخاً لهم: فعن ابن عباس أنّه قال: كتب رسول الله كتاباً إلى يهود «بنى قينقاع» دعاهم فيه لإقامه الصلاه وإيتاء الزكاه وأن يقرضوا لله «والمراد منه الإنفاق فى سبيل الله وإنما عبر عنه بالإقراض لتحريك المشاعر وإثارتها لدى الناس قدراً «أكبر» فدخل رسول النّبى إلى

۱- آل عمران: ۱۸۱.

بیت المدارس (حیث یتلقی الیهود دروساً فی دینهم) وسلم کتاب النّبی إلی «فنحاص» وهو من کبار أحبار الیهود فلمّا قرأه قال مستهزءاً: لو کان ما تقولونه حقاً فإن الله إذن لفقیر ونحن أغنیاء، ولو کان غنیاً لما استقرض منّا (وهو یشیر إلی قوله تعالی: (مَن ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا)(۱) هذا مضافاً إلی أن «محمّداً» یعتقد أنّ الله نهاکم عن أکل الرّبا، وهو یعدکم أن یُضاعف لکم إذا انفقتم أضعافاً مضاعفه، وهو یشیر إلی قوله تعالی: (یُرْبِی الصَّدقَاتِ)(۲).

ولکنّ «فنحاص» أنکر أنّه قال شیئاً من هذه فی ما بعد فنزلت الآیتان المذکورتان أعلاه(۳). تقول الآیه الأُولی (لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِینَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِیرٌ وَنَحْنُ أَغْنِیَاء).

أی لو أنّ هؤلاء استطاعوا أنْ یخفوا عن الناس مقالتهم هذه فإن الله قد سمعها ویسمعها حرفاً بحرف فلا مجال لإنکارها، فهو یسمع ویدرک حتی ما عجزت أسماع الناس عن سماعها من الأصوات الخفیه جداً أو الأصوات العالیه جداً: (لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِینَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِیرٌ وَنَحْنُ أَغْنِیَاء).

إذن فلا فائده ولا جدوی فی الإنکار، ثمّ یقول سبحانه: (سَنَکْتُبُ مَا قَالُواْ) أی أنّ ما قالوه لم نسمعه فحسب، بل سنکتبه جمیعه.

نماذج من ممارسات الیهود العدوانیه والباطله

(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّیثَاقَهُمْ وَکُفْرِهِم بِآیَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِیَاء بِغَیْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَیْهَا بِکُفْرِهِمْ فَلاَ یُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِیلاً)(۴)

۱- الحدید: ۱۱.

۲- البقره: ۲۷۶.

۳- أسباب النزول للواقدی، ص ۹۹ وتفسیر روح البیان فی تفسیر هذه الآیه.

۴- النساء:۱۵۵.

تشير هذه الآيات إلى نماذج أُخرى من انتهاكات بنى إسرائيل وممارساتهم العدوانيه التى واجهوا بها أنبياء الله.

فهى تُبيّن قيام اليهود بنقض العهود، وإلى ارتداد بعضهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم للأنبياء، بحيث استوجبوا غضب الله والحرمان من رحمته وحرمانهم من قسم من نعم الله الطاهره.

فقد أنكر هؤلاء آيات الله وكفروا بها بعد نقضهم للعهد واتّبعوا بذلك سبيل الضلال ولم يكتفوا بهذا الحدّ، بل تمادوا فى غيّهم، فارتكبت أياديهم الآثمه جريمه كبرى، إذ عمدوا إلى قتل الهداه والقاده إلى طريق الحق من أنبياء الله، إيغالا منهم فى اتباع طريق الباطل والابتعاد عن طريق الحق.

لقد كان هؤلاء اليهود بدرجه من العناد والصلف والوقاحه، بحيث كانوا يواجهون كلام الأنبياء بالسخريه والاستهزاء، ووصل بهم الأمر إلى أن يقولوا بكل صراحه أنّ قلوبهم تغطيها حجب عن سماع وقبول قول الأنبياء بغير حق وقولهم (قُلُوبُنا غُلْفٌ...).

وهنا يؤكّد القرآن الكريم أنّ قلوب هؤلاء مختومه حقاً، بحيث لا ينفذ إليها أى حقّ، وسبب ذلك هو كفرهم وانعدام الإيمان لديهم، فهم لا يؤمنون لعنادهم وصلفهم إلّا القليل منهم.

وقد تجاوز هؤلاء المجرمون الحدّ، فالصقوا بمريم العذراء الطاهره تهمه شنيعه وبهتاناً عظيماً، هى أُمّ لأحد أنبياء الله الكبار، وذلك لأنّها حملت به بإذن الله دون أن يمسها رجل، تقول الآيه فى هذا المجال: (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا)(۱).

۱- النساء: ۱۵۶.

وقد تباهى هؤلاء الجناه وافتخروا بقتلهم الأنبياء، وزعموا أنّهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله .

حجج أخرى لليهود

(وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْتَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَـبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْأَيَتِ لِقَوْم يُوقِنُونَ * إِنَّآ أَرْسَلْنَكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَبِ الْجَحِيمِ)(۱).

بمناسبه ذكر حجج اليهود فى الآيات السابقه، تتحدث الآيه عن حجج مجموعه اُخرى من المعاندين ويبدو أنهم المشركون العرب فتقول: (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ).

هؤلاء الجاهلون _ أو الذين لا يعلمون _ بتعبير الآيه، طرحوا طلبين بعيدين عن المنطق، طلبوا:

۱ _ أن يكلمهم الله: (لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ).

۲ _ أن تنزل عليهم آيه: (أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ).

والقرآن يجيب على هذه الطلبات التافهه قائلا: (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ).

لو أن هؤلاء يستهدفون حقاً إدراك الحقيقه، ففى هذه الآيات النازله على رسول الله دلاله واضحه بينه على صدق أقواله، فما الداعى إلى نزول آيه مستقله على كل واحد من الأفراد؟! وما معنى الإصرار على أن يكلمهم الله مباشره؟!

مثل هذا الطلب لا يمكن أن يتحقق، لأن تحققه _ إضافه إلى عدم ضرورته _

۱- البقره: ۱۱۸و۱۱۹.

مخالف لحكمه البارى سبحانه، لما يلى:

أوّلا: إثبات صدق الأنبياء للناس كافه أمر ممكن عن طريق الآيات التى تنزل عليهم.

ثانياً: لا يمكن للآيات والمعاجز أن تنزل على أى فرد من الأفراد، فذلك يتطلب نوعاً من اللياقه والاستعداد والطّهاره الرّوحيه.

وبعد أن ذمّ القرآن الفئه المذكوره من اليهود والنصارى، أشاد بأُولئك الذين آمنوا من أهل الكتاب وانضموا تحت رايه الرساله الخاتمه (أَلَّذِينَ اتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ) أى: بالتفكر والتدبر ثم العمل به (أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) أى يؤمنون بالرّسول الكريم ﷺ (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

هؤلاء كانوا قد تلوا كتابهم السماوى حقّاً، وكان ذلك سبب هدايتهم، فهم قرأوا فيه بشارات ظهور النّبىّ الموعود، وقرأوا صفاته المنطبقه مع صفات نبىّ الإسلام ﷺفآمنوا به، والله مدحهم وأشاد بهم.

عبر القرآن عن الفئه المهتديه من أهل الكتاب بأنهم (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ)، وهو تعبير عميق يرسم لنا سبيلا واضحاً تجاه القرآن الكريم والكتب السماويه، فالنّاس أمام الآيات الإلهيه على أقسام:

قسم يُكرّسون اهتمامهم على أداء الألفاظ بشكل صحيح وعلى قواعد التجويد، ويشغل ذهنهم دوماً الوقف والوصل والإدغام والغنّه فى التلاوه، ولا يهتمون إطلاقاً بمحتوى القرآن فما بالك بالعمل به! وهؤلاء بالتعبير القرآنى (كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)(۱).

وقسم يتجاوز إطار الألفاظ، ويتعمق فى المعانى، ويدقّق فى الموضوعات القرآنيه، ولكن لا يعمل بما يفهم!

۱- الجمعه:۵.

وقسم ثـالث، وهو المؤمنون حقّـاً، يقرأون القرآن باعتباره كتاب عمل، ومنهجاً كاملاً للحياه، ويعتبرون قراءه الألفاظ والتفكير فى المعانى وإدراك مفاهيم الآيات الكريمه مقـدمه للعمل، ولـذلك تصـحُ فى نفوسـهم روح جديـده للأعمال الصالحه، وهـذه هى التلاوه الحقّه.

أبناء اليهود مثل أسلافهم

(فَخَلَفَ مِن بَعْـدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَبَ يَأْخُـذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَـيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيهِمْ مِّيثَقُ الْكِتَبِ أَن لاَّـ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالـدَّارُ الْأَخِرَهُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوهَ إنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)(۱).

فى الآيات السابقه دار الحديث حول أسلاف اليهود، ولكن فى الآيه الحاضره دار الكلام حول أبنائهم وأخلافهم.

وفى البـدايه يقول تعالى: (فَخَلَفَ مِن بَعْـدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَبَ يَأْخُـذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى). إنّهم ورثوا التوراه عن أسـلافهم، وكان عليهم أن ينتفعوا بها ويهتدوا، ولكنّهم رغم ذلك فُتنوا بمتاع هذه الدنيا وحطامها الرخيص التافه، واسـتبدلوا الحق بمنافعهم الباطله.

و«خَلْف» على وزن «حَرْف» يـأتى غالباً فى الأولاد غير الصالحين ـ كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّـرين، فى حين أنّ «الخَلَف» على وزن «شَرَف» يأتى بمعنى الولد الصالح.

ثمّ يضيف قائلاً: وعندما وقعوا بين مفترق طريقين: بين ضغط الوجدان من جهه، والرغبات والمنافع الماديه من جهه أُخرى عمدوا إلى الأمانى والآمال الكاذبه

۱- الأعراف: ۱۶۹.

وقالوا: لنأخذ المنافع الدنيويه فعلا سواءً من حلال أو حرام، والله سيرحمنا ويغفر لنا:(وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا).

إنّ هذه الجمله تكشف عن أنّهم كانوا بعد القيام بمثل هذا العمل يتخذون حاله من الندم العابر والتوبه الظاهريه، ولكن هذه الندامه _ كما يقول القرآن الكريم _ لم تكن لها أيه جذور فی أعماق نفوسهم، ولهذا يقول تعالی: (وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ).

تقابل الحقّ الذی هو الله والباطل الذی هو غلو أهل الكتاب

(يَأَهْلَ الْكِتَبِ لاَ تَغْلُوا فِی دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَی اللهِ إلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَی ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَهَآ إِلَی مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَأَمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلَثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِی السَّمَوَتِ وَمَا فِی الْأَرْضِ وَكَفَی بِاللهِ وَكِيلا)(۱).

تتطرق هذه الآيه إلی واحد من أهم انحرافات الطائفه المسيحيّه، وهذا الانحراف هو اعتقاد المسيحيين بالتثليث. فهذه الآيه تحذر فی البدايه أهل الكتاب من المغالاه والتطرف فی دينهم، وتدعوهم أن لا يقولوا علی الله غير الحق، حيث تقول: (يَأَهْلَ الْكِتَبِ لاَ تَغْلُوا فِی دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَی اللهِ إلاَّ الْحَقَّ...).

لقد كانت قضيه الغلو فی حق القاده السابقين إحدی أخطر منابع الانحراف فی الأديان السماويه، فالإنسان بما أنّه يميل إلی ذاته يندفع بهذا الميل إلی إظهار زعمائه وقادته بصوره أكبر ممّا هم عليه، لكی يضفی علی نفسه الأهميه والعظمه من خلال هؤلاء القاده، وقد يدفع الإنسان التصور الواهی بأن الإيمان هو المبالغه والغلو فی احترام وتعظيم القاده _ إلی الوقوع فی متاهات هذا النوع من الانحراف الرهيب.

۱- النساء: ۱۷۱.

والغلو فی أصله ینطوی علی عیب کبیر یفسد العنصر الأساسی للدین ـ الذی هو عباده الله وتوحیده ـ.

ولهذا السبب فقد عامل الإسلام الغلاه أو المغالین بعنف وشدّه، إذ عرفت کتب الفقه والعقائد هذه الفئه من الناس بأنّهم أشدُّ کفراً من الآخرین.

بعد ذلک تشیر الآیه الکریمه إلی عدّه نقاط، یُعتبر کل واحد منها فی حدّ ذاته دلیلاً علی بطلان قضیه التثلیث، وعدم صحه اُلوهیه المسیح ، وهذه النقاط هی:

۱ ـ لقد حصرت الآیه بنوه السید المسیح بمریم (إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ)، وإشاره البنوه ـ هذه الوارده فی سته عشر مکاناً من القرآن الکریم ـ إنّما تؤکّد أنّ المسیح هو إنسان کسائر الناس، خلق فی بطن اُمّه، ومرّ بدور الجنین فی ذلک الرحم، وفتح عینیه علی الدنیا حین ولد من بطن مریم کما یولد أفراد البشر من بطون اُمهاتهم ومرّ بفتره الرضاعه وتربی فی حجر اُمّه، ممّا یثبت بأنّه امتلک کل صفات البشر فکیف یمکن ـ وحاله المسیح هذه ـ أن یکون إلهاً أزلیاً أبدیاً، وهو فی وجوده محکوم بالظواهر والقوانین المادیه الطبیعیه ویتأثر بالتحولات الجاریه فی عالم الوجود؟!

وعباره الحصر «إنّما» الوارده فی الآیه تحصر بنوه المسیح بمریم وتؤکّد علی أنّه وإنّ لم یکن له والدٌ، فلیس معنی ذلک أن أباه هو الله، بل هو فقط ابن مریم .

إنّ موضوع التثلیث والغلو فی أمر المسیح لم یکن له وجود خلال القرون الاُولی من المسیحیه، ولکن عندما اعتنق بعض الهنود وامثالهم من عبده الأصنام المسیحیه أدخلوا فیها شیئاً من دینهم السابق، کالتثلیث والشرک، والثالوث الهندی (الإیمان بالآلهه الثلاثه: برهما، وفیشنو، وسیغا)، کان تاریخیاً أسبق من التثلیث المسیحی الذی لا شک أنّه انعکاس لذاک.

۲ ـ تؤكّد الآيه الكريمه أنّ المسيح هو رسول الله ومبعوث إلى البشر من قبله سبحانه وتعالى، وإن هذه المنزله ـ أى منزله النّبوه ـ لا تتناسب ومقام الألوهيه.

والجدير بالذكر هو أنّ معظم كلام المسيح الوارد قسم منه فى الأناجيل المتداوله فى الوقت الحاضر، إنّما يؤكّد نبوته وبعثته لهدايه الناس، وليس فيه دلاله على ادعائه الألوهيه والربوبيه.

۳ ـ تبيّن الآيه أن عيسى المسيح هو كلمه الله التى ألقاها إلى مريم إشاره إلى كون المسيح مخلوقاً بشرياً، إذ أن الكلمات مخلوقه من قبل الله، كما أنّ الموجودات فى الكون من مخلوقاته عزَّ وجلّ، فكما أن الكلمات تبيّن مكنونات أنفسنا ـ نحن البشر ـ وتدل على صفاتنا وأخلاقياتنا، فإنّ مخلوقات الكون تحكى صفات خالقها وجماله وتدل على جلاله وعظمته.

وعلى هذا الأساس فقد وردت عباره «كلمه» فى عدد من العبارات القرآنيه، لتشمل جميع مخلوقات الله، كما فى الآيه (۱۰۹) من سوره الكهف والآيه (۲۹) من سوره لقمان، وبديهى أنّ الكلمات الإلهيه تتفاوت بعضها مع البعض فى المنزله والأهميه وعيسى يعتبر إحدى كلمات الله البارزه الأهميه، لكونه ولد من غير أب، إضافه إلى كونه يتمتع بمقام الرساله الإلهيه.

۴ ـ تشير الآيه إلى أنّ عيسى المسيح هو روح مخلوقه من قبل الله، حيث تقول (وروح منه) وهذه العباره التى وردت فى شأن خلق آدم ـ أو بعباره أُخرى خلق البشر أجمعين ـ فى القرآن الكريم، إنما تدل على عظمه تلك الروح التى خلقها الله تعالى وأودعها فى أفراد البشر بصوره عامّه، وفى المسيح وسائر الأنبياء بصوره خاصّه.

وعلى الرغم من أنّ البعض أساء الاستفاده من هذه العباره وفسّرها بأنّ المسيح هو جزء من الله سبحانه وتعالى، مستنداً إلى عباره «منه» ولكن الواضح فى مثل هذه الحالات أن كلمه «من» ليست للتبعيض، بل تدل على مصدر ومنشأ

وأصل وجود الشيء وهناك طرفه تاريخيه تذكر أنّه كان لهارون الرشيد طبيب نصرانى، دخل يوماً فى نقاش مع «على بن الحسين الواقدى» وهو أحد المفكرين الإسلاميين فى ذلك العصر، فقال له هذا الطبيب: «توجد فى كتابكم السماوى آيه تبيّن أنّ المسيح هو جزء من الله...» وتلا هذا النصرانى الآيه موضوع البحث، فرد عليه «الواقدى» مباشره تالياً هذه الآيه: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ)(۱) وأضاف مبيّناً أنّ كلمه «من» لو كانت تفيد التبعيض، لاقتضى ذلك أن تكون جميع موجودات السماء والأرض ـ بناء على هذه الآيه ـ جزءاً من الله، فلما سمع الطبيب النصرانى كلام الواقدى أسلم فى الحال، وسر إسلامه هارون الرشيد فكافأ الواقدى بجائزه مناسبه(۲).

إنّ ما يثير العجب ـ إضافه إلى ما ذكر ـ هو أنّ المسيحيين يرون ولاده المسيح من أُمّ دون أب دليلاً على الوهيته، وهم ينسون فى هذا المجال أن آدم كان قد ولد من غير أب، ولا أُم، ولم ير أحد هذه الخصيصه الموجوده فى آدم دليلاً على ربوبيته.

بعد ذلك تؤكّد الآيه على ضروره الإيمان بالله الواحد الأحد وبأنبيائه، ونبذ عقيده التثليث، مبشره المؤمنين بأنّهم إن نبذوا هذه العقيده فسيكون ذلك خيراً لهم حيث قالت الآيه: (فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ...).

حكومه الله على عالم الوجود ومالكيته له قائمتان منذ بدايه الخلق حتى نهايته وفى يوم القيامه، ولا يختص ذلك بيوم القيامه وحده، لكن هناك عوامل وأسباباً تؤثر فى مسار هذه الدنيا وتقدمها نحو أهدافها، لذلك قد يغفل الإنسان أحياناً عن وجود الله وراء هذه الأسباب والعوامل، وأمّا فى ذلك اليوم الذى تتعطل فيه جميع الأسباب

۱- الجاثيه: ۱۳.

۲- تفسير المنار، ج ۶، ص ۸۴.

والعوامل، فإنّ حكومه الله ومالكيته تكونان أجلى وأوضح من أى وقت سابق، كما جاء فى آيه أُخرى: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)(۱).

حقانيه المسيح وبطلان شرك أتباعه

(وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ)(۲).

هذه الآيات تشير إلى حديث يدور بين الله والمسيح يوم القيامه، بدليل أنّنا بعد بضع آيات نقرأ: (هَـذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ) ولا شك أنّه يوم القيامه.

ثمّ أنّ جمله (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ) دليل آخر على أنّ الحوار قد جرى بعد عهد نبوه المسيح ، والفعل «قال» لا يتعارض مع ما ذهبنا إليه، لأنّ القرآن مليء بذكر أُمور عن يوم القيامه استعمل فيها الزمن الماضى، وهو إشاره إلى أنّ وقوعه حتمى، أى أنّ مجيئه فى المستقبل على درجه من الثبوت والحتميه بحيث أنّه يبدو وكأنّه قد وقع فعلاً فيستعمل له صيغه الماضى. على كل حال تقول الآيه الأُولى: (وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ).

لا ريب أنّ المسيح لم يقل شيئاً كهذا، بل دعا إلى التوحيد وعباده الله،أنّ القصد من هذا الاستفهام هو استنطاقه أمام أُمّته وبيان إدانتها.

فيجيب المسيح بكل احترام ببضع جمل على هذا السؤال:

۱ ـ يُنزّه الله عن كل شرك وشبهه: (قَالَ سُبْحَانَكَ).

۱- غافر: ۱۶.

۲- المائده: ۱۱۶.

۲ ــ ثمّ يقول: (مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ) أى ما لا يحق لى قوله ولا يليق بى أن أقوله، فهو لا ينفى هذا القول عن نفسه فحسب، بل ينفى أن يكون له حقّ فى قول مثل هذا القول وهذا منتهى التوحيد.

۳ ــ ثمّ يستند إلى علم الله الذى لا تحده حدود تأكيداً لبراءته فيقول: (إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ)(۱).

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤالان:

۱ ــ هل يوجد فى تاريخ المسيحيه ما يدل على أنّهم اتّخذوا من (مريم) معبوده؟ أم أنّهم إنّما قالوا فقط بالتثليث أو الآلهه الثلاثه: (الإله الأب) و(الإله الابن) و(روح القدس) على اعتبار أن (روح القدس) هو الوسيط بين (الإله الأب) و(الإله الابن) وهو ليس (مريم).

للإجابه على هذا السؤال نقول: صحيح أنّ المسيحيين لم يؤلّهوا مريم، ولكنّهم كانوا يؤدون أمام تمثالها طقوس العباده، كالوثنيين الذين لم يكونوا يعتبرون الأصنام آلهه، ولكنّهم كانوا يعتبرونها شريكه لله فى العباده.

يقول أحد المفسّرين: إنّ المسيحيين على إختلاف فرقهم، وإن لم يطلقوا كلمه (إله) أو معبود على مريم، واعتبروها أم الإله لا غير، فهم فى الواقع يقدمون لها طقوس الدعاء والعباده، سواء أطلقوا عليها هذا الاسم أم لم يطلقوه، ثمّ يضيف قائلاً: قبل مدّه صدر فى بيروت العدد التاسع من السنه السابعه من مجله (المشرق) المسيحيه بمناسبه الذكرى الخمسين للبابا (بيوص التاسع) وفيها مواضيع مثيره عن السيده مريم، منها تصريح بأنّ كلتا الكنيستين الشرقيه والغربيه تعبدان (مريم).

وفى العدد الرّابع عشر من السنه الخامسه من المجله نفسها مقال بقلم (الأب

۱- اطلاق كلمه (نفس) على الله لا تعنى الروح، فمن معانى النفس الذات.

انستانس الكرملى) حاول فيه أن يعثر عن أصول عباده مريم حتى فى العهد القديم، فراح يفسر حكايه الأفعى (الشيطان) والمرأه (حواء) باعتبارها حكايه مريم(۱).

۲ ـ السؤال الثّانى: كيف يتحدث المسيح عن مشركى أُمّته بعبارات يُشم منها رائحه الشفاعه لهم فيقول: (وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم) أيكون المشرك أهلا للشفاعه والغفران؟

فى الجواب نقول: لو كان قصد عيسى هو الشفاعه لهم لكان عليه أن يقول: (فإنك أنت الغفور الرحيم) لأن غفران الله ورحمته هما اللذان يناسبان مقام الشفاعه، ولكنّنا نراه يقول (فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) من هذا يتّضح أنّه لم يكن فى مقام الشفاعه لهم، بل كان يريد أن ينفى عن نفسه أى اختيار وأن يوكل الأمر كلّه إلى الله، إن شاء عفا، وإن شاء عاقب، وكل مشيئه منه سبحانه تستند إلى حكمه.

النصارى أقرب إلى الحق من اليهود المشركين

على الرغم من انحرافاتهم كان النصارى على مستوى أرفع بكثير من مستوى اليهود: «ورهباناً» وكثير منهم كانوا يخضعون للحق، ولم يتكبّروا، فى حين كان معظم اليهود يرون أنّهم عنصر أرفع، فرفضوا قبول الإسلام الذى هو (دين الحق) الذى لم يأت على يد عنصر يهودى: (وإِنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ).

ثمّ إنّ نفراً منهم كانوا إذا استمعوا لآيات من القرآن تنحدر دموعهم مثل مَن صحب جعفر من الأحباش لأنّهم يعرفون الحقّ إذا سمعوه: (وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ)(۲).

۱- تفسير المنار، ج ۷، ص ۲۶۳.

۲- المائده: ۸۳.

فکانوا ینادون بکل صراحه وشجاعه، و (یَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاکْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِینَ).

لقد کان تأثرهم بالآیات القرآنیه من الشده بحیث أنّهم کانوا یقولون: (وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن یُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِینَ)(۱).

سبق أن قلنا إنّ هذه المقارنه کانت بین الیهود والنصاری المعاصرین لرسول الله ﷺ، فالیهود ـ وإن کانوا من أصحاب الکتب السماویه ـ بلغت شدّه تعلقهم بالماده وحبّهم لها أن انخرطوا فی سلک المشرکین الذین لم یکن یربطهم بهم أی وجه شبه مشترک، مع أن الیهود فی البدایه کانوا من المبشرین بمجیء الإسلام ولم تکن قد دخلتهم انحرافات کالتثلیث والغلو اللذین کانا عند المسیحیین، غیر أن حبّهم للدنیا حبّ عباده قد أبعدهم عن الحقّ، بینما معاصروهم المسیحیون لم یکونوا علی هذه الشاکله.

إلاّ أنّ التاریخ القدیم والمعاصر یقول لنا: (أنّ المسیحیین فی القرون التی أعقبت ذلک قد ارتکبوا بحق الإسلام والمسلمین جرائم لا تقل عمّا فعله الیهود فی هذا المجال).

إنّ الحروب الصلیبیه الطّویله والدّمویه فی القرون الماضیه، والاستفزازات الکثیره التی یقوم بها الاستعمار ضد الإسلام والمسلمین الیوم غیر خافیه علی أحدٍ، لذلک لیس لنا أن نأخذ الآیات المذکوره مأخذ قانون عام بالنسبه لجمیع المسیحیین، بل إنّ الآیه: (وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَی الرَّسُولِ...) وما بعدها دلیل علی أنّها نزلت بحق جمع من المسیحیین الذین کانوا یعاصرون رسول الله ﷺ.

۱- المائده: ۸۴.

نفی ألوهیّه المسیح

(إِنَّ مَثَلَ عِیسَی عِندَ اللهِ کَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَاب ثُمَّ قَالَ لَهُ کُن فَیَکُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّکَ فَلَا تَکُنّ مِّنَ الْمُمْتَرِینَ)(۱).

هذه الآیه تورد استدلالاً قصیراً وواضحاً فی الردّ علی مسیحیّی نجران بشأن الوهیه المسیح : إنّ ولاده المسیح من غیر أب لا یمکن أن تکون دلیلاً علی أنّه ابن الله أو أنّه الله بعینه، لأنّ هذه الولاده قد جرت لآدم بصوره أعجب فهو قد ولد من غیر أب ولا أُم. وعلیه، فکما أنّ خلق آدم من تراب لا یستدعی التعجّب، لأنّ الله قادر علی کلّ شیء، ولأن «فعله» و «إرادته» متناسقان فإذا أراد شیئاً یقول له: کن فیکون، کذلک ولاده عیسی من أُمّ وبغیر أب، لیست مستحیله.

وأساساً، فإن المیسور والمعسور یتحقّقان بالنسبه لمن کانت قدرته محدوده کما فی المخلوقات، أمّا من کانت قدرته مطلقه فلا مفهوم للصعب والسهل بالنسبه له. فخلق ورقه واحده تتساوی بالنسبه له مع خلق غابه من آلاف الکیلومترات، وخلق ذره واحده کخلق المنظومه الشمسیه لدیه.

(الْحَقُّ مِن رَّبِّکَ فَلَا تَکُنّ مِّنَ الْمُمْتَرِینَ).

هذه الآیه تؤکّد الموضوع وتقول: إنّ ما أنزلنا علیک بشأن المسیح أمرٌ حقیقیٌ من الله ولا یعتوره الشکّ، فلا تتردّد فی قبوله.

فی تفسیر (الْحَقُّ مِن رَّبِّکَ) للمفسّرین رأیان: الرأی الأول یقول: إنّ الجمله مبتدأ وخبر، وبذلک یکون المعنی: الحقّ دائماً من ربّک، وذلک لأنّ الحقّ هو الحقیقه، والحقیقه هو الوجود، وکلّ وجود ناشیء من وجوده. لذلک فکلّ باطل عدم، والعدم غریب علی ذاته.

۱- آل عمران: ۵۹و ۶۰.

الرأی الثانی یقول: إنّ الجمله خبر لمبتدأ محذوف تقدیره «تلک الأخبار». أی تلک الأخبار التی أنزلناها علیک حقائق من الله. وکلّ من التفسیرین ینسجم مع الآیه.

الخلق علی أساس الحق

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ إن یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَیَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ)(۱).

بعد ما بحثنا عن الباطل وأنّه کالرماد المتناثر إذا اشتدّت به الریح، نبحث فی هذه الآیه عن الحقّ واستقراره. یقول الله تعالی مخاطباً النّبی ﷺ باعتباره الأُسوه لکلّ دعاه الحقّ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ).

«الحقّ» کما یقول الراغب فی مفرداته «المطابقه والتنسیق» وله استعمالات أُخری: فتارهً یستعمل الحقّ فی العمل الصادر وفقاً للحکمه والنظام کما فی قوله تعالی: (هُوَ الَّذِی جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِینَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِکَ إلاَّ بِالْحَقِّ)(۲).

وتارهً یطلق علی الشخص الذی قام بهذا العمل المحکم، کما نطلقها علی الله عزّ وجلّ (فَذَلِکُمُ اللهُ رَبُّکُمُ الْحَقُّ)(۳).

وتارهً أُخری یطلق علی الاعتقاد الذی یطابق الواقع کما فی قوله تعالی: (فَهَدَی اللهُ الَّذِینَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِیهِ مِنَ الْحَقِّ)(۴).

ومرّهً یقال للقول والعمل الذی یتحقّق فی الوقت المناسب کما فی قوله تعالی:

۱- إبراهیم: ۱۶.

۲- یونس: ۵.

۳- یونس:۳۲.

۴- البقره:۲۱۳.

(حقّ القول منّی لأملئنّ جهنّم)(۱).

وعلی أیّه الحال فمقابل «الحقّ» الباطل والضلال واللعب وأمثالهما.

لکنّ الآیه التی نحن بصددها تشیر إلی المعنی الأوّل، وهو إنشاء عالم الخلق. حیث توضّح السّماء والأرض أنّ فی الهدف من خلقها الحکمه والنظام والحساب. فالله تعالی لیس محتاجاً فی خلقها ولا ناقصاً لکی یسدّ نقصه بها، بل هو الغنی عن کلّ شیء، وهذا العالم الواسع دار لنمو المخلوقات وتکاملها.

(مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِیٌّ عَزِیزٌ)(۲).

بعد أن عرض القرآن مثالاً علی ضعف وبطلان غیر الله وضرب الذبابه مثلاً قرّر حقیقه مهمّه، وهی(مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ).

فالمشرکون لو کانوا علی أدنی معرفه بالله تعالی لما أنزلوا قدره إلی مستوی هذه الآلهه الضعیفه العاجزه ولما جعلوا مصنوعاتهم شرکاء له، تعالی عمّا یفعلون علوّاً کبیراً، ولو کان لدیهم أدنی معرفه بقدره الله لضحکوا من أنفسهم وسخروا من أفکارهم. وتقول الآیه فی النهایه: (إِنَّ اللَّهَ لَقَوِیٌّ عَزِیزٌ).

أجل، إنّ الله قادر علی کلّ شیء ولا مثیل لقدرته ولا حدّ، فهو لیس کآلهه المشرکین التی لو اجتمعت لما تمکّنت من خلق ذبابه، بل لیس لها القدره علی إعاده ما سلبه الذباب منها.

المصیر المؤلم لقوم ثمود

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّیْحَهُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِینَ)(۳).

۱- السجده: ۱۳.

۲- الحج: ۷۴.

۳- المؤمنون:۴۱.

وعندما طغى عناد الكفّار، وزالت آخر قطره من الحياء منهم، فتجاسروا على الله، وأنكروا رسالته إليهم، وأنكروا معاجز أنبيائه بكلّ صلافه، وبعد اتمام حجّه الله عليهم، بواسطه نبيهم جاءهم العذاب يقول تعالى: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَهُ بِالْحَقِّ) حيث نزلت عليهم صاعقه الموت برعبها الهائل ودمارها الماحق، وقلبت مساكنهم ونثرتها حطاماً، وكانت سريعه خاطفه إلى درجه لم تسمح لهم بالفرار، فدفنوا فى منازلهم كما بيّنت الآيه الكريمه: (فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً) أى جعلناهم كهشيم النبات يحمله السيل (فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

رابطه الدين أسمى من رابطه النسب

(وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَاِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَكِمِينَ)(۱).

فى الآيات المتقدمه أنّ ابن نوح لم يسمع نصيحه والده وموعظته، ولم يترك لجاجته وحماقته حتى النفس الأخير، فكانت نهايته الغرق فى أمواج الطوفان. وهذه الآيات ـ محل البحث ـ تتحدث عن قسم آخر من هذه القصّه، وهو أنّه حين رأى نوحٌ ابنه تتقاذفه الأمواج ثارت فيه عاطفه الأبوّه وتذكر وعد الله فى نجاه أهله فالتفت إلى ساحه الله منادياً (رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَاِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَكِمِينَ).

وهذا الوعد هو ما أشارت إليه الآيه (۴۰) من هذه السوره حيث يقول سبحانه: (حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ).

فقد تصوّر نوح أن قوله تعالى: (إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) خاص بزوجته المشركه التى لم تؤمن به دون ابنه كنعان، ولذلك خاطب نوح ربّ العزّه بهذا الكلام.

۱- هود: ۴۵.

ولكنّه سمع الجواب مباشره... جواب يهزّه هزاً كما أنّه يكشف عن حقيقه كبيره.. حقيقه أنّ الرّباط الدينى أسمى من رباط النسب والقرابه.. (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ).

فهو فرد غير لائق، حيث لا أثر لرباط القرابه بعد أن قطع رباط الدين. (فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ).

(قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)(۱).

فى هذه الآيه فى البدايه ردٌّ على تهديد إبليس فى إغواء كلّ بنى آدم عدا المخلصين منهم ـ فيجيبه البارىء عزّ وجلّ بالقول: (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ) أقسم بالحقّ، ولا أقول إلّا الحقّ (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ).

فما ورد فى بدايه السوره إلى هنا حقّ، والذى ورد بشأن أحوال الأنبياء الكبار فى هذه السوره بسبب حروبهم وجهادهم حقّ، والحديث فى هذه السوره عن القيامه والعذاب الأليم الذى سينزل بالطغاه والنعم التى سيغدقها البارىء عزّ وجلّ على أهل الجنّه حقّ، ونهايه السوره حقّ، والله سبحانه يقسم بالحقّ ويقول الحقّ بأنّه سيملأ جهنّم بالشيطان وأتباعه، وذلك جواب قاطع على كلام إبليس بشأن إغوائه بنى الإنسان، وبهذا وضّح البارىء عزّ وجلّ تكليف الجميع، على أيّه حال، فإنّ هاتين الجملتين تشتملان على الكثير من التأكيد، فتؤكّدان مرتين على مسأله (الحقّ) وتقسمان بها، وعباره (لأملأنّ) رافقتها نون التوكيد الثقيله و (أجمعين) تأكيد مجدّد على كلّ ذلك، لكى لا يبقى لأحد أدنى شكّ وترديد بهذا الشأن، إذ لا سبيل لنجاه الشيطان وأتباعه، والاستمرار بالسير على خطاه يؤدّى إلى جهنّم.

۱- ص: ۸۴و۸۵.

القسم الثانی: الآیات التی تبحث فی حقانیه الأنبیاء و الرسل والکتب السماویه و الملائکه و من یعارض ذلک باطل

اشاره

بعد الانتهاء من استعراض الآيات التى تتحدث عن الله باعتباره أصدق مصاديق الحق وأجلى معاييره.

والان نستعرض الآيات التى تتحدث عن الأنبياء والرسل والكتب السماويه باعتبارهم حق ومعانديهم ومنكريهم باطل.

العصبيه القوميه لدى اليهود

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)(۱).

يشير القرآن مرّه اُخرى إلى عصبيه اليهود القوميه فهم لم يؤمنوا بالإنجيل ولا بالقرآن، بل إنهم يدورون حول محور العنصريه والمصلحيه، فيجرأون على رفض الدعوه التى جاءت تصديقاً لما معهم فى التوراه (وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ).

ويكشف القرآن زيف ادعائهم مره اُخرى حين يقول لهم: (قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ الله مِنْ قَبْلُ إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) هؤلاء يدّعون أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم، فهل التوراه تبيح لهم قتل الأنبياء؟!

وهذا الذى يقوله بنو إسرائيل: (نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا) ينطلق من روح ذاتيه

۱- البقره: ۹۱.

فردیه أو فئویه، وهی تخالف روح التوحید. فالتوحید یستهدف القضاءَ علی کل المحاور الذاتیه فی حرکه الإنسان ومواقفه، وتکریس نشاطات الفرد حول محور العبودیه لله لا غیر.

بعباره اُخری، لو کان الإنصیاع للأوامر الإلهیه متوقفاً علی نزولها علیهم، فهو الشرک لا الإیمان، وهو الکفر لا الإسلام، ومثل هذا الإنصیاع لیس بدلیل علی الإیمان قط.

ردّ القرآن علی تخرصات المجرمین

(وَلَا یَأْتُونَکَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاکَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِیرًا)(۱).

هناک ذرائع کثیره یتذرع بها المجرمون المعاندون ومنها لو أنزل هذا القرآن علی رسول الله جمله واحده (یعنی دفعه واحده) یقولون ألیس هذا القرآن جمیعه من قبل الله!؟ ألیس من الأفضل أن ینزل جمیع محتوی هذا الکتاب دفعه واحده حتی یقف الناس علی عظمته أکثر؟ ولماذا تتنزل هذه الآیات تدریجیاً وعلی فواصل زمنیه مختلفه؟

وقد یأخذ هذا الإشکال فی کیفیه نزول القرآن مأخذه من الأفراد السطحیین، خاصّه إذا کانوا من الممتحلین للأعذار بأن هذا الکتاب السماوی العظیم الذی هو أساس ومصدر کل حیاه المسلمین، ومحور کل قوانینهم السیاسیه و الاجتماعیه والحقوقیه والعبادیه، لماذا لم ینزل کاملا ودفعه واحده علی نبیّ الإسلام ، حتی یقرأه أتباعه من البدایه إلی النهایه فیطلعون علی محتواه. واساساً فقد کان الأفضل للنبی أیضاً أن یکون ذا اطلاع علی جمیع هذا القرآن دفعه واحده، کیما یجیب الناس فوراً علی کل ما یسألونه ویریدون منه.

۱- الفرقان: ۳۳.

ولكن القرآن فی تتمه نفس هذه الآیه یجیبهم: و(كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا). وقد غفل اُولئك السطحیون عن هذه الحقیقه، فلا شك أن نزول القرآن التدریجی له ارتباط وثیق بتثبیت قلب النّبی والمؤمنین.

ثمّ للتأكید أكثر علی هذا الجواب یقول تعالی: (وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا). أی أنّهم لا یأتون بمثل أو مقوله أو بحث لاضعاف دعوتك ومقابلتها، إلّا آتیناك بكلام حقّ یقمع كلماتهم الجوفاء وأدلتهم الخاویه بأحسن بیان وأفضل تفسیر.

القرآن حقّ ومنطق التعصب الأعمی باطل

(وَقَالُواْ يَـا أَيُّهَـا الَّذِی نُزِّلَ عَلَيْهِ الـذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَهِ إِن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَهَ إِلّا بِالحَقّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مّنظَرِينَ)(۱).

تبتدیء الآیات بتبیان موقف العداء الأعمی والتعصب الأصم للقرآن الحكیم والنّبی الأكرم من قبل الكفار، فتقول: (وقالوا یا أیّها الذی نزّل علیه الذكر إنّك لمجنون).

ومن خلال كلامهم یظهر بجلاء مدی وقاحتهم وسوء الأدب الذی امتازوا به حین مخاطبتهم للنّبی ، فتاره یقولون: (یا أیّها الذی)، وأُخری: (نُزّل علیه الذكر) بصیغه الهزؤ والإنكار لآیات الله سبحانه، وثالثه: یستعملون أدوات التوكید «إن» ولام التوكید لیتّهموا أشرف خلق الله بالجنون!

نعم، الخصم المریض الجاهل حینما یقابل حكیماً لا نظیر له، فأوّل ما یرمیه بالجنون، لأنّه ینطلق من جهله الذی لا یستوعب الحكمه والمعقول، فیری كل ما فوق تصوره القاصر غیر معقول، ویوصم خصمه بالجنون!

۱- الحجر: ۶-۸.

إنّهم لم يكتفوا بنسبه الجنون إلى النّبى ، بل تحججوا قائلين: (لو ما تأتينا بالملائكه إن كنت من الصادقين).

فيجيبهم البارى جل شأنه: (ما ننزل الملائكه إلّا بالحقّ وما كانوا إذاً منظرين). فلو ثمّ إنزال الملائكه وشاهدوا الحقيقه بأعينهم ثمّ لم يؤمنوا بها فسوف يحيق بهم، العذاب الإلهى دون إمهال.

وللمفسّرين وجوهاً متباينه فى تفسير (ما ننزل الملائكه إلّا بالحق):

۱ ــ يرى البعض، أن أمر تنزيل الملائكه لا يتعلق بما يتقوله القائلون تحججاً، بل هو إعجاز ربانى لإظهار الحق وإحقاقه.

وبعباره أُخرى، فالإعجاز ليس أمراً ترفيهياً يناغى تصورات الأخرين بقدر ما هو حجه إلهيه لإثبات الحق وإماطه الباطل.

وقد أشبعت هذه الحقيقه بما فيه الكفايه لمن يرى النّور نوراً والظلام ظلاماً من خلال ما أوصله نبى الإسلام عن طريق القرآن والمعاجز الأُخرى.

۲ ــ المقصود من كلمه «الحق» هو العقاب الدنيوى بالبلاء المهلك، وبعباره أُخرى (عذاب الإستئصال).

أىْ... فى حال عدم إيمان الكفار المعاندين بعد نزول الملائكه على ضوء اقتراحهم فهم هالكون قطعاً.

وبهذا تكون جمله (وما كانوا إذاً منظرين) مؤكّده لهذا المعنى، وأمّا على التّفسير الأوّل فإنّها تتناول موضوعاً جديداً.

۳ ــ وقيل المراد بالحق فى الآيه الموت، إى أنّ الملائكه لا تنزل إلّا لقبض الأرواح.

ولكنّ هذا المعنى بعيد جدّاً أمام ما يحفل به القرآن من ذكر نزول الملائكه فى قصتى إبراهيم ولوط عليهما السلام ومعركه بدر...الخ.

۴ ــ وقيل المراد بالحق الشهاده (المشاهده).

أیْ مـادام الإنسـان یعیش فی عـالم الـدنیا فهو عـاجز عن رؤیه مـا وراء هـذا العالم حیث هناک تسـبح الملائکه بحمـد ربّها، لأنّ الحجب الماديه قد أفسدت رؤیته ولا یتسنی له ذلک إلّا بعد الرحیل إلی العالم الآخر.

حقانیه الرسول ﷺ والقرآن

(فَتَوَکّلْ عَلَی اللهِ إنّکَ عَلَی الْحَقّ الْمُبِینِ * إنّکَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَی وَلَا تُسْمِعُ الصّمّ الدّعَاء إذَا وَلّوْا مُدْبِرِینَ)(۱).

إنّ هذا الکلام اضافه إلی أنّه یبیّن عظمه القرآن، وهو تهدید لبنی إسـرائیل، فهو فی الوقت ذاته تسلیه عن قلب النّبی وتسریه عنه، لذا فالآیه التالیه تقول: (فتوکل علی الله).

توکـل علی الله العزیز الـذی لاـ یغلب، والعلیم بکل شـیء.. توکل علی الله الـذی أنزل القرآن علی عظمته فجعله عنـدک، فتوکل علیه ولا تقلق من المشرکین والمعاندین، لأنّه یرعاک و(إنّک علی الحق المبین).

وهنـا ینقـدح هـذا السؤال، وهو: إذا کان القرآن حقّاً مبیناً فلماذا خالفوه؟ فالآیات التالیه تجیب علی هـذا السؤال، فتقول: إذا کان أُولئک لا یذعنون للحق المبین، ولا یؤثر فی قلوبهم هذا الکلام المتین، فلا مجال للعجب.. لـ(إنّک لا تسمع الموتی)(۲).

بـل تسـمع الأحیـاء الـذین یبحثـون عن الحـق وأرواحهم توّاقه إلیه، أمّـا إحیـاء الموتی ـ أو موتی الأحیـاء ـ لتعصـبهم وعنـادهم واستمرارهم علی الذنب، فلا ترهق فکرک ونفسک من أجلهم وحتی لو کانوا احیاء فإنهم صمّ لا یسمعون فلا یمکنهم أن

۱- النمل: ۷۹-۸۰.

۲- قال جماعه من المفسّرین: إن هذه الجمله والجمل الأُخر التی تلیها بمثابه الدلیل علی لزوم توکل النبی علی الله وعدم یأسه... مع أن الظاهر أنهّا جواب علی سؤال یثار فی شأن القرآن وکونه هو «الحق المبین».

یسمعوا صوتک، وخاصه إذا اداروا إلیک ظهورهم وابتعدوا عنک (ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا وَلّوا مدبرین).

ولعلّهم لو کانوا عندک وکنت تصرخ فیهم لبلغت بعض أمواج صوتک إلی مسامعهم، إلّا أنّهم مع صممهم یبتعدون عنک.

کما أنّهم لو کانوا مع هذه الحال یبصرون بأعینهم لاهتدوا إلی الصراط المستقیم، ولو ببعض العلامات، إلّا أنّهم عمیٌ.

وظیفه الرسل التبشیر والإنذار

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِینَ إلّا مُبَشِّرِینَ وَمُنذِرِینَ وَیُجَادِلُ الَّذِینَ کَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِیُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آیَاتِی وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا)(۱)

من أجل طمأنه الرّسول فی مقابل صلافه وعناد أمثال هؤلاء، تقول الآیه: (وما نرسل المرسلین إلّا مُبشرین ومُنذرین).

ثمّ تقول الآیه: إنَّ هذه القضیه لیست جدیده، بل إنَّ مِن واقع هؤلاء الأشخاص المعارضه والاستهزاء بآیات الله: (ویُجادل الذین کفروا بالباطل لیدحضوا به الحق واتخذوا آیاتی وما أنذروا هزواً)(۲).

وهذه الآیه تشبه الآیات (۴۲ ـ ۴۵) مِن سوره الحج التی تقول: (وإن یکذبوک فقد کذَّبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود...).

ویحتمل فی تفسیر الآیه أنَّ الله تبارک وتعالی یرید أن یقول: إنَّ عمل الأنبیاء لایقوم علی الإجبار والإکراه، بل إنَّ مسؤولیتهم التبشیر والإنذار، والقرار النهائی مرتبط

۱- الکهف: ۵۶.

۲- (یدحضوا) مُشتقه مِن (إدِحاض) بمعنی الإبطال والإزاله، وهی فی الأصل مأخوذه مِن کلمه (دحض) بمعنی الِ نزلاق.

بنفس النـاس کی یُفکروا بعـواقب الکفر والإیمـان معـاً، وحـتی یؤمنـوا عـن تصـمیم وإراده وبیّنـه، لاـ أن یلجـأوا إلی الإیمـان الاضطراری عند نزول العذاب الإلهی.

لکن، مع الأسف أن یُساء استخدم حریه الاختیار هذه والتی هی وسیله لتکامل الإنسان ورقیّه، عندما یقوم أنصار الباطل بالجدال فی مقابـل أنصـار الحق، إذ یُریـدون القضـاء علی الحق عن طریق الاسـتهزاء أو المغالطه. ولکن هناک قلوباً مسـتعده لقبول الحق دوماً والتسلیم له، وإنَّ هذا الصراع بین الحق والباطل کان وسیبقی علی مدی الحیاه.

ثم تشـیر الآیه الکریمه إلی الوضع المشابه الذی واجهه الرسل والأنبیاء قبل رسول الله کی تکون فی هذه الذکری مواساه أکثر للرسول الکریم، حیث واجه الأنبیاء السابقون مثل هذه المشاکل، إلّا أنّهم استمروا فی طریقهم و احتفظوا بمسارهم المستقیم.

یقول تعالی: (ولقد أرسلنا رسلا من قبلک منهم من قصصنا علیک ومنهم من لم نقصص علیک)(۱).

لقد واجه کلّ منهم ما تواجهه أنت الیوم، فصبروا وکان حلیفهم النصر والغلبه علی الظالمین.

ومن جهه ثانیه کان الجمیع یطلبون من الرسل الإتیان بالمعجزه، ومشـرکوا مکّه لم یشذوا عن غیرهم فی طلب المعاجز من رسول الله لذلک یخاطب الله تعالی رسوله الکریم بقوله: (وما کان لرسول أن یأتی بآیه إلّا بإذن الله).

إنّ جمیع المعاجز هی من عنـد الله وبیـده، وبذلک فهی لا تخضع إلی أمزجه الکفار والمشـرکین، بل إنّ رسول الله لا ینبغی له الاستسلام أمام «معجزاتهم المقترحه»

۱- غافر: ۷۸.

بل ما يكون من المعجزه ضرورياً لهدايه الناس وإحقاق الحق يظهره الله على أيدى الأنبياء.

ثم تهـدّد الآـيه من كان يقول: لماذا لا يشـملنا العـذاب الإلهى إذا كان هـذا الرّسول صادقاً؟ فتقول الآيه: (فإذا جاء أمر الله قضـى بالحق وخسر هنالك المبطلون).

فى ذلك اليوم المهول تغلق أبواب التوبه، ولا تنفع الآهات والصـرخات، ويخسـر أهل الباطل صـفقتهم، ويشملهم العذاب الإلهى الأليم، إذاً فلماذا كلّ هذا الإصرار على مجىء ذلك اليوم؟

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ)(۱).

الآيه التاليه تخاطب النّبى ، وتبين موقفه من الطلبات المذكوره وتقول: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً).

فمسؤوليه الرّسول بيان الأحكام الإلهيه، وتقديم المعاجز، وتوضيح الحقائق، وهذه الدعوه ينبغى أن تقترن بتبشير المهتدين وإنذار العاصـين وهـذه مسؤوليتك أيّها الرّسول، وأما الفئه التى لا تـذعن للحق بعـد كل هذه الآيات فأنت غير مسؤول عنها: (وَلَا تُسْـئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ).

مرَّ علينا أن القرآن يصف الحجـج الواهيه التى يطرحها المعاصـرون لصاحب الرساله الخاتمه، بأنها شبيهه بتلك التى كان يتـذرع بها المنحرفون من الأمم السابقه، فقلوبهم متشابهه.

القرآن يشـير بهـذا التقريع واللوم إلى أنّ مرور الزمن ينبغى أن يكون عاملاـ على زيـاده وعى الأجيـال البشـريه، وعلى تفهّم هـذه الأجيـال اللاـحقه أكثر من السـابقه لتعـاليم الأنبيـاء، لكن مرور الزمن لا يرفع مسـتوى المنحرفين، بل يبقى خط الانحراف واحـداً متشابهاً على مرّ الأجيال وكأنّها متعلقه بالآف الأعوام السالفه.

۱- البقره: ۱۱۹.

هناک أصلان تربویان:

«البشاره» و«الإنـذار» أو «التشـجیع» و«التهدیـد» من أهم الأصول اللازمه للتربیه وللحرکه الاجتماعیه. ینبغی أن یلقی الفرد تشـجیعاً علی أعماله الصالحه، وتوبیخاً علی أعماله الطالحه، کی یواصل مسیره الأول، ویرتدع عن ارتیاد المسیر الثانی.

والتعادل ضـروری بین هـذین الجانبین، فلو تجاوز التشـجیع حـدّه لأدّی إلی التجرؤ والغفله، ولو تعـدّی التخویف حدّه لبعث علی الیأس والقنوط وانطفاء شعله الشوق والتحرک فی النفوس.

«التشـجیع» وحـده لاـ یکفی لـدفع الفرد والمجتمع علی طریق التکامل، لأن الإنسان سوف یکون مطمئناً من عـدم الخطر فی حاله ارتکاب المعاصی.

علی سبیل المثال، نری ارتکاب المعاصـی بین النصاری الحالیین أمراً عادیاً، لأنهم یعتقدون بالفداء، أی بأن السـید المسـیح قد ضحی بنفسه لغفران ذنوب أتبـاعه، أو لاعتقـادهم بأن أحبارهم قادرون أن یغفروا لهم ذنوبهم بسـبل شتی، منها منحهم صـکوک الغفران. أو یبیعون لهم الجنّه مثل هؤلاء القوم یسمحون لأنفسهم إرتکاب الذنوب بسهوله.

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْـدَ اللهِ حَقٌّ فَـإِمَّا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِـدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِلَیْنَـا یُرْجَعُونَ * وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنَا رُسُـلا مِّن قَبْلِـکَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْـنَا عَلَیْـکَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُـصْ عَلَیْـکَ وَمَـا کَـانَ لِرَسُول أَنْ یَـأْتِیَ بِـآیَه إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ اللهِ قُضِـیَ بِالْحَقِّ وَخَسِـرَ هُنَالِکَ الْمُبْطِلُونَ)(۱).

بعـد سلسـله البحوث السابقه عن جدال الکافرین وغرورهم وتکذیبهم الآیات الإلهیه والدلائل النبویه، تأتی هاتان الآیتان لمواساه النّبی الأکرم وتأمرانه بالصبر والاستقامه فی مواجهه المشاکل والصعاب.

۱- غافر: ۱۷۷-۱۷۸.

يأتى الأمر أوّلا فى قوله تعالى: (فاصبر إنّ وعد الله حق).

إن وعده بالنصر حق، ووعده بمعاقبه المستكبرين المغرورين حق، وكلاهما سيتحققان، على أعداء الحق أن لا يظنّوا بأنّهم يستطيعون الهروب من العذاب الإلهى بسبب تأخر عقابهم، لذلك تضيف الآيه:(فإمّا نُرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون).

إنّ مسؤوليتك هى التبليغ البليغ وإتمام الحجه على الجميع، حتى تتنور القلوب اليقظه ببلاغك، ولا يبقى للمعاندين عذر!

عليك أن تهتم بإنجاز مهمتك ولا تنتظر تحقق الوعيد عاجلا بإنزال العقاب على هذه الفئه الضاله.

والكلام يتضمّن تهديداً إلى تلك الفئه لكى يعلموا أنّ العذاب لا بدّ مصيبهم، ونازل بساحتهم، فكما نال بعضهم العقاب الذى يستحقونه فى هذه الدنيا فى «بدر» و غيرها، فهناك أيضاً يوم القيامه والعذاب المنتظر.

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)(۱).

هذه الآيات تعتبر استمراراً للآيات السابقه فى موضوع الرساله وأجرها.

فهى تقول: إن هؤلاء القوم لا يقبلون الوحى الإلهى، بل: (أم يقولون افترى على الله كذباً) وهذا الاعتقاد وليد أفكارهم حيث ينسبونه إلى الخالق.

فى حين: (فإن يشأ الله يختم على قلبك) ويجردك من قابليه إظهار هذه الآيات.

وفى الحقيقه، فإن هذا الأمر إشاره إلى الاستدلال المنطقى المعروف، وهو أنّه إذا ادعى شخص النبوه، وجاء بالآيات البينات والمعاجز، وشمله النصر الإلهى، فلو

۱- الشورى: ۵۴.

کذب علی الخالق فإن الحکمه الإلهیه تقتضی سحب المعاجز منه وفضحه وعدم حمایته، کما ورد فی الآیات (۴۴) إلی (۴۶) من سوره الحاقه: (ولو تقول علینا بعض الأقاویل لأخذنا منه بالیمین ثمّ لقطعنا منه الوتین).

نلاحظ أیضاً أن إحدی التهم التی نسبها الکفار والمشرکون إلی الرّسول ﷺ هی أنّه یعتبر أجر الرساله فی مودّه أهل بیته وأنّه یکذب علی الخالق فی هذا الأمر: (هذا طبقاً للآیات السابقه) إلاّ أن هذه الآیه نفت هذه التهمه عنه ﷺ.

ثم تقول الآیه لتأکید هذا الموضوع: (ویمح الله الباطل ویحق الحق بکلماته).

فهذه هی مسؤولیه الخالق فی توضیح الحق وفضح الباطل وفقاً لحکمته، وإلاّ فکیف یسمح لشخص بالکذب علیه وفی نفس الوقت ینصره ویظهر علی یدیه المعاجز؟

کما أن من الاخطاء الکبیره أن یتصور البعض قیام الرّسول ﷺ بهذا العمل مُخفیاً ذلک عن علم الخالق: (إنّه علیم بذات الصدور).

(نَزّلَ عَلَیْکَ الْکِتَابَ بِالْحَقّ مُصَدّقاً لّمَا بَیْنَ یَدَیْهِ وَأَنزَلَ التّوْرَاهَ وَالإنجِیلَ * مِن قَبْلُ هُدًی لّلنّاسِ)(۱).

هذه الآیه تخاطب نبی الإسلام وتقول: إنّ الله تعالی قد أنزل علیک القرآن الذی فیه دلائل الحقّ والحقیقه، وهو یتطابق تماماً مع ما جاء به الأنبیاء والکتب السابقه (التوراه والأنجیل) التی بشّرت به(۲).

وبعد إتمام الحجّه بنزول الآیات الکریمه من الله تعالی وشهاده الفطره والعقل علی صدق دعوه الأنبیاء، فلا سبیل للمخالفین سوی العقوبه، ولذلک تقول الآیه محلّ

۱- آل عمران: ۳ و۴ .

۲- انظر: التفسیر الأمثل، الجزء الأول ص ۱۴۶ فی تفسیر الآیه ۴۰ من سوره البقره، شرح (مصدّقاً لما بین یدیه)

البحث بعد ذكر حقّانيّه الرسول الأكرم والقرآن المجيد: (إنّ الذين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شديد).

ومن أجل أن لا يتوهّم أحد أو يشك فى قدره الله تعالى على تنفيذ تهديداته تضيف الآيه (والله عزيز ذو إنتقام)(۱).

هنا لابدّ من ملاحظه ما يلى:

۱ ـ أصل (الحقّ) المطابقه والموافقه، لذلك يقال لما يطابق الواقع «الحق». كما أنّ وصف الله بالحقّ ناشىء من كون ذاته القدسيه أعظم واقع غير قابل للإنكار.

وبعباره أُخرى «الحق» هو الموضوع الثابت المكين الذى لا باطل فيه.

والباء فى «الحق» فى هذه الآيه للمصاحبه،أى يا أيّها النبىّ لقد أنزل الله عليك القرآن مصحوباً بدلائل الحقّ.

۲ ـ «التوراه» لفظه عبريه تعنى «الشريعه والقانون»، وأُطلقت على الكتاب الذى أنزل الله على موسى بن عمران . وقد تطلق أيضاً على مجموعه كتب العهد القديم أو أسفاره الخمسه.

حقانيه القرآن وتصديقه الكتب السماويه التى سبقته

(وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)(۲).

۱- ذكر بعض المفسّرين أن «ذو» لها معناً أقوى من «صاحب» ولذلك لا نجد فى صفات الله أنها تذكر معنى كلمه صاحب بل تذكر دائماً مع كلمه «ذو» البحر المحيط: ج ۲ ص ۳۷۹.

۲- المائده: ۴۸.

تشير هذه الآيه إلى موقع القرآن وحقانيته بعد ذكر الكتب السماويه فى الآيات قبلها التى نزلت على الأنبياء السابقين.

وكلمه «مهيمن» تطلق فى الأصل على كل شىء يحفظ ويراقب أو يؤتمن على شىء آخر ويصونه، ولمّا كان القرآن الكريم يشرف فى الحفاظ على الكتب السماويه السابقه وصيانتها من التحريف اشرافاً كاملا، ويكمل تلك الكتب، لذلك أطلق عليه لفظ «المهيمن» حيث تقول الآيه: (وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه...).

فالقرآن بالإضافه إلى تصديقه الكتب السماويه السابقه، اشتمل ـ أيضاً ـ على دلائل تتطابق مع ما ورد فى تلك الكتب، فكان بذلك حافظاً وصائناً لها.

إنّ الكتب السماويه جاءت كلها متناسقه فى المبادىء والهدف الواحد الذى تبنى تربيه الإنسان والسمو به إلى مراتب الكمال المعنوى والمادى، على الرغم من الفوارق الموجوده بين هذه الكتب والتى تنبع من مقتضى التكامل التدريجى للإنسان، حيث أن كل شرعه جديده ترتقى بالإنسان إلى مرحله أسمى من مراحل الرقى والكمال الإنسانى، وتشتمل على خطط وبرامج أكثر شمولا وتطوراً، والإتيان بعباره: (مهيمناً عليه) بعد جمله (مصدقاً لما بين يديه) يدل على هذه الحقيقه، أى أنّ القرآن فى الوقت الذى يصدّق الكتب السابقه، يأتى فى نفس الوقت ببرامج وخطط أكثر شمولا للحياه.

الاختيار حق والإجبار باطل

(قُلْ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيل)(۱).

۱- يونس: ۱۰۸.

هـذه الآيه تضـمّنت موعظه ونصـيحه لعامّه الناس، فتقول أوّلا، وكقانون عام: (قل يا أيّها الناس قـد جاءكم الحق من ربّكم) هذه التعليمات، وهذا الكتاب السـماوى، وهذا الدين، وهذا النّبى كلها حق، والأدلّه على كونها حقّاً واضـحه، وبملاحظه هذه الحقيقه: (فمن اهتدى فإنّما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنّما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل).

أى إنّى لست مـأموراً بإجبـاركم على قبول الحق، لأـن الإجبـار على قبول الإيمـان لا معنى له، ولا أسـتطيع إذا لم تقبلوا الحق ولم تؤمنوا أن أدفع عنكم العـذاب الإلهى، بل إنّ واجبى ومسؤوليتى هى الدعوه والإبلاغ والإرشاد والهدايه والقياده، أمّا الباقى فيتعلق بكم، وعليكم انتخاب طريقكم.

إنّ هـذه الآـيه إضـافه إلى أنّهـا تؤكّـد مرّه أُخرى مسأله الإختيار وحريه الإراده، فإنّها دليل على أن قبول الحق سـيعود بالنفع على الإنسان نفسه بالدرجه الأُولى، كما أن مخالفته ستكون فى ضرره.

إنّ توجيهـات القـاده الإلهيين والكتب السـماويه ما هى فى الواقع إلاّ دروس لتربيه وتكامل البشـر، فلا يزيـد الإلتزام بها شـيئاً على عظمه الله، ولا تنقص مخالفتها من جلاله شيئاً.

(إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَآ أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيل)(۱).

بعد ذكر دلائل التوحيد، و بيان مصير المشركين والموحدين، تبيّن الآيه الأُولى -اعلاه - حقيقه مفادها أن قبول ما جاء فى كتاب الله أو عدم قبوله إنّما يعود بالفائده أو الضرر عليكم، وإن كان رسول الله يصرّ عليكم فى هذا المجال، فإنّه لم يكن

۱- الزمر: ۴.

يبتغى جنى الأرباح من وراء ذلك، و إنّما كان يؤدى واجباً إلهياً، (إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحقّ)(۱).

وتضيف الآيه (فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنّما يضل عليها) على أيه حال، فإنّك لست مكلفاً بإدخال الحق إلى قلوبهم بالإجبار، وإنّما عليك إبلاغهم وإنذارهم فقط (وما أنت عليهم بوكيل).

هذه القاعده بأنّ كلّ من اتبع طريق الحق عاد بالربح على نفسه، ومن اتبع سبيل الضلال عاد بالخساره على نفسه، تكررت عدّه مرات فى آيات القرآن الكريم، كما أنّها تأكيد على حقيقه أنّ الله غير محتاج لإيمان عباده ولا يخاف من كفرهم،وكذلك رسوله، وإنّه لم يدع عباده إلى عبادته كى يجنى من وراء ذلك الأرباح، وإنّما ليجود على عباده.

وقوله تعالى: (وما أنت عليهم بوكيل) التى وردت فيها كلمه (وكيل) بمعنى الشخص المكلف بهدايه الضالين وجعلهم يؤمنون بالله ـ وردت عدّه مرات فى آيات القرآن، وبنفس التعبير أو ما يشابهه، والغرض من تكرارها هو بيان أنّ الرّسول الأكرم ليس مسؤولاً عن إيمان الناس، بل الأمر الإلهى دون أن يظهر أى تقصير أو عجز.

النبيّ المرسل يحمل شريعه الحق والعداله

(يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْجَآءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْراً لَّكُمْ وَإن تَكْفُرُوا فَإنَّ للهِ مَا فِى السَّمَوَتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً)(۲).

لقد أوضحت الآيات السابقه نهايه وعاقبه الناس الذين انعدم لديهم عنصر

۱- «بالحق»: من الممكن أن تكون حالا ـ ل (كتاب) أو للفاعل فى (أنزلناه)، مع أنّ المعنى الأوّل أنسب، و لذا فإنّ مفهوم الآيه يكون: (إنا أنزلنا عليك القرآن مترافقاً بالحق).

۲- النساء: ۱۷۰.

الإيمان، أمّا الآيه الأخيره فهى تـدعو إلى الإيمان وتبيّن نتيجه هـذا الإيمان، وتسـتخدم فى ترغيب الناس إلى هـذا الهدف السامى عبارات واصطلاحات تثير عند الأفراد الرغبه والاندفاع نحو الإيمان.

وهـذه الآيه تشـير فى البـدايه إلى أنّ النّبى المرسل هو ذلك الذى كان ينتظر الناس ظهوره، والذى أشارت إليه الكتب السـماويه السابقه، وهو يحمل إليهم شريعه الحق والعداله فتقول الآيه فى هذا المجال: (يا أيّها الناس قد جاءكم الرّسول بالحق).

ثمّ تردف الآيه بأنّ هذا النّبى قد جاء إلى الناس من الله الذى تعهد تربيه الخلق أجمعين، وذلك من خلال العباره القرآنيه الوارده فى هذه الآيه، وهى عباره: (من ربّكم).

وبعـد ذلك تؤكّـد الآيه ـ على أنّ إيمان الأفراد إنّما تعود فائـدته ويعود نفعه عليهم أنفسـهم، أى أن الإنسان إذا آمن إنما يخدم نفسه بهذا الإيمان قبل أن يخدم به غيره تقول الآيه: (فآمنوا خيراً لكم).

كما تؤكّد الآيه فى النهايه على أن من يتخذ الكفر سبيلاً لنفسه فلن يضـرّ الله بعمله هذا أبداً، لأن الله يملك كل ما فى السـماوات وما فى الأرض، فهو بهذا لا يحتاج إلى أى شـىء من الآخرين، وتبيّن الآيه فى النهايه أنّ أحكام الله وأوامره كلّها لمصـلحه البشر، لأنّهـا نـابعه من حكمه الله وعلمه وهى قـائمه على أسـاس تحقيق مصالـح النـاس، ومنـافعهم الخيّره، فتقول الآيه: (وكان الله عليماً حكيماً).

فهل يحق للبشر بعد هذا البيان أن يتركوا طريق الإيمان ويتبعوا سبيل الكفر؟

(هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقّ إِنّا كُنّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)(۱).

ثمّ يأتيهم الخطاب من قبل الله مرّه أُخرى، فيقول مؤكّداً: (هذا كتابنا ينطق

۱- الجاثيه: ۲۹.

علیکم بالحق) فقد کنتم تفعلون کلّ ما یحلو لکم، ولم تکونوا تصدِّقون مطلقاً أنّ کلّ أعمالکم هذه تسجل فی مکان ما، ولکن (إنّا کنّا نستنسخ ما کنتم تعملون).

«نستنسخ» من ماده «استنساخ»، وهی فی الأصل مأخوذه من النسخ، وهو إزاله الشیء بشیء آخر، فیقال مثلاً: نسخت الشمس الظل. ثمّ استعملت فی کتابه کتاب عن کتاب آخر من دون أن یمحی الکتاب الأوّل.

وهنا یبدو سؤال، وهو: إذا کان الله سبحانه قد أمر باستنساخ أعمال ابن آدم، ذلک یستلزم أن یکون هناک کتاب قبل النسخ تکتب فیه تلک الأعمال؟ ولذلک فإنّ البعض یعتقد أنّ صحائف أعمال کلّ البشر قد کتبت فی اللوح المحفوظ، والملائکه الموکلون بحفظ أعمال الإنسان یستنسخونها من ذلک اللوح المحفوظ.

إلاّ أنّ هذا المعنی لا یتلاءم کثیراً مع الآیه مورد البحث، بل الملائم أحد معنیین هما: إمّا أن یکون الاستنساخ هنا بمعنی أصل الکتابه _ کما قاله بعض المفسّرین _، أو أنّ نفس أعمال الإنسان کالکتاب التکوینی تنسخ عنه الملائکه الحفظه وتصوره، ولذلک فقد ورد فی آیات أُخر من القرآن الکریم التعبیر بالکتابه بدل الاستنساخ، کما نقرأ ذلک فی الآیه (۱۲) من سوره یس: (إنّا نحن نحیی الموتی ونکتب ما قدموا وآثارهم)(۱).

عشّاق الحقّ

(وَبِالْحَقّ ِ أَنْزَلْنهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنکَ إلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِیراً)(۲).

۱- ورد فی روایه عن أمیر المؤمنین علی: «إن لله ملائکه ینزلون کلّ یوم یکتبون فیه أعمال بنی آدم». ویقول الشیخ الطوسی فی التبیان فی ذیل الآیه مورد البحث بعد نقل هذه الروایه: ومعنی نستنسخ نستکتب الحفظه ما یستحقونه من ثواب وعقاب.

۲- الإسراء: ۱۰۵.

مرّه أُخرى يشير القرآن العظيم إلى أهميه وعظمه هذا الكتاب السماوى ويُجيب على بعض ذرائع المعارضين.

فى البدايه تقول الآيات: (وبالحق أنزلناه)، ثمّ تضيف بلا أدنى فاصله (وبالحق نزل)، ثمّ تقول: (وما أرسلناك إلاَّ مُبشراً ونذيراً) إذ ليسَ لكَ الحق فى تغيير محتوى القرآن.

لقد ذكر المفسّرون آراء مُختلفه فى الفرق بين الجمله الأُولى: (وبالحق أنزلناه) والجمله الثّانيه: (وبالحق نزل) مِنها:

۱ ـ المراد مِن الجمله الأُولى: إنّنا قَدّرنا أن ينزل القرآن بالحق. بينما تضيف الجمله الثّانيه أنَّ هذا الأمر أو التقدير قد تحقق، لذا فإنَّ التعبير الأوّل يُشير إلى التقدير، بينما يشير الثّانى إلى مرحله الفعل والتحقق(۱).

۲ ـ الجمله الأُولى تشير إلى أنَّ ماده القرآن ومحتواه هو الحق، أمّا التعبير الثّانى فانَّهُ يبيّن أن نتيجته وثمرته هى الحق أيضاً(۲).

۳ ـ الرأى الثّالث يرى أنَّ الجمله الأُولى تقول: إنّنا نزّلنا هذا القرآن بالحق بينما الثّانيه تقول: إنَّ الرّسول لم يتدخل فى الحق ولم يتصرف بهِ، لذا فقد نزل الحقّ.

وثمّه احتمال آخر قد يكون أوضح مِن هذه التّفاسير، وهو أنَّ الإنسان قد يبدأ فى بعضِ الأحيان بعمل ما، ولكنّه لا يستطيع اتمامه بشكل صحيح وذلك بسبب مِن ضعفه، أمّا بالنسبه للشخص الذى يعلم بكل شىء ويقدر على كل شىء، فإنَّهُ يبدأ بدايه صحيحه.

۱- راجع تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۳۹۵۵.
۲- فى ظلال القرآن، فى تفسير الآيه.

القرآن وطلاب الحقّ

(إِنَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ)(۱).

هذه الآيه تتحدث:

أولاً عن نزول القرآن المجيد.

ثانياً: تُبيّن محتوى وأهداف القرآن.

ومن الطبيعى أنّ كلّ كتاب تتمّ معرفته من خلال مؤلفه أو منزله، وعندما ندرك أنّ هذا الكتاب السماوى الكبير مستلهم من علم الله القادر والحكيم، الذى لا يقف أمام قدرته المطلقه شىء، ولا يخفى على علمه المطلق أمر، لأيقنّا بلا عناء أن محتوياته حقّ وكلّها حكمه ونور وهدايه.

ثم تعرض محتويات هذا الكتاب السماوى وأهدافه (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق).

لا يوجد فيه غير الحقّ، ولهذا السبب يتبعه طلاب الحقّ، والباحثون عن الحقيقه مشغولون بالبحث فى محتوياته. من هنا، ولكون هدف نزول القرآن يتحدد فى إعطاء الدين الخالص للبشريه، فإنّ آخر الآيه يقول: (فاعبد الله مخلصاً له الدين).

قد يكون المراد هنا من كلمه (دين) هو عباده الله، لأنّ الجمله التى وردت قبلها (فاعبد الله) فيها أمر بالعباده، ولذا فإنّ العباره التى تليها (مخلصاً له الدين) تبيّن شروط صحه العباده والتى تتمثل فى الإخلاص وفى الشرك والرياء.

وهنا معنيان تبينهما الآيه هما:

الأوّل: هو أنّ البارىء عزّ وجلّ لا يقبل سوى الدين الخالص، والاستسلام الكامل له من دون أىّ قيد أو شرط، ولا يقبل أى عمل فيه رياء أو شرك، أو خلط

۱- الزمر: ۲.

للقوانين الإلهيه بغيرها من القوانين الوضعيه.

الثّانى: هو أنّ الدين والشريعه الخالصه يجب أخذها من الله فقط، لأن أفكار الإنسان ناقصه وممزوجه بالأخطاء والأوهام.

(وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيل)(۱).

هذه الآيه: تخبر رسول الله أنّ قومه _ أى قريش وأهل مكّه _ لم يصدّقوا ما يقول مع أنّه صدق وحق وتؤكّده الأدله العقليه المختلفه والفطريه: (وكذب به قومك وهو الحق)(۲).

ثمّ يصدر الأمر إلى رسول الله : (قل لست عليكم بوكيل) أى إنّما أنا رسول ولست أضمن قبولكم.

فى الآيات الكثيره المشابهه لهذه الآيه (كالآيات ۱۰۷ _ الأنعام، ۱۰۸ _ يونس، ۴۱ _ الزمر، ۶ _ الشورى) يتبيّن أنّ المقصود من «وكيل» فى هذه المواضع هو المسؤول عن الهدايه العمليه للأفراد والضامن لهم _ لذلك فإنّ رسول الله يقول لهم فى هذه الآيه: إنّ الأمر يعود إليكم، فأنتم الذين يجب أن تتخذوا القرار النهائى فى قبول الحقيقه أو ردّها، فما أنا إلاّ رسول أُبلغ رساله الله.

وفى الآيه التّاليه القصيره ذات المعنى العميق تحذير لهم، ودعوه إلى اختيار الطريق الصحيح، (ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) أى أنّ كل خبر أخبركم به الرّسول فى هذه الدنيا أو فى الآخره مُوضَع ومُقَرّ، وسوف يتحقق فى موعده المقرر، وعندئذٍ ستعرفون ذلك.

۱- الأنعام: ۶۶.

۲- الضمير فى «به» يرجعه بعضهم إلى القرآن، ويرجعه آخرون إلى العذاب الذى ورد فى الآيات السابقه، ولكنّ الظاهر إنّه يرجع إلى كل هذه وإلى تعاليم الرّسول التى كذبوا بها.

مع الأخـذ بنظر الاعتبـار أنّ (الحقّ) يعنى كلّ ما ينطبق مع الواقع وينسـجم معه، فإنّ هـذا التعبير دليل على إثبات أنّ هـذا الكتاب السماوى نازل من الله تعالى، لأنّنا كلّما دقّقنا النظر فى هذا الكتاب السماوى وجدناه أكثر انسجاماً مع الواقع.

فليس فيـه تنـاقض، أو كـذب أو خرافـه، بـل فمبـادئه ومعـارفه تنسـجم مـع منطـق العقـل. قصـصه وتـواريخه منزّهه عن الأسـاطير والخرافات، وقوانينه تتساوق مع احتياجات البشر، فتلك الحقّانيه دليل واضح على أنّه نازل من الله سبحانه وتعالى.

ولأجـل توضـيح موقع القرآن الكريم ورد التعبير عنه بـ«النور» و«البرهان» و«الفرقان» و «الـذكر» و «الموعظه» و «الهـدى»، وكلّ واحده منها تشير إلى واحده من بركات القرآن وأبعاده، بينما كلمه (الحقّ) تشمل جميع تلك البركات.

وبنـاءً على ذلـك، فـإنّ حقّـانيه القرآن المجيـد هى من حيث كونه حـديثاً مطابقـاً للمصالـح والواقعيات من جهه، كما أنّ العقائد والمعـارف الموجـوده فيه تنسـجم مع الواقع من جهه اُخرى، ومن جهه ثـالثه فـإنّه من نسـج الله وصـنعه الـذى صـنعه على أسـاس الحكمه، والله ذاته تعالى الذى هو الحقّ يتجلّى فى ذلك الكتاب العظيم، والعقل يصدق ويؤمن ما هو حقّ.

(فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)(۱).

لمّـا كانت الآيات السابقه قـد ذكرت جوانب من ماضـى الأنبياء والأُمم السابقه، وكان من الممكن أن يشـكك بعض المشـركين ومنكرى دعوه النّبى فى صـحه ذلك، فقـد طلب القرآن من هؤلاء أن يراجعوا أهل الكتاب للتأكد والعلم بصـحه هذه الأقوال، وليسألوهم عن ذلك، لأنّ كثيراً من هذه المسائل قد ورد فى كتب هؤلاء.

۱- يونس: ۳۴.

إلاّ أنّه بدل أن يوجه الخطاب لهؤلاء، خاطب النّبی فقال: (فإن كنت فی شك ممّا أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك) ليثبت عن هذا الطريق بأنّه (لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين).

ويحتمل أيضاً أنّ الآيه أعلاه تطرح بحثاً جديداً ومستقلا فی صدق دعوه النّبی ، وتُعلِمَ المخالفين أنّهم إن كانوا فی شك من أحقيته فليسألوا أهل الكتاب عن علاماته التی نزلت فی الكتب السابقه كالتّوراه والإنجيل.

ونقل سبب آخر للنزول فی بعض التفاسير(۱) يؤيد هذا المعنی، وهو أن جمعاً من كفار قريش كانوا يقولون: إنّ هذا القرآن لم ينزل من الله، بل إنّ الشيطان يلقيه علی محمّد!! وقد سبب هذا الكلام أن يقع عدّه أشخاص فی وادی الشك والتردد.

فأجابهم بهذه الآيه.

غفله المشركين عن نزول القرآن

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)(۲).

فغفله المشركين عن هذه الحقائق وابتعادهم عن ظروف نزول القرآن، دفعهم للاعتقاد بأنّ أقوال النّبی تحمل بين ثناياها التناقض أو الإفتراء علی الله عزّ وجلّ!

وإلاّ لعلموا أنّ النسخ فی الأحكام جزء من أوامر وآيات القرآن المنظمه علی شكل برنامج تربوی دقيق لا يمكن الوصول للهدف النهائی لنيل التكامل إلاّ به.

فالنسخ فی أحكام مجتمع يعيش حاله انتقاليه بين مرحلتين يعتبر من الضروريات

۱- تفسير أبی الفتوح الرازی، الجزء ۶، ص ۲۲۷ ذيل الآيه.

۲- النحل: ۱۰۲.

العمليه والواقعيه، فالتحول والانتقال بالناس من مرحله إلى أُخرى لا يتم دفعه واحده، بل ينبغى أنّ يمر بمراحل انتقاليه دقيقه.

أيمكن معالجه مريض مزمن فى يوم واحد؟

أو شفاء رجل مدمن على المخدرات لسنوات عديده فى يوم واحد؟ أوَ ليس التدرج فى المعالجه من أسلم الأساليب؟

وبعد الإجابه على هذه الأسئله لا يبقى لنا إلاّ أنْ نقول: ليس النسخ سوى برنامج مؤقت فى مراحل انتقاليه.

وتستمر الآيه التاليه بنفس الموضوع، وللتأكيد عليه تأمر النّبى أنْ: (قل نزّله روح القدس من ربك بالحق).

«روح القدس» أو (الرّوح المقدسه) هو أمين الوحى الإلهى «جبرائيل الأمين»، وبواسطته كانت الآيات القرآنيه تتنزَّل بأمر الله تعالى على النّبى الأكرم سواء الناسخ منها أو المنسوخ.

فكل الآيات حق، وهدفها واحد يتركز فى توجيه الإنسان ضمن التربيه الرّبانيه له.

اعتراف الجن بحقانيه القرآن

(قَالُواْ يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيق مُسْتَقِيم)(۱).

تبيّن الآيه اعلاه كيفيه دعوه هؤلاء قومهم عند عودتهم إليهم، تلك الدعوه المتناسقه الدقيقه، الوجيزه والعميقه المعنى: (قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى).

۱- الأحقاف: ۳۰.

ومن صفاته أنّا رأيناه يصدق الكتب السماويه السالفه ويتطابق معها فی محتواها، وفيه العلائم الوارده فی تلك الكتب: (مصدقاً لما بين يديه).

وصفته الأُخرى أنّه: (يهدی إلی الحق) بحيث أنّ كلّ من يستند إلی عقله وفطرته يری آيات حقانيته واضحه جليه.

وآخر صفه أنّه يهدی إلی الرشد: (والی طريق مستقيم).

إنّ التفاوت بين الدعوه إلی الحق والی الصراط المستقيم، يكمن ظاهراً فی أنّ الأوّل إشاره إلی العقائد الحقه، والثّانی إلی البرامج العمليه المستقيمه الصحيحه.

وجمله: (أنزل من بعد موسی) وجمله: (مصدقاً لما بين يديه) تؤيدان أنّ هذه الطائفه كانوا مؤمنين بالكتب السماويه السابقه، وخاصه كتاب موسی ، وكانوا يبحثون عن الحق.

وإذا رأينا أنّ الكلام لم يرد عن كتاب عيسی الذی أنزل بعد موسی ، فليس ذلك بسبب ما روی عن ابن عباس من أنّ الجن لم يكونوا مطلعين علی نزول الإنجيل مطلقاً، إذ أنّ الجن كانوا مطلعين علی أخبار السماوات وعالمين بها، فكيف يمكن أن يغفلوا عن أخبار الأرض إلی هذا الحد؟ بل بسبب أنّ التوراه كانت هی الكتاب الأساسی، فحتی المسيحيون كانوا قد أخذوا ويأخذون أحكام شريعتهم عنها.

من هم الشهود؟

(وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّه شَهِيداً فَقُلْنا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لله وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)(۱).

هذه الآيه تقول أيّها المشركون الضالون:

ستنكشف المسائل وتتجلی الأُمور لا تبقی خافيه ويُعلم حينئذٍ الحق ويبطل عمل

۱- القصص: ۷۵.

المشركون والضالون (فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

هؤلاء الشهود الذين ذكرتهم الآيه اعلاه هم الأنبياء بقرينه الآيات الأُخرى فى القرآن، إذ أن كل نبى شاهد على أمته، ونبيّ الإسلام الذى هو خاتم الأنبياء شهيد على جميع الأنبياء والأُمم، كما نقرأ ذلك فى الآيه(۴۱) من سوره النساء (فكيف إذ جئنا من كل أمه بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً).

فعلى هذا، ينعقد يوم القيامه مجلس كبير بحضور الأنبياء، ويؤتى بالمشركين المعاندين عمى القلوب، وهناك يعرفون الفاجعه العظمى للشرك، وحقانيه الله، وضلال الأصنام... بجلاء.

ومن الطريف أن القرآن يعبر بـ (ضل عنهم ما كانوا يفترون) أى إن تصوراتهم واعتقاداتهم فى الأصنام تمحى عنهم يوم القيامه، لأنّ عرصه القيامه عرصه الحق، ولا مكان للباطل هناك، فالباطل يضل هناك ويمحى من الوجود.

فإذا كان الباطل يغطى وجهه هنا (فى هذا العالم) بستار من الحق ليخدع الناس أيّاماً، فهناك تنكشف الحجب ولا يبقى سوى الحق.

نقرأ فى روايه عن الإمام الباقر فى تفسير (ونزعنا من كل أمّه شهيداً) قوله: «ومن هذه الأُمه إمامها»(۱).

حقانيّه الرسول مقابل بطلان المشركين والمعاندين

(إِنَّآ أَرْسَلْنَكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّه إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ)(۲).

توصّلنا فى الآيات السابقه إلى أنّ هناك أفراداً كالأموات والعُميان لا تترك مواعظ الأنبياء فى قلوبهم أدنى أثر، وعلى ذلك فإنّ الآيات مورد البحث تقصد مواساه

۱- تفسير الميزان، ج ۱۶ ، ص ۲۰.

۲- فاطر: ۳۴.

الرّسول بهذا الخصوص وتخفيف آلامه لكى لا يغتمّ كثيراً.

أوّلا: تقول الآيه الكريمه: (إنّا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً وإنّ من اُمّه إلّا خلا فيها نذير). فيكفيك من أداء وظيفتك أن لا تقصّر فيها، وأوصل نداءك إلى مسامعهم، وبشّرهم بثواب الله، وأنذرهم عقابه، سواء استجابوا أو لم يستجيبوا.

الملفت للنظر أنّه تعالى قال فى آخر آيه من الآيات السابقه مخاطباً الرّسول الأكرم (إن أنت إلّا نذير) إشاره إلى أنّ الرّسول لا يقوم بهذا العمل من عند نفسه، وإنّما هو مأمور من قبل الله تعالى.

وإذا كانت الآيه السابقه قد ركّزت على الإنذار فقط، فلأنّ الحديث كان حول الجاهلين المعاندين الذين هم كالأموات المقبورين الذين لا يتقبّلون أى حديث، أمّا هذه الآيه فإنّها توضّح بشكل كامل، وظيفه الأنبياء الثنائيه الهدف «البشاره» و «الإنذار»، مؤكّده فى آخرها من جديد على «الإنذار» لأنّ الإنذار هو القسم الأساس من دعوه الأنبياء فى قبال المشركين والظلمه.

(أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَه مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَهً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَتَكُ فِى مِرْيَه مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ)(۱).

هناك أقوال كثيره ـ فى تفسير هذه الآيه ـ بين المفسّرين.

۱ ـ فى بدايه الآيه يقول الحق سبحانه:

(أفمن كان على بينه من ربّه ويتلوه شاهد منه) أى من الله تعالى (ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمه...). أى التوراه التى تويّد صدقه وعظمته، مثل هذا الشخص هل يستوى ومن لا يتمتع بهذه الخصال والدلائل البينه.

۱- هود: ۱۷.

هذا الشخص هو النّبی ﷺ، «البیّنه» ودلیله الواضح هو القرآن المجید، والشاهد المصدق بنبوّتهِ کلّ مؤمن حق أمثال علی ﷺ، ومن قَبلُ وردتْ صفاته وعلائمه فی التوراه، فعلی هذا ثبتت دعوته عن طرق ثلاثه حقّه واضحه.

الأوّل: القرآن الکریم الذی هو بیّنه ودلیل واضح فی یده.

الثّانی: الکتب السماویه التی سبقت نبوّته وأشارت إلی صفاته بدقّه، وأتباع هذه الکتب السماویه فی عصر النّبی کانوا یعرفونه حقاً، ولهذا السبب کانوا ینتظرونه.

الثّالث: أتباعه وأنصاره المؤمنون المضحّون الذین کانوا یبیّنون دعوته ویتحدثون عنه، لأن واحداً من علائم حقانیّه مذهب ما هو إخلاص اتباعه وتضحیتهم ودرایتهم وإیمانهم وعقلهم، إذ أن کلّ مذهب یُعرف بأتباعه وأنصاره.

ومع وجود هذه الدلائل الحیّه، هل یمکن أن یقاس مع غیره من المدعین، أم هل ینبغی التردّد فی صدق دعوته؟!.

ثمّ یشیر بعد هذا الکلام إلی طلاب الحقّ والباحثین عن الحقیقه، یدعوهم إلی الإیمان دعوه ضمنیه فیقول: (أُولئک یؤمنون به) أی النّبی الذی لدیه هذه الدلائل الواضحه.

ثمّ یعقب بعد ذلک ببیان عاقبه المنکرین ومصیرهم بقوله تعالی: (ومن یکفر به من الأحزاب فالنّار موعده).

وفی ختام الآیه ـ کما هی الحال فی کثیر من آیات القرآن ـ یوجه الخطاب إلی النّبی ﷺ ویبیّن درساً عاماً لجمیع الناس، ویقول: بعدَ هذا کلّه من وجود الشاهد والبیّنه والمصدق بدعوتک، فلا تتردد فی الطریق ذاته (فلا تک فی مریه منه) لأنّه من قبل الله سبحانه (إنّه الحقّ من ربّک) ولکن کثیراً من الناس ونتیجهً لجهلهم وأنانیتهم لا یؤمنون (ولکن أکثر الناس لا یؤمنون).

۲ ـ التّفسیر الثّانی لهذه الآیه هو أنّ هدفها الأصل بیان حال المؤمنین الصادقین

الذين يؤمنون بالنّبى مع وجود الـدلائل الواضـحه والشواهد على صدق دعوه النّبى وما جاء فى الكتب السـماويه السابقه فى شأنه، فأُولئك هم المؤمنون، واسـتناداً إلى هذه الدلائل جميعاً يؤمنون به ، فعلى هذا يكون المقصود من قوله: (أفمن كان على بيّنه من ربّه) جميع الـذين لـديهم دلائـل مقنعه، حيث سـارعوا إلى الإيمان بالقرآن ومن جاء به، وليس المقصود بكلمه «مَن» فى الآيه هو النّبى.

وعلى كل حال، فالآيه تشير إلى امتيازات الإسلام والمسلمين الصادقين واستنادهم إلى الدلائل المحكمه فى اختيار مذهبهم هذا.. وفى قبال ذلك تذكر ما يصير إليه المنكرون والمستكبرون من مآل مشؤوم أيضاً.

ما المقصود «بالشاهد» فى الآيه؟!

قال بعض المفسّرين: إن المقصود بالشاهد هو جبرئيل أمين وحى الله، ومنهم من فسّره بالنّبى ، ومنهم من قال: إنّ معناه لسان النّبى فى حاله فهم معنى «يتلو» من التلاوه أى القراءه، لا بمعنى التلّو الذى معناه مجىء شخص بعد آخر.

ولكن كثيراً من كبار المفسّرين فسروا «شاهد» بالإمام على ، ففى روايات كثيره وصلتنا عن الأئمّه المعصومين، وفى بعض كتب تفسير أهل السـنه _ أيضاً _ هناك تأكيد على أنّ المقصود من «الشاهد» فى الآيه هو الإمام على أوّل من آمن بالنّبى والقرآن الكريم، وكان معه فى جميع المراحل ولم يقصر لحظهً فى التضحيه دونه وحمايته إلى آخر نفس(۱).

وفى حديث منقول عن الإمام على أنّه قال: «ما من رجل من قريش إلّا وقـد أنزل فيه آيه أو آيتان من كتاب الله، فقال له رجل من القوم: وماذا أنزل فيك يا أمير

۱- راجع تفسير البرهان، ونور الثقلين، والقرطبى، ومجمع البيان، وسائر التفاسير.

المؤمنين؟ فقال: أما تقرأ الآيه التى فى هود (أفمن كان على بيّنه من ربّه ويتلوه شاهد منه) محمّد على بيّنه من ربّه وكنت أنا الشاهد»(۱).

أما المقصود من قوله: (فلا تك فى مريه منه)؟

هناك احتمالان فى من هو المخاطب بهذه الآيه:

الاحتمال الأوّل: النّبى نفسه، أى: يا رسول الله لا تتردد فى حقانيّه القرآن وشريعه الإسلام أقلّ تردد!

الاحتمال الثّانى: إنّه المخاطب بهذه الآيه كل مكلّف عاقل، أى «فلا تك أيّها المكلف العاقل فى مريه وتردد». وهذا وارد إذا لم يكن المقصود بالآيه (أفمن كان على بيّنه من ربّه) هو النّبى ، بل جميع المؤمنين الصادقين.

والتّفسير الأوّل أكثر انسجاماً مع ظاهر الآيه.

(وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَهٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)(۲).

هنا كلمه «كُلاًّ» إشاره الى تنوع القصص، وكل نوع منها يشير إلى اتّخاذ جبهه «قبال الأنبياء» ونوع من الانحرافات ونوع من العقاب، وهذا التنوّع يلقى أشعه نيره على أبعاد حياه الناس.

«تثبيت قلب النّبى» وتقويه إرادته ـ التى يشار إليها فى هذه الآيه ـ أمر طبيعى، لأنّ معارضه الأعداء اللجوجين الشديده والقاسيه ـ رضينا أم أبينا ـ تؤثر على قلب النّبى لأنّه إنسان وبشر أيضاً. ولكن من أجل ان لا ينفذ اليأس الى قلب النّبى المطهّر وتضعف إرادته الفولاذيه من هذه المعارضه والمخالفات والمثبطات، فإنّ

۱- تفسير البرهان، ج ۲، ص ۲۱۳ ، ونور الثقلين، ج ۲، ص ۳۴۶ .

۲- هود: ۱۲۰.

الله يقص عليه قصص الأنبياء وما واجهوه، ومقاومتهم قبال أممهم المعاندين، وانتصارهم الواحد تلو الآخر ليقوى قلب النّبى والمؤمنين الذين يلتّفون حوله يوماً بعد يوم.

ثمّ تشير الآيه إلى النتيجه الكبرى الثّانيه فتقول الآيات: (وجآءك فى هذه الحق).

أمّا ثالث الآثار ورابعها اللذان يستلفتان النظر هما (موعظه وذكرى للمؤمنين).

الطريف هنا أنّ صاحب المنار يقول فى تفسير الآيه معقباً: إنّ الإيجاز والإختصار فى هذه الآيه المعجزه فى غايه ما يُتصور، حتى كأنّ جميع المعاجز السالفه قد جُمعت فى الآيه نفسها وبيّنت فوائدها جميعاً بعدّه جمل قصيره.

وعلى أيه حال، فإنّ هذه الآيه تؤكّد مرّه أُخرى أنّه لا ينبغى أن نعدّ قصص القرآن ملهاه أو يستفاد منها لإشغال السامعين، بل هى مجموعه من أحسن الدروس الحياتيه فى جميع المجالات، وطريق رحب لجميع الناس فى الحاضر والمستقبل.

ما الكتاب المبين

(تِلْكَ ءَايَتُ الكِتَبِ الْمُبِينَ * نَتْلُوا عَلَيكَ مِن نَّبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْم يُؤمِنُونَ)(۱).

الحديث فى هاتين الآيتين عن عظمه القرآن، إذ يقول: (تلك آيات الكتاب المبين)، وبالرغم من أن (الكتاب المبين) جاء بمعنى اللوح المحفوظ كما قد ورد فى الآيه (۶۱) من سوره يونس (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا فى كتاب مبين) والآيه السادسه من سوره هود (كلّ فى كتاب مبين) ولكنّه جاء بمعنى القرآن فى الآيه محل البحث بقرينه ذكر «الآيات» وكذلك جمله (نتلوا عليك) الوارده فى الآيه التى

۱- القصص: ۲-۳.

بعدها... وقد وصف القرآن هنا بكونه «مبين» وكما يستفاد من اللغه فإنّ كلمه «مبين» تستعمل فی المعنيين «اللازم والمتعدی»، فهو واضح فی نفسه وموضّح لغيره، والقرآن المجيد بمحتواه المشرق يميّز الحق عن الباطل، ويبيّن الطريق الواضح من الطريق المعوّج(۱).

والقرآن بعد ذكر هذه المقدّمه القصيره يحكی قصّه «فرعون» و «موسی» فيقول: (نتلوا عليك من نبأ موسی و فرعون بالحقّ لقوم يؤمنون).

والتعبير بـ «من» التی هی للتبعيض إشاره إلی هذه اللطيفه الدقيقه، وهی أن ما ورد ـ هنا فی القرآن ـ من هذه القصّه ذات الأحداث الكبيره يتناسب وما تقتضيه الضروره فحسب.

والتعبير «بالحق» إشاره إلی أنّ ما ورد هنا خال من كل خرافه وأُسطوره، وبعيد عن الأباطيل والأكاذيب.. فهی إذن تلاوه مقترنه بالحق والواقعيه.

والتعبير بـ(لقوم يؤمنون) هو تأكيد علی هذه الحقيقه، وهی أنّ مؤمنی ذلك العصر الذين كانوا يرزخون تحت ضغوط المشركين والأعداء، عليهم أن يدركوا هذه الحقيقه، وهی أنّ الأعداء مهما تعاظمت قواهم وتزايدوا عَدَداً وَعُدَداً، وأن المؤمنين مهما قلّوا وكانوا تحت ضغط أعدائهم وكانوا ضعافاً بحسب الظاهر، فلا ينبغی أن يهنوا وينكصوا عن طريق الحق، فكل شیء عند الله سهل يسير!..

أُولوا الألباب وحقانيه القرآن

(أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)(۲).

۱- والتعبير ب «تلك» المستعمله للإشاره للبعيد لبيان عظمه هذه الآيات أيضاً ...

۲- الرعد: ۱۹-۲۰.

بعد ذکر استفهام إنکاری: (أفمن یعلم أنّما أنزل إلیک من ربّک الحقّ کمن هو أعمی).

وهـذا وصف رائع، فهو لم یقل: أفمن یعلم أنّ هـذا القرآن علی الحقّ کمن لا یعلم؟ بل قال: کمن هو أعمی؟ وهذه إشاره لطیفه إلی أنّه من المحـال أن لا یعلم أحـد بهـذه الحقیقه إلاّ أن یکون أعمی القلب، فکیف یمکن لإنسان یمتلک عیناً سـلیمه ولا یری نور الشمس، وهذا القرآن کالشمس. ولذلک یجیء فی نهایه الآیه قوله تعالی: (إنّما یتذکّر اُولو الألباب).

«الألباب» جمع لُب بمعنی جوهر الشیء، ویقابل اُولی الألباب اُولو الجهل والعمی.

إنّ هـذه الآیه ـ وکما یـذهب إلیه بعض المفسّـرین ـ تحثّ الناس علی طلب العلم ومحاربه الجهل، لأنّها تعـدّ الفرد الفاقد للعلم کمن هو أعمی. ثمّ بیّن سـیره اُولی الألبـاب من خلال ذکر صـفاتهم الحمیـده، وأوّل مـا أشار القرآن إلیه وفاؤهم بالعهـد وعـدم نقضهم له (والذین یوفون بعهد الله ولا ینقضون المیثاق).

إنّ «عهد الله» له معنی واسع، ویشـمل العهود الفطریه التی عاهدوا بها ربّهم کالفطره علی التوحید وحبّ الحقّ والعداله، والمواثیق العقلیّه التی یـدرکها الإنسان من خلال التفکیر والتعقّل لعالم الوجود، والمبدأ والمعاد، وتشـمل کذلک العهود الشـرعیّه، وهی ما عاهدوا الرّسول علیه من الطاعه للأوامر الإلهیّه وترک المعاصی والذنوب.

حقانیه الرسول وبطلان أعذار المنکرین

(أَمْ یَقُولُونَ بِهِ جِنَّهٌ بَـلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَکْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ کَرِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَـدَتِ السَّمَوَتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِیهِنَّ بَلْ أَتَیْنَهُم بِذِکْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِکْرِهِم

مُّعْرِضُونَ)(۱).

هنا تعرض هـذه الآيات اعذار الكفار واسـتكبارهم ازاء رسول الله . ففى هـذه المرحله يرمون الرسول بالجنون، فبعد اعترافهم بأنّك لست مجهولاً بالنسبه لهم، إلّا أنّهم يشـكّكون فى سـلامه عقلك وينسـبونك إلى الجنون، لأنّ ما تدعو إليه لا ينسـجم مع عقائدهم، فلذلك اتّخذوا هذا دليلا على جنونك.

يقـول القرآن المجيـد فى نفى هـذه الحجّه: (بـل جـاءهم بـالحقّ) وكلامـه شاهـدٌ على هـذه الحقيقه، ويضـيف (وأكـثرهم للحقّ كارهون).

أجـل، إنّ كلمـات الرّسول راشـده حكيمه، إلّا أنّهم ينكرونها لعـدم انسـجامها مع أهوائهم النفسـيّه. فألصـقوا به تهمه الجنون! فى الوقت الذى لا ضروره فى توافق الحقّ مع رغبات الناس (ولو اتّبع الحقّ أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهنّ).

لأنّه لا يوجـد مقياس يحدّد أهواء الناس، مضافاً إلى أنّها تميل إلى الشـرّ والفساد غالباً، ولو اتّبعتها قوانين الوجود لعمّت الفوضـى فى الكون ولفسد العالم.

وتأكيـداً لـذلك تقول الآـيه: (بـل أتيناهم بـذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون)(۲) أى منحنـاهم القرآن الـذى هو أساس للـذكر والتوجّه إلى الله، وسبب لرفعتهم وشرفهم، إلّا أنّهم أعرضوا عن هذا المنار الذى يُضىء لهم درب السعاده والشرف.

(بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ)(۳).

فى هذه الآيه الكريمه يوجّه اللوم لمنكرى حقيقه وحقانيه الرسول ويقول

۱- المؤمنون: ۷۰-۷۱.

۲- يمكن أن تفسّر عباره «ذكرهم» بمعنى تذكّرهم وتوقظهم، ويمكن أن تفسّر بمعنى شرفهم وحيثيّتهم فى المجتمع البشرى.

۳- المؤمنون: ۹۰.

لهم لماذا تفرّون من الخضوع للحقيقه؟ ولماذا تتّهمون النّبی الأکرم بالسحر وقلوبکم تعترف بهذه الحقائق؟!

وأخیراً یقول القرآن فی عباره مختصره ذات دلاله کبیره بأنّه لیس سحراً ولا شعوذه ولا شیء آخر: (بل أتیناهم بالحقّ وإنّهم لکاذبون).

لقد بیّن الله الحقائق للناس بإرساله الأنبیاء والرسل إلیهم ولکنّهم عصوا أمره، ولم یستجیبوا له فیما یحییهم من عبادته وإقامه أحکامه الهادیه لکلّ خیر، المنقذه من کلّ شرّ.

والجدیر بالاهتمام هو أنّه سبحانه وتعالی فی الآیات التی سبقت هذه الآیه ذکر أسئله وجهها للکفار والمعاندین ویجیب علیها فی آخر کل آیه نذکر صوره الحاجه منها فبعد السؤال الأوّل وإجابته جاءت عباره: (أفلا تذکرون).

وبعد السؤال الثّانی وإجابته جاءت عباره (أفلا تتّقون).

وبعد السؤال الثّالث وإجابته جاءت عباره (فأنّی تسحرون).

وهذه عبارات تنبیه شدیده للکفّار واستنکار لما هم علیه من باطل بشکل متدرّج ومرحله بعد أُخری، وهو اُسلوب متعارف ینسجم مع الأسالیب المعروفه فی التعلیم والتربیه المنطقیّه. فإذا احتاج المربّی إلی إدانه شخص، یبدأ أوّلا بتنبیهه بلطف، ثمّ بحزم، وبعد ذلک یعنّفه!

عظمه القرآن وتهمه المشرکین والمنافقین

(أَمْ یَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّکَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا آتَهُم مِّن نَّذِیر مِّن قَبْلِکَ لَعَلَّهُمْ یَهْتَدُونَ)(۱).

۱- السجده: ۳.

تشير هذه التهمه التى طالما وجهها المشركون والمنافقون إلى هذا الكتاب السماوى العظيم حيث قالوا: إنّ هذا الكتاب من تأليف محمّد. وقد ادّعى كذباً بأنّه من الله: (أم يقولون افتراه) فيقول جواباً على ادّعاء هؤلاء الزائف: (بل هو الحقّ من ربّك) وأدلّه أحقّيته واضحه وبيّنه فيه من خلال آياته.

ثمّ يتطرّق إلى الهدف من نزوله، فيقول: (لتنذر قوماً ما آتاهم من نذير من قبلك).

فبالرغم من أنّ دعوه النّبى الأكرم مبشّره ومنذره، وأنّه بشير قبل أن يكون نذيراً، إلّا أنّه يجب التأكيد على الإنذار أكثر مع القوم الضالّين المعاندين.

وجمله (لعلّهم يهتدون) إشاره إلى أنّ القرآن يهيّء أرضيه الهدايه، إلّا أنّ التصميم وإتّخاذ القرار النهائى موكول ومرتبط بنفس الإنسان.

وهنا يطرح سؤالان:

۱ ــ من هم هؤلاء القوم الذين لم يأتهم أى نذير قبل النّبى ؟

۲ ــ ألم يقل القرآن الكريم: (وإنْ من اُمّه إلّا خلا فيها نذير).

قال جمع من المفسّرين فى جواب السؤال الأوّل: المراد قبيله قريش التى لم يكن لها نذير قبل نبىّ الإسلام.

وقال البعض الآخر: المراد مرحله الفتره والفاصله الزمنيه بين نبوّه عيسى وظهور نبى الإسلام .

إلّا أنّ أيّاً من هذين الجوابين لا يبدو صحيحاً، لأنّ الأرض لا تبقى خاليه من حجّه الله مطلقاً، وفى كلّ عصر وزمان لابدّ من وجود نبى أو وصى نبىّ لإتمام الحجّه.

بناءً على هذا، يبدو أنّ المراد من «النذير» هنا النّبى الكبير الذى يوضّح ويبيّن دعوته مقرونه بالمعجزات وفى محيط واسع.

وفى الإجابه عن السؤال الثّانى ينبغى أن يقال: إنّ معنى جمله: (وإنْ من اُمّه إلّا

خلا ـ فيها نـذير) هو أنّ كلّ اُمّه كان لها نـذير، إلّا أنّه لا يلزم حضوره بنفسه فى كلّ مكان، بل يكفى أن يصل صوت دعوه أنبياء الله العظام بواسطه أوصيائهم إلى أسماع كلّ البشر فى العالم.

وهذا يشبه قولنا: إنّ كلّ اُمّه كان لها نبى من اُولى العزم، ولها كتاب سماوى، وقد وصل كتابه السماوى وصوته عن طريق وكلائه وأوصيائه لكلّ تلك الاُمّه على طول التاريخ.

وعد الله حق

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ)(۱).

هـذه الآيه تنطوى على وصايا وتعليمات مهمّه للرسول وهى فى واقعهـا تعليمـات عامه للجميع، بالرغم من أنّ المخاطب بها هو شخص الرّسول الكريم .

يقول تعالى: (فاصبر إن وعد الله حق).

عليك أن تصبر على عناد القوم ولجاجه الأعداء.

عليك أن تصبر حيال جهل بعض الأصدقاء والمعارف، وتتحمل أحياناً أذاهم وتخاذلهم.

وعليك أيضاً أن تصبر إزاء العواطف النفسيه.

إنّ سرّ انتصاركَ فى جميع الاُمور يقوم على أساس الصبر والاستقامه.

ثم اعلم أنّ وعـد الله بنصـركَ وأمتـكَ لا ـ يمكن التخلف عنه، وإيمانـكَ ـ وإيمـانهم ـ بحقـانيه الوعـد الإلهى يجعلكَ مطمئناً ومستقيماً فى عملكَ، فتهون الصعاب عليكَ وعلى المؤمنين.

۱- غافر:۵۵.

لقـد أمر الله تعـالى رسوله مرّات عديـده بـالصبر، والأـمر بـالصبر جاء مطلقاً فى بعض الموارد، كما فى الآيه التى بصـددها، وجاء مقيـداً فى موارد اُخرى ويختص بأمر معين، كما فى الآيتين (۳۹ـ۴۰) من سوره «ق»: (فاصبر على ما يقولون). وكـذلك يخاطبه تعالى فى الآيه (۲۸) من سوره الكهف بقوله تعالى: (واصبر نفسك مع الـذين يـدعون ربّهم بالغداوه والعشـى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينه الحيواه الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً).

إنّ جميع انتصـارات الرّسول والمسـلمين الأوائل إنّما تمّت بفضل الصبر والاسـتقامه واليوم لابـدّ أن نسير على خطى رسول الله ونصبر كما صبر الرّسول وأصحابه إذ لولاه لما حالفنا النصر مقابل أعدائنا الألداء.

الأمرين المهمين والبشاره الكبرى للنبى

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ)(۱).

هذه الآيه تأمر النّبى أمرين مهمين، وتبشـره بشارةً كبرى، لتحثه على مواصله الوقوف والتصدى للمشركين والجاهلين والسفهاء بالاستقامه والصبر.

تقول أوّلاً: اذا كان الأمر كذلك، فعليك بالصبر والاسـتقامه امام الحوادث المختلفه، وفى مقابل انواع الأذى والبهتان والمصاعب (فاصبر).

لأنّ الصبر والاستقامه هما مفتاح النصر الأصيل.

وليكون النّبى أكثر اطمئناناً، فإنّ الآيه تضـيف (إن وعـد الله حق) فقـد وعـدك والمؤمنين بالنصـر، والاسـتخلاف فى الأرض، وغلبه الإسلام على الكفر، والنور على الظلمه، والعلم على الجهل. وسوف يُلبس هذا الوعد ثوب العمل!.

وكلمه «الوعد» هنا إشاره إلى الوعود المكرره التى وعدها القرآن فى انتصار

۱- الروم: ۶.

المؤمنين، ومن ضمنها الآيه (۴۷) من هذه السوره (وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين).

والآيه (۵۱) من سوره غافر (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياه الدنيا ويوم يقوم الإشهاد!).

وتقول الآيه (۵۶) من سوره المائده أيضاً (فإنّ حزب الله هم الغالبون).

وتأمر ثانياً بضبط الأعصاب والهدوء وعدم الانحراف فى المواجهه الشديده والمتتابعه، حيث تقول الآيه: (ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون).

إنّ مسؤوليتك أن تتحمل كل شىء، وأن يتسع صدرك وخلقك لجميع الناس فهذا هو الجدير بقائد وزعيم لأمثال هؤلاء.

يرى العلماء دعوه الرسول ﷺ حقّاً

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)(۱).

هذه الآيه تتحدّث عن العلماء والمفكّرين الذين صدّقوا بآيات الله وسعوا سعيهم لتشجيع الآخرين على التصديق بها.

فسّر بعض المفسّرين عباره (الذين أُوتوا العلم)، بتلك المجموعه من علماء أهل الكتاب الذين يتّخذون موقف الخضوع والإقرار للحقّ عند مشاهده آثار حقّانيه القرآن الكريم.

وليس هناك مانع من اعتبار علماء أهل الكتاب أحد مصاديق الآيه، ولكن تحديدها بهم يفتقد إلى الدليل، بل مع الالتفات إلى الفعل المضارع (يرى) وسعه مفهوم «الذين أُوتوا العلم» يتّضح شمول الآيه لكلّ العلماء والمفكّرين فى كلّ عصر وزمان ومكان.

۱- سبأ: ۶.

وإذا فُسّرت بكونها إشاره إلى «أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه الصلاه والسلام»، كما فى تفسير على بن إبراهيم، فإنّ ذلك توضيح وإشاره إلى أتمّ وأكمل مصاديق الآيه.

نعم، فأى عالم موضوعى وغير متعصّب إذا تأمّل فى ما ورد فى هذا الكتاب السماوى، وتدبّر فى معارفه العميقه، وأحكامه المتينه، ونصائحه الحكيمه، ومواعظه المؤثّره فى الوجدان إلى قصصه التأريخيه المشعّه بالعِبره، وبحوثه العلميه الإعجازيه، فسيعلم بأنّها جميعاً دليل على حقّانيه هذه الآيات.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَت قَالُوا مَا هَـذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ)(۱).

تعود هذه الآيات لتُكمل البحث الذى تناولته الآيات السابقه حول المشركين الكفّار وأقوالهم يوم القيامه، فتتحدّث حول وضع هؤلاء فى الدنيا ومواقفهم عند سماعهم القرآن حتّى يتّضح أنّ مصيرهم الاُخروى المشؤوم إنّما هو نتاج تلك المواقف الخاطئه التى اتّخذوها إزاء آيات الله فى الدنيا.

تقول الآيه الكريمه الاُولى: (وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قالوا ما هذا إلاّ رجل يريد أن يصدّكم عمّا كان يعبد آباؤكم).

فهذا أوّل ردّ فعل لهم إزاء «الآيات البيّنات» وهو السعى إلى تحريك حسّ العصبيه فى هؤلاء القوم المتعصّبين.

خاصّه مع ملاحظه استخدامهم تعبير «آباؤكم» بدل «آباؤنا»، يفهم منه أنّهم يريدون القول لقومهم بأنّ تراث الأجداد فى خطر، وإنّ عليكم النهوض والتصدّى

۱- سبأ: ۴۳.

لهذا الرجل عن العبث بذلك الميراث.

ثمّ تعبير (ما هذا إلاّ رجل) إنّما يقصد به تحقير النّبى من جهتين الأُولى كلمه «هذا» والثّانيه «رجل» بهيأه النكره، مع العلم بأنّهم يعرفون النّبى جيّداً، ويعلمون بأنّ له ماضياً مشرقاً.

من الجدير بالملاحظه أيضاً أنّ القرآن وصف «الآيات» بـ «البيّنات»، أى أنّها تحمل دلائل حقّانيتها معها، وما هو قابل للمعاينه لا يحتاج إلى توضيح أو بيان.

ثمّ توضّح الآيه مقولتهم الثّانيه التى قصدوا بها إبطال دعوه النّبى فتقول: (وقالوا ما هذا إلاّ إفك مفترى).

«إفك» كما ذكرنا سابقاً بمعنى كلّ مصروف عن وجهه الذى يحقّ أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادله عن المهابّ «مؤتفكه»، وأى صرف عن الحقّ فى الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق فى المقال إلى الكذب، ومن الجميل فى الفعل إلى القبيح. ولكن كما قال البعض، فإنّ «الإفك» يطلق على الأكاذيب الكبيره.

وكان يكفى استخدامهم لكلمه «الإفك» فى إتّهام الرّسول بالكذب، لكنّهم أرادوا تأكيد ذلك المعنى باستخدامهم لكلمه «مفترى»، دون أن يكون لهم أدنى دليل على ذلك الإدّعاء.

وأخيراً، كان الاتّهام الثالث الذى ألصقوه بالرّسول هو (السحر) كما نرى ذلك فى آخر هذه الآيه (وقال الذين كفروا للحقّ لمّا جاءهم إنّ هذا إلاّ سحر مبين).

محرِّفون آيات الحق

(لا يَأْتِيهِ الْبَطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيم حَمِيد)(۱).

۱- فصلت: ۴۲.

إنّه كتاب لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله أو أن يتغلب عليه، منطقه عظيم واستدلاله قوى، وتعبيره بليغ منسجم وعميق، تعليماته جذريه، وأحكامه متناسقه متوافقه مع الاحتياجات الواقعيه للبشر فى أبعاد الحياه المختلفه.

ثم تذكر الآيه صفه أُخرى مهمّه حول عظمه القرآن وحيويته، فيقول تعالى: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) لأنّه: (تنزيل من حكيم حميد).

أفعال الله عزوجل لا تكون إلّا وفق الحكمه وفى غايه الكمال. لذا فهو أهل للحمد، لقد ذكر المفسّرون عدّه احتمالات حول قوله تعالى: (لا يأتيه الباطل...) إلّا أن أشملها هو أنّ أى باطل لا يأتيه، من أى طريق كان، ومهما كان الأُسلوب، وهذا يعنى عدم وجود تناقض فى مفاهيمه، ولا ينقض بشىء من العلوم، أو بحقائق الكتب السابقه، ولا يعارض كذلك بالاكتشافات العلميه المستقبليه.

لا يستطيع أحد أن يبطل حقائقه، ولا يمكن أن ينسخ فى المستقبل.

لا يوجد أى تعارض فى معارفه وقوانينه ووصاياه وأخباره،، ولا يكون ذلك فى المستقبل أيضاً.

لم تصل إليه يد التحريف بزياده أو نقص فى آيه أو كلمه، ولن يطاله ذلك مستقبلا.

إنّ هذه الآيه تعبير آخر لمضمون الآيه (۹) من سوره «الحجر» حيث قوله تعالى: (إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون).

آيات الله وحقانيه القرآن والوحى

(تِلْكَ آيَتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيث بَعْدَ اللهِ وَآيَتِهِ يُؤْمِنُونَ)(۱).

۱- الجاثيه: ۶.

تشير هذه الايه إجمالاً للبحوث الماضيه، وتبياناً لعظمه آيات القرآن وأهميتها: (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق).

هـل أنّ كلمه «تلـك» إشـاره إلى آيات القرآن، أم إلى آيات الله والعلامات الـداله عليه فى الآفاق والأنفس، والتى مرّت الإشاره إليها فى الآيات السابقه؟

كـلٌّ محتمل، إلّا أنّ الظاهر هو أنّ المراد الآيات القرآنيه بقرينه التعبير بالتلاوه، غايه مافى الأمر أنّ هـذه الآيات القرآنيه آيات الله سبحانه فى كلّ عالم الوجود، وعلى هذا فيمكن الجمع بين التّفسيرين.

وعلى أيه حـال، فإنّ (التلاوه) من ماده (تلو) أى الإتيان بالكلام بعـد الكلام متعاقباً، وبناء على هـذا فإنّ تلاوه آيات القرآن تعنى قراءتها بصوره متواليه متعاقبه.

والتعبير بـالحق إشاره إلى محتوى هـذه الآيات، وهو أيضاً إشاره إلى كون نبوّه النّبى والوحى الإلـهى حقّاً. وبعباره أُخرى، فإنّ هذه الآيات بليغه معبره تضمنت فى طياتها الاستدلال على حقانيتها وحقانيه من جاء بها.

وحقّاً إذا لم يؤمن هؤلاء بهذه الآيات فبأى شىء سوف يؤمنون؟ ولذلك تعقب الآيه: (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون).

وعلى قول «الطبرسـى» فى مجمع البيان، فإنّ الحديث إشاره إلى قصص الأقوام الماضين، وأحداثهم التى تبعث على الاعتبار بهم، فى حين أنّ الآيات تقال للدلائل التى تميز الحق من الباطل والصحيح من السقيم، وآيات القرآن المجيد تتحدث عن الإثنين معاً.

حقّاً إنّ للقرآن الكريم محتوى عميقاً من ناحيه الاسـتدلال والبراهين على التوحيـد، وكذلك فهو يحتوى على مواعظ وإرشادات تجـذب العباد إلى الله سـبحانه حتى القلوب التى لها أدنى اسـتعداد ـ أو أرضـيه صالحه ـ، وتدعو كلّ مرتبط بالحق الى الطهاره والتقوى، فإذا لم تؤثر هذه الآيات البينات فى أحد فلا أمل فى هدايته بعد ذلك.

المباهله دليل قاطع على أحقيّه نبى الإسلام

(فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَ نِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)(۱).

إن قضيه المباهله بهذا الشكل لم تكن معروفه عند العرب، بل كانت أُسلوباً يبيّن صدق النبىّ وإيمانه بشكل قاطع. إذ كيف يمكن لمن لا يؤمن كلّ الإيمان بعلاقته بالله أن يدخل هذا الميدان، فيطلب من معارضيه ان يتقدّموا معه إلى الله يدعونه أن ينزل لعناته على الكاذب، وأن يروا سرعه ما يحلّ بالكاذب من عقاب؟! لاشكّ أنّ دخول هذا الميدان خطر جدّاً، لأن المبتهل إذا لم يجد استجابه لدعائه ولم يظهر أىّ أثر لعقاب الله على معارضيه، فلن تكون النتيجه سوى فضيحه المبتهل. فكيف يمكن لإنسان عاقل ومدرك أن يخطو مثل هذه الخطوه دون أن يكون مطمئناً إلى أنّ النتيجه فى صالحه؟ لهذا قيل إنّ دعوه رسول الله إلى المباهله تعتبر واحداً من الأدلّه على صدق دعوته وإيمانه الراسخ بها، بصرف النظر عن النتائج التى كانت ستكشف عنها المباهله.

تقول الروايات الإسلاميه: عند عرض هذا الاقتراح للمباهله، طلب ممثّلو مسيحيّى نجران من رسول الله أن يمهلهم بعض الوقت ليتبادلوا الرأى مع شيوخهم. فكان لهم ما أرادوا. وكانت نتيجه مشاورتهم ـ التى تعتمد على ناحيه نفسيه ـ هى أنّهم أمروا رجالهم بالدخول فى المباهله دون خوف إذا رأوا محمّداً قد حضر فى كثير من الناس ووسط جلبه وضوضاء، إذ أنّ هذا يعنى أنّه بهذا يريد بثّ الرعب والخوف فى النفوس وليس فى أمره حقيقه. أمّا إذا رأوه قادماً فى بضعه أنفار من أهله وصغار أطفاله إلى الموعد، فليعلموا أنّه نبىّ الله حقّاً، وليتجنّبوا مباهلته.

۱- آل عمران: ۶۱.

ولما حضر المسيحيّون إلى المكان المعيّن، ثمّ رأوا أنّ رسول الله أقبل يحمل الحسين على يد ويمسك الحسن باليد الأُخرى ومن خلفه على وفاطمه، وهو يطلب منهم أن يؤمّنوا على دعائه عند المباهله. وإذ رأى المسيحيّون هذا المشهد استولى عليهم الفزع، ورفضوا الدخول فى المباهله، وقبلوا التعامل معه بشروط أهل الذمّه.

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْر فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْء شَهِيدٌ * قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّمُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ الْبَطِلُ وَمَا يُعِيدُ)(۱).

إنّ الله تعالى أمر رسوله الكريم فى هذه السلسله من الآيات الكريمه أن يخاطب هؤلاء الضالّين ويقطع عليهم طريق الإعتذار من كلّ جانب.

حيث فى مطلع هذه الآيات، يتحدّث القرآن فى عدم مطالبه الرّسول بأى أجر مقابل تبليغ الرساله. تقول الآيه الأُولى: (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم، إن أجرى إلاّ على الله).

وذلك إشاره إلى أنّ العاقل حينما يتصرّف أى تصرّف يجب أن يكون لتصرفه باعث، فحينما يثبت لكم بأنّ لدى عقل كامل، وترون بأن ليس لى هدف مادّى، فيجب أن تعلموا بأنّ هناك دافعاً ومحرّكاً إلهياً ومعنوياً هو الذى دفعنى إلى ذلك التصرّف أو العمل.

كذلك فقد ورد هذا المعنى بصراحه أيضاً فى الآيه (۴۶) من سوره القلم (أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون).

أمّا ما هو تفسير جمله (فهو لكم)؟ فهناك تفسيران:

الأوّل: أنّ الجمله كنايه عن عدم المطالبه بأى أجر كما لو قلت «كلّ ما أردته منك

۱- سبأ: ۴۷-۴۹.

فهو لک» کنایه عن أنّک لا ترید شیئاً مطلقاً. والدلیل علی ذلک هو الجمله التالیه والتی تقول: (إن أجری إلاّ علی الله).

الثانی: إنّکم إن لاحظتم أنّی فی بعض ما أخبرتکم به عن الله سبحانه وتعالی، قلت لکم: (لا أسألکم علیه أجراً إلاّ المودّه فی القربی)(۱)، فهذا أیضاً یعود نفعه إلیکم، لأنّ مودّه ذی القربی ترتبط بمفهوم (الإمامه والولایه) و «استمرار خطّ النبوّه، الذی هو ضروری لإدامه هدایتکم.

الدلیل علی هذا القول هو ما ورد فی أسباب النّزول الذی نقله بعضهم هنا، ففی تفسیر روح البیان، ورد أنّه عند نزول الآیه (قل لا أسألکم علیه أجراً إلاّ المودّه فی القربی) قال رسول الله لمشرکی مکّه: «لا تؤذوا ذوی قربای» وهم قبلوا بهذا الطلب، ولکن عندما نال الرّسول الأکرم من أصنامهم، قالوا: إنّ محمّداً لم ینصفنا، فهو من جانب یدعونا لعدم التعرّض لذوی قرباه بالأذی، ولکنّه من جانب آخر یمسّ أربابنا بالأذی، وهنا نزلت الآیه موضوع بحثنا (قل ما سألتکم من أجر فهو لکم). فما أردته منکم بهذا الخصوص هو بنفعکم، سواء آذیتموهم أو لم تؤذوهم.

ثمّ تختم الآیه بالقول: (وهو علی کلّ شیء شهید). فإن کنت اُرید أجری من الله وحده فلأنّه وحده عالم بکلّ أعمالی ومطّلع علی نوایای. علاوهً علی أنّه هو سبحانه وتعالی شاهد صدقی وحقّانیه دعوتی، لأنّه هو سبحانه سخّر لی کلّ هذه المعجزات والآیات البیّنات، والحقّ أنّه سبحانه وتعالی نعم الشاهد، فهو الذی قد أحاط بکلّ شیء علماً وهو أفضل من یستطیع الأداء، ولا یصدر عنه إلاّ الحقّ وهو خیر الشاهدین. وهو الله سبحانه وتعالی.

۱- الشوری: ۲۳.

وبالالتفات إلى ما قيل حول حقّانيه دعوه الرّسول الأكرم ﷺ، تضيف الآيه التى بعدها قائله أنّ القرآن واقع غير قابل للإنكار لأنّه ملقى من الله سبحانه وتعالى على قلب الرّسول ﷺ: (قل إنّ ربّى يقذف بالحقّ علاّم الغيوب).

كلمه «يقذف» من مادّه (قذف) وهو الرمى البعيد، وثمّه تفسيرات متعدّده لهذه الآيه، يمكن جمعها مع بعضها البعض.

أوّلا: المقصود بـ «يقذف بالحقّ» هو الكتب السماويه والوحى الإلهى على قلوب الأنبياء والمرسلين، ولأنّه سبحانه وتعالى هو علاّم الغيوب، فهو يعلم بالقلوب المهيّأه، فينتخبها ويقذف الوحى فيها حتّى ينفذ إلى أعماقها.

وعلى ذلك فالمعنى شبيه بما ورد فى الحديث المعروف «العلم نور يقذفه الله فى قلب من يشاء». والتعبير بـ «علاّم الغيوب» يؤيّد هذا المعنى.

حقانيه القرآن وعناد اليهود

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَر مِّن شَىْء قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَبَ الَّذِى جَآءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلاَ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)(۱).

روى عن ابن عباس أنّ جمعاً من اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمّد أحقاً أنزل الله عليك كتاباً؟ فقال: نعم، فقالوا: قسماً بالله إنّه لم ينزل عليك كتاباً من السماء(۲).

لإتضاح الحقيقه يجب أن نتعرف أوّلاً على تفسير الآيه الإجمالى، ثمّ نبحث عمن تتحدث عنه الآيه، وعمّا تستهدفه.

۱- الأنعام: ۹۱.

۲- تفاسير مجمع البيان وأبى الفتوح الرازى والمنار فى تفسير الآيه.

فی البدایه تقول الآیه: إنّهم لم یعرفوا الله معرفه صحیحه وأنکروا نزول کتاب سماوی علی أحد: (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله علی بشر من شیء).

فیأمر الله رسوله أن (قل من أنزل الکتاب الذی جاء به موسی نوراً وهدی للناس).

ذلک الکتاب الذی جعلتموه صحائف متناثره، تظهرون منه ما ینفعکم وتخفون ما تظنونه یضرّکم: (تجعلونه فی قراطیس تبدونها وتخفون کثیراً).

إنّکم تتعلمون من هذا الکتاب السماوی أُموراً کثیره لم تکونوا أنتم ولا أباؤکم تعلمون عنها شیئاً: (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤکم).

وفی ختام الآیه یؤمر النّبی أن یذکر الله وأن یترک أُولئک فی أباطیلهم وعنادهم ولعبهم: (قل الله ثمّ ذرهم فی خوضهم یلعبون).

تقابل الحق فی شعیب والباطل فی قومه

(قَدِ افْتَرَیْنَا عَلَی اللهِ کَذِباً إِنْ عُدْنَا فِی مِلَّتِکُم بَعْدَ إِذْ نَجَّنَا اللهُ مِنْهَا وَمَا یَکُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِیهَآ إِلاَّ أَن یَشَآءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً عَلَی اللهِ تَوَکَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَیْنَنَا وَبَیْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَیْرُ الْفَتِحِینَ)(۱).

إن هذه الجمله هی توضیح للآیه السابقه المجمله، ومفهوم هذه الجمله هو: نحن لم نترک الوثنیه بدافع الهوی والهوس، بل أدرکنا بطلان هذه العقیده بجلاء، وسمعنا الأمر الإلهی فی التوحید بأُذن القلب، فإذا عدنا من عقیده التوحید إلی الشرک _ والحال هذه _ نکون حینئذ قد افترینا علی الله عن وعی وشعور، ومن المسلم أنّ الله سیعاقبنا علی ذلک بشده.

۱- الأعراف: ۸۹.

ثمّ يضيف شعيب قائلا: (وما يكون لنا أن نعود فيها إلاّ أن يشاء الله).

ومراد شعيب من هذا الكلام هو أنّنا تابعون لأمر الله، ولا نعصيه قيد شعره، فعودتنا غير ممكنه إلاّ إذا أمر الله بذلك.

ثمّ يضيف من دون إبطاء: إنّ الله يأمر بمثل هذا، لأنّ الله يعلم بكل شيء ويحط علماً بجميع الأُمور (وسع ربّنا كل شيء علماً) وعلى هذا الأساس ليس من الممكن أن يعود عن أمر أعطاه، لأنّه لا يعود ولا يرجع عن أمر أعطاه إلاّ من كان علمه محدوداً، واشتبه ثمّ ندم على أمره، أمّا الذى يعلم بكل شيء ويحيط بجميع الأُمور علماً فيستحيل أن يعيد النظر.

ثمّ لأجل أن يفهمهم بأنّه لا يخاف تهديداتهم، وأنّه ثابت فى موقفه، قال: (على الله توكلنا).

وأخيراً لأجل أن يثبت حسن نيّته، ويظهر رغبته فى طلب الحقيقه والسلام، حتى لا يتهمه أعداؤه بالشغب والفوضويه والإخلال بالأمن يقول: (ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين).

أى: يا ربّ أنت أحكم بيننا وبين هؤلاء بالحق، وارفع المشاكل التى بيننا وبين هؤلاء، وافتح علينا أبواب رحمتك، فأنت خير الفاتحين.

والفتح كما روى عن ابن عباس بعدما سمع امرأه تقول لزوجها: أفاتحك عند القاضى، (لأن القاضى يفتح العقده فى مشكله الطرفين)(۱).

فى حين أنّ أحداً من النّبيين لم يكن وثنياً حتى قبل زمان النّبوه، وإنّ عقول الأنبياء ودرايتهم كانت أسمى من أن يرتكبوا مثل هذا العمل غير المعقول والسخيف، هذا مضافاً إلى أنّ هذا الخطاب لم يكن موجهاً إلى شعيب وحده، بل يشمل المؤمنين من أتباعه _ أيضاً _ ويمكن أن يكون هذا الخطاب لهم.

۱- تفسير منهج الصادقين، تفسير الآيه.

على أن تهديد المعارضين لم يقتصر على هذا، بل كانت هناك تهديدات أُخرى موجوده فى محلِّها.

وقد أجابهم شعيب فى مقابل كل تهديداتهم وخشونتهم تلك بكلمات فى غايه البساطه والرفق والموضوعيه، إذ قال لهم: وهل فى إمكانكم أن تعيدوننا إلى دينكم إذا لم نكن راغبين فى ذلك: (قال أو لو كنّا كارهين)(۱)؟

وفى الحقيقه يريد شعيب أن يقول لهم: هل من العدل أن تفرضوا عقيدتكم علينا، وتكرهوننا على أن نعتنق ديناً ظهر لنا بطلانه وفساده؟ هذا مضافاً إلى أنّه ما جدوى عقيده مفروضه، ودين جبرىّ؟!

وفى الآيه اللاحقه يواصل شعيب قوله: (قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها).

إن هذه الجمله فى الحقيقه توضيح للجمله السابقه المجمله، ومفهوم هذه الجمله هو: نحن لم نترك الوثنيه بدافع الهوى والهوس، بل أدركنا بطلان هذه العقيده بجلاء، وسمعنا الأمر الإلهى فى التوحيد بأُذن القلب، فإذا عدنا من عقيده التوحيد إلى الشرك ـ والحال هذه ـ نكون حينئذ قد افترينا على الله عن وعى وشعور، ومن المسلم أنّ الله سيعاقبنا على ذلك بشده.

ثمّ يضيف شعيب قائلا: (وما يكون لنا أن نعود فيها إلاّ أن يشاء الله).

ومراد شعيب من هذا الكلام هو أنّنا تابعون لأمر الله، ولا نعصيه قيد شعره، فعودتنا غير ممكنه إلاّ إذا أمر الله بذلك.

۱- إنّ فى هذه الجمله حذفاً وتقديراً، فالكلام فى الأصل على هذه الصوره «أتردوننا فى ملتكم ولو كنّا كارهين».

المواجهه بين الحق المتمثل بموسى وبين الباطل المتمثل بفرعون

(وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إنّى رَسُولٌ مّن رّبّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَن لاّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إلاّ الْحَقّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيّنَهٍ مّن رّبّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إسْرَائِيلَ)(۱).

إنّ تعبير موسى هذا، كان يمثل جرس إنذار وناقوس خطر بالنسبه لفرعون. هذا مضافاً إلى أن عباره موسى (إنّى رَسُولٌ مّن رّبّ الْعَالَمِينَ) كانت - فى الحقيقه - نوعاً من إعلان الحرب والمواجهه على جميع تشكيلات فرعون، لأنّ هذا التعبير يُثبت أن فرعون ونظراءه من أدعياء الربوبيه يكذبون جميعاً فى ادعائهم، وأنّ ربَّ العالمين هو الله فقط، لا فرعون ولا غيره من البشر.

وفى الآيه اللاحقه نَقرأ أن موسى عقيب دعوى الرساله من جانب الله قال: فالآن إذ أنَا رسول رب العالمين ينبغى ألا أقول عن الله إلا الحق، لأن المرسل من قبل الله المنزه عن جميع العيوب لا يمكن أن يكون كاذبا (حَقِيقٌ عَلَى أَن لاّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إلاّ الْحَقّ).

ثم لأجل توثيق دعواه للنبوه، أضاف: أنا لا أدعى ما أدّعيه من دون دليل، بل إنّ معى أدله واضحه من جانب الله (قَدْ جِئْتُكُم بِبَيّنَهٍ مّن رّبّكُمْ) فإذا كان الأمر هكذا (فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إسْرَائِيلَ).

وكان هذا فى الحقيقه قسماً من رساله موسى بن عمران الذى حرّر بنى إسرائيل من قبضه الاستعمار الفرعونى، ووضع عنهم إصرهم وأغلال العبوديه التى كانت تكبل أيديهم وأرجلهم، لأن بنى إسرائيل كانوا فى ذلك الزمان عبيداً أذلاء بأيدى القبطيين (أهالى مصر) فكانوا يستفيدون منهم فى القيام بالأعمال السافله والصعبه والثقيله.

۱- الأعراف: ۱۰۴ و ۱۰۵.

ویستفاد من هذه الآیات - وکذا الآیات القرآنیه الأخری بوضوح وجلاء أنّ موسی کان مکلفاً بدعوه فرعون وغیره من سکان أرض مصر إلی دینه، یعنی أن رسالته لم تکن منحصره فی بنی إسرائیل.

فقال فرعون بمجرد سماع هذه العباره - (أی قوله: قد جئتکم ببینه) - هات الآیه التی معک من جانب الله إن کنت صادقاً (قَالَ إِن کُنتَ جِئْتَ بِآیَهٍ فَأْتِ بِهَا إِن کُنتَ مِنَ الصَّادِقِینَ).

وبهذه العباره اتخذ فرعون - ضمن إظهار التشکیک فی صدق موسی - هیئه الطالب للحق المتحری للحقیقه ظاهراً، کما یفعل أیّ متحر للحقیقه باحث عن الحق.

ومن دون تأخیر أخرج موسی معجزتیه العظمیتین التی کانت إحداهما مظهر «الخوف» والأخری مظهر «الأمل» وکانتا تکملان مقام إنذاره ومقام تبشیره، وألقی فی البدایه عصاه: (فَأَلْقَی عَصَاهُ فَإِذَا هِیَ ثُعْبَانٌ مُّبِینٌ).

والتعبیر ب_«المبین» إشاره إلی أن تلک العصا التی تبدلت إلی ثعبان حقاً، ولم یکن سحراً وشعبذه وما شاکل ذلک، علی العکس من فعل السحره لأنّه یقول فی شأنهم: إنّهم مارسوا الشعبذه والسحر، وعملوا ما تصوره الناس حیّاتٍ تتحرک، وما هی بحیّات حقیقه وواقعاً.

إن ذکر هذه النقطه أمر ضروری، وهی أننا نقرأ فی الآیه (۱۰) من سوره النمل، والآیه (۳۱) من سوره القصص، أن العصا تحرکت کالجان، و «الجان» هی الحیات الصغیره السریعه السیر، وإنّ هذا التعبیر لا ینسجم مع عباره «ثعبان» التی تعنی الحیه العظیمه ظاهراً.

ولکن مع الالتفات إلی أنّ تینک الآیتین ترتبطان ببدایه بعثه موسی ، والآیه المبحوث عنها ترتبط بحین مواجهه موسی لفرعون، تنحل المشکله، وکأن الله أراد أن یُوقف موسی علی هذه المعجزه العظیمه تدریجاً فهی تظهر فی البدایه أصغر، وفی الموقف اللاحق تظهر أعظم.

انتصار الحق على الباطل فى النهايه

(وَجَاء السّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرّبِينَ * قَالُواْ يَا مُوسَى إِمّا أَن تُلْقِيَ وَإِمّا أَن نّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)(۱).

فى هذه الآيه التى جرى الحديث حول المواجهه بين النبى موسى ، وبين السحره، وما آل إليه أمرهم فى هذه المواجهه، وفى البدايه تقول الآيه: إن السحره بادروا إلى فرعون بدعوته، وكان أول ما دار بينهم وبين فرعون هو: هل لنا من أجر إذا غلبنا العدو (وَجَاء السّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)؟!

وكلمه «الأجر» وإن كانت تعنى أى نوعٍ من أنواع الثواب، ولكن نظراً إلى ورودها هنا فى صوره «النكره فى هذه الموارد إنما تكون لتعظيم الموضوع وإبراز أهميته بسبب إخفاء ماهيته ونوعيته» لهذا يكون الأجر هنا بمعنى الأجر المهم والعظيم وبخاصه أنّه لم يكن ثمه نزاع فى أصل استحقاقهم للأجر والمثوبه، فوعدهم فرعون - فوراً - وعداً جيدا وقال: إنّكم لن تحصلوا على الأجر السخى فقط، بل ستكونون من المقربين عندى (قَالَ نَعَمْ وَإِنّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرّبِينَ) وقال تعالى: (وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)(۲). فى هذه الآيه قال موسى لهؤلاء: إن النصر والغلب لنا فى هذه المبارزه حتماً، لأنّ الله سبحانه قد وعد أن يظهر الحق بواسطه المنطق القاطع، ومعجزات انبيائه القاهره ويفضح ويخزى المفسدين واهل الباطل وإن كره المجرمون ذلك.

۱- الأعراف: ۱۱۳، ۱۱۸.

۲- يونس: ۸۲.

ثم حُـدّدَ موعـد معين لمواجهه السـحره لموسـى، وكما جاء فى سوره (طه) و (الشـعراء) ودُعى جميع الناس لمشاهده هذا النزال، وهذا يدل على أن فرعون كان مؤمنا بانتصاره على موسى .

وكان كل الناس مؤيديهم وكان السـحره فى غرور خاص وكبرياء وكان موسى بمنتهى الثقه والاطمئنان فحصل ما حصل وانتصر الحق المتمثل بموسـى وانهزم الباطل المتمثل بفرعون واسلم السحره لرب موسى اما الدروس المستخلصه من هذه القصه (قصه موسى وفرعون) هى:

أولاً: ان الله سـبحانه وتعـالى عنـدما يبعث نبياً أو رسولاً يمـدّه بمعجزه مألوفه عنـد المجتمع الـذى بُعث فيه من جنس الأمور التى يسـتخدمونها فالسـحر كـان آنـذاك رائجاً فى المجتمع الفرعونى والحبال والعصـى تظهر وكأنها حيّات فى أعين الناس كـذلك معجزه عصا موسى انقلبت ثعبان وحصل ما حصل.

۲- إنّ أنبياء الله ورسله لديهم التوكل على الله باعلى درجاته مقابل التوكل على القوه البشريه الضعيفه قبال قوه الله فموسى كان متوكلاً على الله فى أقصى درجات التوكل بينما السحره وفرعون متوكلين على قوه السحر والشعبذه التى هى سلاحهم.

۳- إن اصـحاب الحق والـدعاه إليه دائمـاً بسـطاء ومتواضـعين كمـا هو الحـال بالنسـبه لموسـى امـا دعـاه الباطـل واصـحابه دائماً مستكبرين ومغرورين كما هو الحال بالنسبه لفرعون وسحرته.

۴- دعاه الحق وأصـحاب الرساله لا يتعاملون بالأمور الماديه وانما أداء الوظيفه والتكليف الشـرعى كما هو الحال بالنسـبه لموسى .

اما أصحاب الباطل والدعاه إليه يتعاملون بالأمور الماديه والمنافع الشخصيه (قَالُواْ إِنّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ).

عوده موسی إلی حضن أمّه

(فَرَدَدْنَهُ إلی أُمِّهِ کَیْ تَقَرَّ عَیْنُها وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاَ یَعْلَمُونَ)(۱).

وتم کل شیء بأمر الله، وهنا ینقدح سؤال مهم وهو: هل أودع آل فرعون الطفل «موسی» عند أُمّه لترضعه وتأتی به کل حین ـ أو کل یوم ـ إلی قصر فرعون لتراه امرأه فرعون؟!

أم أنّهم أودعوا موسی فی القصر وطلبوا من المرضع «أم موسی» أن تأتی بین فترات متناسبه إلی القصر لترضعه؟!

لا یوجد دلیلٌ قوی لأیٍّ من الاحتمالین، إلّا أن الاحتمال الأوّل أقرب للنظر کما یبدو!

وهناک سؤال آخر أیضاً، وهو: هل انتقل موسی إلی قصر فرعون بعد إکماله فتره الرضاعه، أم أنّه حافظ علی علاقته بأُمّه وعائلته وکان یتردد ما بین القصر وبیته؟!

قال بعضهم: أودع موسی بعد فتره الرضاعه عند فرعون وامرأته، وتربی موسی عندهما، تنقل فی هذا الصدد قصص عریضه حول موسی وفرعون، ولکن هذه العباره التی قالها فرعون لموسی بعد بعثته (ألم نربّک فینا ولیداً ولبثت فینا من عمرک سنین)(۲)؟! تدل بوضوح علی أن موسی عاش فی قصر فرعون مده، بل مکث هناک سنین طویله.

ویستفاد من تفسیر علی بن إبراهیم أن موسیر بقی مع کمال الاحترام فی قصر فرعون حتی مرحله البلوغ، إلّا أنّ کلامه عن توحید الله أزعج فرعون بشده إلی درجه

۱- القصص: ۱۳.

۲- الشعراء: ۱۸.

أنّه صمّم على قتله، فترك موسى القصر ودخل المدينه فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما من الأقباط والآخر من الأسباط، فواجه النزاع بنفسه.

(فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَـذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ * قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَـذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)(۱).

تتحدث هذه الآيه عن مراحل مواجهه الفراعنه لموسى وأخيه هارون، وأوّل تلك المراحل هى مرحله الإنكار والتكذيب والافتراء واتهامهما بسوء النيه، وابطال سنن الأجداد، والإخلال بالنظام الإجتماعى، كما يقول القرآن: (فلمّا جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين).

إنّ جاذبيه دعوه موسى الخارقه من جهه، ومعجزاته الباهره من جهه أُخرى، وتزايد نفوذه بصوره محيره من جهه ثالثه، دفعت الفراعنه إلى التفكير فى حل لهذه المسأله، فلم يجدوا وسيله أفضل من رميه بالسحر، فأعلنوا أنّه ساحر وأنّ عمله سحر ليس إلّا، وهذه التهمه سائده فى جميع مراحل الأنبياء وعلى طول تاريخهم، خاصّه نبى الإسلام .

إلّا أنّ موسى نهض للدفاع عن نفسه، فأزاح الستار وأوضح كذب هؤلاء وأبطل تهمتهم، ففى البدايه: (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا).

صحيح أنّ لكلّ من السحر والمعجزه نفوذاً وتأثيراً، وأن من الممكن أن يؤثر الحق والباطل على ادراكات الناس ونفسياتهم، إلّا أن السحر الذى هو أمر باطل يتميز تماماً عن المعجزه التى هى حق، إذا لايمكن المقارنه بين نفوذ الأنبياء ونفوذ السحره، فإنّ أعمال السحره تفتقد الى الهدفيه ومحدوده ولاقيمه لها، ومعجزات الأنبياء لها أهداف إصلاحيه وتغييريه وتربويه واضحه، وتعرض بشكل واسع وغير محدود. إضافه إلى

۱- يونس: ۷۶-۷۷.

أنّه: (ولا يفلح الساحرون) وهذا التعبير دليل آخر على امتياز عمل الأنبياء عن السحر. ففى الدليل السابق أثبت اختلاف السحر والمعجزه ووجه وهدف الإثنين وافتراق أحدهما عن الآخر، أمّا هنا فإنّ الدليل يستعين لإثبات المطلب باختلاف حالات السحره وأصحاب المعاجز.

(فَلَمَّا جَآءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُواْ اقْتُلُواْ أَبْنَآءَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ وَاسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَفِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلَل)(۱).

هذه الآيه تتعرض إلى بعض مخططات هؤلاء الظلمه فى مقابل دعوه النّبى موسى وما نستفيده من الآيه هو أنّ قضيه قتل الأبناء والإبقاء على النساء فقط لم يقتصر ـ كأُسلوب طاغوتى ـ على الفتره التى سبقت ولاده موسى فحسب، وإنّما تمّ تكرار هذه الممارسه أثناء نبوه موسى ، فالآيه (۱۲۹) من سوره الأعراف تؤيد هذا الرأى، حيث تحكى على لسان بنى إسرائيل قولهم لموسى : (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا).

لقد صدر هذا القول عن بنى إسرائيل بعد أن قام فرعون بقتل أبناء المؤمنين منهم بدعوه موسى .

وفى كلّ الأحوال، يعبّر هذا الأُسلوب عن واحده من الممارسات والخطط المشؤومه الدائمه للقدرات الشيطانيه الظالمه التى تستهدف إباده وتعطيل الطاقات الفعّاله، وترك غير الفاعلين للإفاده منهم فى خدمه النظام.

لقد كان «بنو إسرائيل» قبل موسى عبيداً للفراعنه، لذلك لم يكن من العجيب أن تبادر سلطات فرعون بعد بعثه موسى وشيوع دعوته إلى اعتماد الخطه المعاديه فى قتل الأبناء واستحياء النساء، بهدف الانتقام والإباده الشديده لبنى إسرائيل كى تتعطل فيهم عوامل الصمود والمقاومه.

۱- غافر: ۲۵.

ولکن ما هی نتیجه کلّ هذا الکید؟

القرآن یجیب: (وما کید الکافرین إلّا فی ضلال).

أعمالهم سهام تطلق فی ظلام الجهل و الضلال فلا تصیب سوی الحجاره! لقد قضی الله تعالی بمشیئته أن ینتصر الحق وأهله، وأن یزهق الباطل وأنصاره.

لقد اشتد الصراع بین موسی وأصحابه من جانب، وبین فرعون وأنصاره من جانب آخر. قرّر فرعون قتل موسی لکن إراده ومشیئه الله حالت دون إراده ومشیئه فرعون فانتصر الحق واندحر الباطل.

إذا کانت هذه الآیه قد نزلت فی المدینه وکان الیهود هم المعنیین بها، یکون المعنی أنّ جمعاً من الیهود کانوا ینکرون نزول کتاب سماوی علی الأنبیاء.

ولکن هل یمکن أن ینکر الیهود ـ اتباع التّوراه ـ نزول کتاب سماوی؟ نعم، لو أمعنا النظر فی العهد الجدید (الأنجیل) والعهد القدیم (التّوراه والکتب الملحقه بها) نجد أنّ کل هذه الکتب تفتقر إلی المسحه السماویه، أی أنّها لیست خطاباً موجهاً من الله إلی البشر، بل إنّها مقولات وردت علی ألسنه تلامذه موسی والمسیح وأتباعهما علی شکل سرد لحوادث تاریخیه وسیر، والظاهر أنّ الیهود والمسیحیین الیوم لا ینکرون ذلک، إذ أنّ حکایه موت موسی وعیسی وحوادث کثیره أُخری وقعت بعدهما وردت فی هذه الکتب، لا- باعتبارها تنبؤات عن المستقبل، بل سرداً لحوادث ماضیه، فهل یمکن لکتب مثل هذه أن تکون قد نزلت علی موسی وعیسی؟!

کل ما فی الأمر أنّ المسیحیین والیهود یعتقدون أنّ هذه الکتب قد کتبت بأیدی أُناس عندهم أخبار عن الوحی، فاعتبروها کتباً مقدسه خالیه من الخطأ ویمکن الاعتماد علیها.

أمّا إذا کانت الآیه کسائر آیات هذه السّوره تخصّ المشرکین، فیکون المعنی أنّهم أنکروا نزول أی کتاب سماوی لانکار ونفی دعوه النّبی ، ولکن الله یبیّن لهم

منطقياً أنّهم لا يستطيعون إنكار ذلك كلياً بالنظر لنزول التّوراه على موسى، وأنّ المشركين ـ وإن لم يدينوا بدين اليهود ـ كانوا يعتبرون الأنبياء السابقين وإبراهيم ـ وموسى أيضاً على أقوى احتمال ـ أنبياء فى عصورهم وأقاليمهم، لذلك فهم عند ظهور نبى الإسلام لجأوا إلى أهل الكتاب يبحثون عندهم فى كتبهم عن إمارات ودلائل تتنبأ بظهور هذا النّبى.

حقانيه النبى عيسى وبطلان شك المشككين

(ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهَ يَمْتَرُونَ)(۱).

بعد تجسيد القرآن الكريم فى الآيات السابقه حادثه ولاده المسيح بصوره حيه وواضحه جدّاً، انتقل إلى نفى الخرافات وكلمات الشرك التى قالوها فى شأن عيسى، فيقول: (ذلك عيسى بن مريم) خاصّه وأنّه يؤكّد على كونه «ابن مريم» ليكون ذلك مقدمه لنفى بنوته لله سبحانه.

ثمّ يضيف: (قول الحق الذى فيه يمترون)(۲) وهذه العباره فى الحقيقه تأكيد على صحه جميع ما ذكرته الآيات السابقه فى حق عيسى ولا يوجد أدنى ريب فى ذلك.

أمّا ما يذكره القرآن من أنّ هؤلاء فى شك وتردد من هذه المسأله، فربّما كان إشاره إلى أنصار وأعداء المسيح ، وبتعبير آخر: إشاره إلى اليهود والنصارى، فمن جهه شككت جماعه ضاله بطهاره أُمّه وعفتها، ومن جهه أُخرى شك قوم فى كونه إنساناً،

۱- مريم: ۳۴.

۲- لقد بحث المفسّرون فى تركيب هذه الجمله كثيراً، إلّا أن أصحها على ما يبدو، من الناحيه الأدبيه، وبملاحظه الآيات السابقه، هو أنّ «قول الحق» مفعول لفعل محذوف، و (الذى فيه يمترون) صفه له، وكان التقدير هكذا: أقول قو الحق الذى فيه يمترون.

حتی أنّ هـذه الفئه قـد انقسـمت إلی مذاهب متعدده، فالبعض اعتقد بصـراحه أنّه ابن الله ـ الابن الروحی والجسـمی الحقیقی لا المجازی! ـ ومن ثمّ نشأت مسأله التثلیث والأقانیم الثلاثه.

والبعض اعتبر مسأله التثلیث غیر مفهومه وواضـحه من الناحیه العقلیه، واعتقـدوا بوجوب قبولها تعبداً، والبعض الآخر تخبط بکلام لاـ أساس له فی سبیل توجیه المسأله منطقیاً. والخلاصه: فإنّ هؤلاء جمیعاً لما لم یروا الحقیقه ـ أو أنّهم لم یطلبوها ولم یریـدوها ـ سلکوا طریق الخرافات والأساطیر!

داود وحکم الحقّ

(إِذْ دَخَلُوا عَلَی دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْـمَانِ بَغَی بَعْضُـنَا عَلَی بَعْض فَاحْکُم بَیْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْـطِطْ وَاهْـدِنَآ إِلَی سَوَآءِ الصِّرَاطِ)(۱). رغم أنّ داود کان محاطاً بأعـداد کبیره من الجند والحرس، إلاّ أنّ طرفی النزاع تمکّنا ـ من طریق غیر مألوف ـ تسوّر جدران المحراب، والظهور أمام داود فجأهً، ففزع عند رؤیتهما، إذ دخلا علیه بدون استئذان ومن دون إعلام مسبق، وظنّ داود أنّهم یکنّون له السوء، (إذ دخلوا علی داود ففزع منهم).

إلاّـ أنّهمـا عمـدا بسـرعه إلی تطییب نفسه وإسـکان روعه، وقالاـ له: لا تخف نحن متخاصـمان تجاوز أحـدنا علی الآخر (قالوا لا تخف خصمان بغی بعضنا علی بعض).

فاحکم الآن بیننا ولا تتحیّز فی حکمک وأرشدنا إلی الطریق الصحیح (فاحکم بیننا بالحقّ ولا تشطط واهدنا إلی سواء الصراط).

«تشطط» مشتقّه من (شطط) علی وزن (فقط)، وتعنی البعید جدّاً، ولکون الظلم

۱- ص: ۲۲.

والطغيان يبعدان الإنسان كثيراً عن الحقّ، فكلمه (شطط) تعنى الابتعاد عن الحقّ، كما تطلق على الكلام البعيد عن الحقيقه.

من المسلّم به أنّ قلق وروع «داود» قلّ بعض الشىء عندما وضّح الأخوان هدف مجيئهما إليه، ولكن بقى هناك سؤال واحد فى ذهنه هو، إذا كنتما لا تكنّان السوء، فما هو الهدف من ميجئكما إلىّ عن طريق غير مألوف؟

ولذلك تقدّم أحدهما وطرح المشكله على داود، وقال: هذا أخى، يمتلك (۹۹) نعجه، وأنا لا أمتلك إلّا نعجه واحده، وإنّه يصرّ علىّ أن أعطيه نعجتى ليضمّها إلى بقيّه نعاجه، وقد شدّد علىّ فى القول وأغلظ (إنّ هذا أخى له تسع وتسعون نعجه ولى نعجه واحده فقال اكفلنيها وعزّنى فى الخطاب).

يقول العلّامه الطباطبائى فى تفسير الميزان (وأكثر المفسّرين تبعاً للروايات إنّ هؤلاء الخصم الداخلين على داود كانوا ملائكه أرسلهم الله سبحانه إليه ليمتحنه، وستعرف حال الروايات لكن خصوصيات القصّه كتسوّرهم المحراب ودخولهم عليه دخولا غير عادى بحيث أفزعوه، وكذا تنبّهه بأنّه إنّما كان فتنه من الله له وليس واقعه عاديه، وقوله تعالى بعد: (فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوى) الظاهر فى أنّ الله إبتلاه بما ابتلى ليتنبّهه ويسدّده فى خلافته وحكمه بين الناس، كلّ ذلك يؤيّد كونهم من الملائكه وقد تمثّلوا فى صوره رجال من الإنس.

(والمقصود من التمثّل هو عدم وجود هؤلاء الأشخاص واقعاً وفى الخارج، بل أنّ ذلك إنعكس فى ذهن داود وفى إدراكه).

ثم خاطبه الله بلهجه حازمه وبعبارات مفعمه بالمعانى، شارحه له وظائفه ومسؤولياته الجسيمه بعد أن وضحت مقامه الرفيع، إذ تقول: (يا داود إنّا جعلناك خليفه فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم القيامه).

وفى واقع الأمر فإنّ إحدى ثمار خلافه الله هى ظهور حكومه تحكّم بالحقّ، ومن هذه الجمله يمكن القول أنّ حكومه الحقّ تنشأ _ فقط _ عن خلافه الله، وأنّها النتيجه المباشره لها.

ثم ان جمله (ولا تتبع الهوى) تشير إلى أهمّ خطر يهدّد الحاكم العادل، ألا وهو اتّباع هوى النفس.

نعم، فهوى النفس ستار سميك يغطّى بصيره الإنسان، ويباعد بينه وبين العداله.

لهذا فإنّ الجمله الرابعه تقول: (فيضلّك عن سبيل الله).

القسم الثالث: الآیات التی تبحث فی حقانیه المبدأ والمعاد والجنه والنار والحساب والعقاب مقابل بطلان المنکرین

اشاره

هنا نذكر الآيات التى تبيّن حقانيه المعاد:

(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّت تَجْرِى مِن تَحتِهَا الأَنهَرُ خَلِدِينَ فِيهَآ أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا)(۱).

تبين هذه الآيه الكريمه مقابل أولئك أصحاب الباطل المتمثل فى الشيطان فى النهايه أعمال المؤمنين والثواب الذى سينالونه يوم القيامه، من جنأت وبساتين وأنهار تجرى فيها، حيث تقول الآيه (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّت تَجْرِى مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ).

إنّ هذه النعمه العظيمه دائمه أبداً، تؤكّد هذه بعباره (خالدين فيها أبداً).

وإنّ هذا الوعد وعد صادق وليس كوعود الشيطان الزّائفه، حيت تقول الآيه: (وعد الله حقّاً).

وبديهى أنّ أى فرد لا يستطيع _ أبداً _ أن يكون أصدق قولا من الله العزيز القدير فى وعوده وفى كلامه، كما تقول الآيه: (ومن أصدق من الله قيلا).

وطبيعى أنّ عدم الوفاء بالوعد ناتج إمّا عن العجز وإمّا الجهل والحاجه، والله سبحانه وتعالى منزه عن هذه الصفات السلبيه، فهو قوى قدير عالم بجميع الامور غنىّ عن الجميع والجميع فقير إليه سبحانه، لذلك فهو فى وعوده وعهوده لا يتخلف فى ذلك قيد انمله كما هو الحال بالنسبه للمخلوقين.

۱- النساء: ۱۲۲.

حقانیه المعاد

(وَهُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّمَوَتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَیَوْمَ یَقُولُ کُن فَیَکُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْکُ یَوْمَ یُنفَخُ فِی الصُّورِ عَلِمُ الْغَیْبِ وَالشَّهَدَهِ وَهُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ)(۱).

هذه الآیه دلیل علی ما جاء فی الآیه السابقه، وعلی ضروره التسلیم لله وإتّباع رسوله، لذلک تقول: (هو الذی خلق السموات والأرض بالحق).

إنّ مبدأ عالم الوجود هو وحده الجدیر بالعباده، وهو وحده الذی یجب الخضوع والتسلیم له، لأنّه خلق الأشیاء لمقاصد حقّه.

المقصود من (الحق) فی الآیه هو الأهداف والنتائج والمنافع والحکم، أی أنّ کل مخلوق قد خلق لهدف وغایه ومصلحه، وهذه الآیه تشبه الموضوع الذی تتناوله الآیه (۷۷) من سوره ص التی جاء فیها: (وما خلقنا السماء والأرض وما بینهما باطلاً).

ثمّ یقول: إنّه فضلا عن کونه مبدع عالم الوجود، فان یوم القیامه أیضاً یقوم بأمره، وإذا ما أصدر أمره بقیام ذلک الیوم فإنّه یتحقق فوراً: (ویوم یقول کن فیکون)(۲).

یحتمل بعضهم أنّ هذه العباره تشیر إلی مبدأ الخلق وإیجاد عالم الوجود، حیث خلق کل شیء بأمر الله، ولکن بالنظر لأنّ الفعل «یقول» مضارع، وهناک قبل هذه الآیه إشاره إلی أصل الخلق، وکذلک بالرجوع إلی الآیات التّالیه، یمکن القول بأنّ هذه العباره تخص البعث ویوم القیامه.

سبق فی تفسیر الآیه (۱۱۷) من سوره البقره فی المجلد الأوّل أن قلنا إنّ (کن فیکون) لا تعنی إصدار أمر لفظی لشیء أن یکون فیکون، بل تعنی إنّه إذا شاء خلق

۱- الأنعام: ۷۳.

۲- اختلف المفسّرون فی متعلق الظرف «یوم»، فبعض یعلقه بجمله «خلق»وبعض یعلقه بجمله «اذکروا» المحذوفه، ولکن لا یستبعد أن یکون متعلقاً بجمله «یکون» فیصبح المعنی: یکون یوم القیامه یوم یقول له کن.

شیء، فإنّ إرادته تتحقق دون حاجه الی وجود أی عامل آخر، فإذا شاء أن یتحقق الشیء فهو یتحقق فوراً. وإذا شاء أن یتحقق تدریجیاً فإنّ خطّه تحققه التدریجی تبدأ.

ثمّ یضیف: أنّ ما یقوله الله هو الحق، أی أنّه مثلما کان مبدأ الخلق ذا أهداف ونتائج ومصالح، کذلک سیکون یوم القیامه: (قوله الحق).

وفی ذلک الیوم الذی ینفخ فیه فی صور ویبعث الناس یوم القیامه، یکون الحکم والملک لله: (وله الملک یوم ینفخ فی الصور).

إنّ حکومه الله علی عالم الوجود ومالکیته له قائمتان منذ بدایه الخلق حتی نهایته وفی یوم القیامه، ولا یختص ذلک بیوم القیامه وحده، لکن هناک عوامل وأسباباً تؤثر فی مسار هذه الدنیا وتقدمها نحو أهدافها، لذلک قد یغفل الإنسان أحیاناً عن وجود الله وراء هذه الأسباب والعوامل، أمّا فی ذلک الیوم الذی تتعطل فیه جمیع الأسباب والعوامل، فإنّ حکومه الله ومالکیته تکونان أجلی وأوضح من أی وقت سابق، کما جاء فی آیه أُخری: (لمن الملک الیوم لله الواحد القهار)(۱).

أما فیما یتعلق بماهیه «الصور» وکیف ینفخ فیه إسرافیل فتموت الأحیاء، ثمّ یعید النفخ فی الصور فیعود الجمیع إلی الحیاه ویبدأ یوم القیامه.

وفی ختام الآیه إشاره إلی ثلاث من صفات الله تعالی، فهو: (عالم الغیب والشهاده وهو الحکیم الخبیر).

ترد هذه الصفات غالباً فی الآیات التی تخص یوم القیامه، أی أنّه بمقتضی صفه العلم المطلق عالم بأعمال عباده، وبمقتضی قدرته وحکمته یجازی کلا بما یستحقه.

هناک تبلو کلُّ نفس ما أسلفت، وردّوا إلی الله مولاهم الحق، وضل عنهم ما کانوا یفترون»(۲).

۱- غافر: ۱۶.

۲- یونس: ۳۰.

وفی ذلک الیوم سیرجع الجمیع إلی الله مولاهم الحقیقی، ومحکمه المحشر تبیّن أن الحکم لایتم إلاّ بأمره (وردوا إلی الله مولاهم الحق).

وأخیراً فإنّ جمیع هذه الأصنام والمعبودات المختلقه التی جعلها هؤلاء شریکه لله کذباً ستفنی وتمحی: (وضل عنهم ماکانوا یفترون) فإنّ القیامه ساحه ظهور کل الأسرار الخفیه للعباد، ولا تبقی أیه حقیقه إلاّ وتُظهر نفسها. ومن الطبیعی أنّ هناک مواقف ومقامات لا تحتاج إلی سؤال أو جدال وبحث، بل إنّ الحال یحکی عن کل شیء، ولا حاجه للمقال.

الکافرون علی أعتاب القیامه

(وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِیَ شَخِصَهٌ أَبْصَرُ الَّذِینَ کَفَرُوا یَوَیْلَنَا قَدْ کُنَّا فِی غَفْلَه مِّنْ هَذَا بَلْ کُنَّا ظَلِمِینَ)(۱).

تتحدث الآیه اعلاه بصراحه عن نهایه العالم وقیام البعث والقیامه فتقول مباشره (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِیَ شَخِصَهٌ أَبْصَرُ الَّذِینَ کَفَرُوا) لانّ الرعب یسیطر علی وجودهم إلی حدّ أنّ عیونهم تتوقّف عن الحرکه وتصبح جاحظه لدی نظرهم إلی تلک الحوادث.

فی هذه الأثناء ترفع عن أبصارهم حجب الغفله والغرور، فیرتفع صوتهم: (یاویلنا قد کنّا فی غفله من هذا). ولمّا کانوا لا یقدرون علی تغطیه ذنبهم بهذا العذر لیبرّئوا أنفسهم، فإنّهم یقولون بصراحه: (بل کنّا ظالمین).

کیف یمکن عادهً مع وجود کلّ هؤلاء الأنبیاء، والکتب السماویه، وکلّ هذه الحوادث المثیره والعبر والدروس أن یکونوا فی غفله؟ إنّ ما صدر من هؤلاء تقصیر وظلم لأنفسهم وللآخرین.

۱- الأنبیاء: ۹۷.

تتحدّث هذه الآیه – وهی آخر آیه من سوره الأنبیاء- عن غفله الناس الجهّال، فتقول حکایه عن النّبی فی عباره تشبه اللعن، وتعکس معاناته من کلّ هذا الغرور والغفله، وتقول: إنّ النّبی بعد مشاهده کلّ هذا الإعراض (قَالَ رَبِّ احْکُم بِالْحَقِّ)(۱) وفی الجمله الثّانیه یُوجّه الخطاب إلی المخالفین ویقول: (وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَی مَا تَصِفُونَ).

إنّه فی الحقیقه یُنبّه هؤلاء بکلمه (ربّنا) إلی هذه الحقیقه، وهی أنّنا جمیعاً مربوبون ومخلوقون، وهو ربّنا وخالقنا جمیعاً.

حوار بین أصحاب الجنه وأصحاب النار

(وَنَادَی أَصْحَبُ الْجَنَّهِ أَصْحَبَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهلْ وَجَدتُم مَّا وَعَدَ رَبُّکُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَیْنَهُمْ أَنْ لَّعْنَهُ اللهِ عَلَی الظَّالِمِینَ)(۲).

بعد البحث فی الآیات السابقه حول مصیر أهل الجنّه وأهل النّار، أشار هنا إلی حوار هذین الفریقین فی ذلک العالم، ویستفاد من ذلک أنّ أهل الجنّه وأهل النّار یتحادثون بینهم وهم فی مواقعهم فی الجنّه أو النّار.

فیقول أوّلا: (ونادی أصحابُ الجنّه أصحابَ النّار أن قد وجدنا ما وَعَدَنا ربُّنا حقّاً فهل وجدتم ما وعد ربّکم حقاً).

فیجیبهم أهل النّار قائلین: نعم وجدنا کل ذلک. عین الحقیقه (قالوا: نعم).

ویجب الالتفات إلی أن (نادی) وإن کان فعلاً ماضیاً، إلاّ أنّه هنا یعطی معنی المضارع، ومثل هذه التعابیر کثیره فی القرآن الکریم، حیث یذکر الحوادث التی تقع فی

۱- لاشک أنّ حکم الله سبحانه بالحقّ دائماً، وعلی هذا فإنّ ذکر کلمه (بالحقّ) هنا له صبغه التوضیح.

۲- الاعراف: ۴۴.

المستقبل حتماً بصیغه الفعل الماضی، وهذا یعدّ نوعاً من التأکید، یعنی أنّ المستقبل واضح جدّاً، وکأنّه قد حدث فی الماضی وتحقق.

علی أنّ التعبیر ب_«نادی» الذی یکون عادةً للمسافه البعیده، یصوّر بُعد المسافه المقامیه أو المکانیه بین هذین الفریقین.

وهنا یمکن أن یطرح سؤال وهو: وما فائده حوار هذین الفریقین مع أنّهما یعلمان بالجواب؟

وجواب هذا السؤال معلوم، لأنّ السؤال لیس دائماً للحصول علی المزید من المعلومات، بل قد یتّخذ أحیاناً صفه العتاب والتوبیخ والملامه، وهو هنا من هذا القبیل. و هذه هی واحده من عقوبات العصاه والظالمین الذین عندما کانوا یتمتعون بلذائذ الدنیا، حیث کانوا یؤذون المؤمنین بالعتابات المرّه، والملامات المزعجه، فلابدّ _ فی الآخره _ أن ینالوا عقاباً من جنس عملهم کنتیجه طبیعه لفعلهم، ولهذا الموضوع نظائر فی سور القرآن المختلفه، منها ما فی آخر سوره المطففین.

ثمّ یضیف تعالی بأنّه فی هذا الوقت بالذات ینادی مناد بنداء یسمعه الجمیع: أن لعنه الله علی الظالمین (فأذّنَ مُؤَذِّن بینهم أن لعنه الله علی الظالمین).

ثمّ یعرّف الظالمین ویصفهم بقوله: (الذین یصدّون عن سبیل الله ویبغونها عوجاً وهم بالآخره کافرون)(۱).

ومن الآیه الحاضره یستفاد مرّه أُخری أنّ جمیع الانحرافات والمفاسد قد إجتمعت فی مفهوم «الظلم» وللظالم مفهوم واسع یشمل جمیع مرتکبی الذنوب، والآثام، وخصوصاً الضالون المضِلُّون.

۱- الاعراف: ۴۵.

من هو المؤذّن والمنادی؟

مَن هو هذا المؤذن الذی یسمعه الجمیع؟ وفی الحقیقه له سیطره وتفوق علی جمیع الفرقاء والطوائف؟

لا یستفاد من الآیه شیء فی هذا المجال، ولکن جاء فی الأحادیث الإسلامیه المفسّره والموضّحه لهذه الآیه، تفسیر المؤذّن بأمیر المؤمنین علی .

روی الحاکم أبو القاسم الحسکانی ـ الذی هو من علماء أهل السنّه بسنده عن «محمّد بن الحنفیه» عن علی أنّه قال: «أنا ذلک المؤذّن».

وهکذا روی بسنده عن «ابن عباس» أنّ لعلّی أسماء فی القرآن الکریم لا یعرفها الناس، منها «المؤذّن» فی قول الله تعالی: (فأذن مؤذنٌ بینهم) فهو الذی ینادی بین الفریقین أهل الجنّه وأهل النّار، ویقول: «ألا لعنه الله علی الذین کذبوا بولایتی واستخفّوا بحقّی»(۱).

ولقد رویت روایات وأحادیث متعدده مماثله بطرق الشیعه، منها ما رواه الصّدوق (رحمه الله) بسنده عن الإمام الباقر أنّ أمیرالمؤمنین خطب بالکوفه متصرفه فی النهروان، وبلغه أنّ معاویه یسبّه ویعیبه ویقتل أصحابه، فقام خطیباً (إلی أن قال): «وأنا المؤذن فی الدنیا والآخره، قال الله عزّ وجلّ (فأذن مؤذن بینهم أن لعنه الله علی الظالمین) أنا ذلک المؤذن، وقال: (وأذان من الله ورسوله) أنا ذلک الأذان»(۲).

ونحن نری أنّ السبب فی انتخاب أمیرالمؤمنین علی مؤذناً ومنادیاً فی ذلک الوقت هو:

۱- مجمع البیان عند الآیه المطروحه هنا.

۲- تفسیر البرهان، المجلد الثّانی، الصفحه ۱۷.

أوّلاً- لأنّه كان له مثل هذا المنصب من قبل الله والنّبی فی الدنیا أیضاً، فهو بعد فتح مكّه كلّف من جانب الله بأن یتلو الآیات الأُولی من سوره البراءه علی مسامع الناس بصوت عال فی موسم الحج، تلك الآیات التی تبدأ بقوله: (وأذان من الله ورسوله إلی الناس یوم الحج الأكبر أنّ الله بریء من المشركین ورسوله)(۱).

ثانیاً: إنّ موقف الإمام علی طوال حیاته الشریفه كان موقف المكافحه للظلم، والنضال ضد الظالمین، حتی أنّ دفاعه عن المظلوم وعداءه للظالم وخاصّه مع ملاحظه ظروف عصره لتسطع فی الصفحات البارزه من تأریخه.

أفلیست الحیاه فی العالم الآخر هی نوع من تجسم كبیر وواسع ومتكامل لحیاه البشر فی هذا العالم؟ وكلاهما بالتالی وجهان لعمله واحده.

فإذا كانت هذه حقیقه من الحقائق، لم یبق أی مجال لإستغراب أن یكون مؤذن ذلك الیوم، والذی یلعن الظالمین فی مكان بین الجنّه والنّار، بأمر من الله والنّبی هو علی .

من هذا یتّضح الجواب والردّ علی ما كتبه كاتب «المنار» الذی شككك فی كون هذا المقام لعلی فضیله، إذ یقول: ولو كنّا نعقل لإسناد هذا التأدین إلیه كرم الله وجهه معنیً یعدُّ به فضیله أو مثوبه عند الله تعالی لقبلنا الرّوایه بما دون السند الصحیح(۲).

إذ یجب أن نقول له: كما أنّ النیابه عن رسول الله فی إبلاغ سوره البراءه فی موسم الحج تعتبر من أكبر فضائله ، وكما أنّ مكافحته للظالمین والجائرین تعتبر من أبرز فضائله، یكون حمله لهذه المهمّه فی القیامه والذی یعد استمراراً لنفس ذلك البرنامج فضیله ظاهره له أیضاً.

۱- التوبه: ۳.

۲- تفسیر المنار، ج ۸، ص ۴۲۶.

العهد الإلهی الحق

(قَالَ هذَا رَحْمَهٌ مِّنْ رَّبِّی فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّی جَعَلَهُ دَکَّآءَ وَکَانَ وَعْدُ رَبِّی حَقًّا)(۱).

لقد کان عمل ذی القرنین عظیماً ومهماً، وکانَ لهُ وفقاً لمنطق المستکبرین ونهجهم أن یتباهی بهِ أو یمنّ به، إلَّا أنَّهُ قال بأدب کامل: (قال هذا رحمه مِن ربّی) لأنَّ أخلاقهُ کانت أخلاقاً إلهیه.

إنَّهُ أراد أن یقول: إذا کنت أملک العلم والمعرفه وأستطیع بواسطتهما أن أخطو خطوات مهمّه، فإنَّ کل ذلک إنما کانَ مِن قبل الخالق جلَّ وعلا، وإذا کُنت أملک قابلیه الکلام والحدیث المؤثِّر فذلک أیضاً مِن الخالق جلَّ وعلا.

وإذا کانت مثل هذه الوسائل والأفکار فی اختیاری فإنَّ ذلک مِن برکه ورحمه الخالق الواسعه.

أراد ذو القرنین أن یقول: إنّنی لا أملک شیئاً مِن عندی کی أفتخر به، ولم أعمل عملا مهماً کی أَمُنّ علی عباد الله.

ثمّ استطرد قائلاً: لا تظنوا أنَّ هذا السد سیکون أبدیاً وخالداً: (فإذا جاء وعد ربّی جعلهُ دکاء * وکان وعد ربّی حقّاً).

لقد أشار ذو القرنین فی کلامه هذا إلی قضیه فناء الدنیا وتحطِّم هیکل نظام الوجود فیها عند البعث.

لکن بعض المفسّرین اعتبر الوعد الإلهی إشاره إلی التقدم العلمی للبشر والذی بواسطته لا یبقی معنیً لسد غیر قابل للإختراق والعبور، فالطائرات وما شابهها تستطیع أن تعبر جمیع هذه الموانع. ولکن هذا التّفسیر بعید حسب الظاهر.

۱- الکهف: ۹۸.

هدفیه الدنیا وحقانیتها

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَی الْبَطِلِ فَیَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ)(۱).

تقول هذه الآیه بلهجه قاطعه من أجل إبطال أوهام الجاهلین الذین یظنّون عدم هدفیّه الدنیا، بل هی للهو واللعب فقط: إنّ هذا العالم مجموعه من الحقّ والواقع، ولم یقم أساسه علی الباطل (بل نقذف بالحقّ علی الباطل فیدمغه فإذا هو زاهق). وتقول فی النهایه: (ولکم الویل ممّا تصفون) وتتحدّثون عن عدم هدفیه الخلق.

أی إنّنا نجعل الأدلّه العقلیّه والاستدلالات الواضحه والمعجزات البیّنه إلی جانب ظنون وأوهام اللاهدفیین، لتتبخّر وتتلاشی هذه الأوهام فی نظر العلماء وأصحاب الفکر والرأی.

إنّ أدلّه معرفه الله واضحه، وأدلّه وجود المعاد بیّنه، وبراهین أحقّیه الأنبیاء جلیّه، والحقّ یمکن تمییزه عن الباطل تماماً إذا لم یکن الشخص من المعاندین.

وممّا یستحقّ الإنتباه أنّ جمله «نقذف» من مادّه (قذف) بمعنی الإلقاء، وخاصّهً الإلقاء من طریق بعید، ولمّا کان للقذف من بعید سرعه وقوّه أکثر، فإنّ هذا التعبیر یبیّن قدره إنتصار الحقّ علی الباطل. وکلمه «علی» أیضاً مؤیّده لهذا المعنی.

وجمله «یدمغه» علی قول الراغب کسر «الجمجمه والدماغ»، وتعتبر أکثر نقطه فی بدن الإنسان حساسّیه، وهو تعبیر بلیغ عن غلبه جند الحقّ غلبه واضحه قاطعه.

والتعبیر ب_(إذا) توحی بأنّنا حتّی فی الموارد التی لا_ یُنتظر ولا_ یُتوقّع إنتصار الحقّ فیها، فإنّنا سنجری هذه السنّه. والتعبیر ب_ «زاهق» والذی یعنی الشیء المضمحل، تأکید علی هذا المقصود.

وأمّا أنّ جملتی (نقذف) و(یدمغ) قد جاءتا بصیغه الفعل المضارع، فهو دلیل علی استمرار هذه السنّه.

۱- الأنبیاء: ۱۸.

الهدف من الخلق

فی الوقت الـذی لا یعترف المادّیون بهـدف للخلق، لأنّهم یعتقـدون أنّ الطبیعه الفاقده للعقل والشـعور والهدف هی التی إبتدأت الخلق، ولهـذا فـإنّهم یؤیّـدون اللغویه وعـدم الفائـده فی مجموعه الوجود، فإنّ الفلاسـفه الإلهیین وإتباع الأدیان جمیعاً یعتقـدون بوجود هدف سام للمخلوقات، لأنّ المبدیء للخلق قادر وحکیم وعالم، فمن المستحیل أن یقوم بعمل لا فائده فیه.

وهنا ینقدح هذا السؤال: ما هو الهدف؟

یتّضـح من هـذا التحلیل أنّ الخلق لیس عبثاً من جهه، ومن جهه أُخری فإنّ الهـدف من الخلق لا یعود إلی الخالق. وهنا یمکن أن نصل ببساطه إلی نتیجه، وهی: أنّ الهدف، حتماً وبلا شکّ، أمرٌ یرتبط بنا.

ومع ملاحظه هذه المقدّمه یمکن التوصّل إلی أنّ هدف الخلقه هو تکاملنا وارتقاؤنا ولا شیء سواه.

وبتعبیر آخر فإنّ عالم الوجود بمثابه مدرسه لتکاملنا فی مجال العلم.

ودار حضانه لتربیه وتهذیب نفوسنا.

ومتجر لکسب الموارد المعنویه، وأرض زراعیه غنیّه صالحه لإنتاج أنواع المحصولات الإنسانیه.

أجل «الدنیا مزرعه الآخره.. الدنیا دار صدق لمن صدقها، ودار غنی لمن تزوّد منها، ودار موعظه لمن اتّعظ بها»(۱).

۱- نهج البلاغه، الکلمات القصار، رقم ۱۳۱.

دلیل هدفیه الخلق

بعد ان ذکر سبحانه وتعالی عدم عبثیّه الخلق ذکر دلیلاً رصیناً یؤید ذلک، أضافت الآیه (فتعالی الله الملک الحقّ لا إله إلاّ هو ربّ العرش الکریم).

فإنّ الذی یقوم بعمل تافه ـ فی الواقع ـ هو الجاهل غیر الواعی أو الضعیف غیر القادر، أو من هو بالذات تافه خاو.

أمّا «الله» الذی جمع الکمال فی صفاته.

وهو «الملک» الذی یملک جمیع الکائنات ویحکم علیها وهو «الحقّ» الذی لا یصدر منه غیر الحقّ، فکیف یخلق الوجود عبثاً بلا غایه.

ولو توهّم أحد الأشخاص بأنّه یمکن أن یوجد من یمنعه من الوصول إلی هدفه، فإنّ عباره (لا إله إلاّ هو ربّ العرش الکریم) تنفی ذلک وتؤکّد ربوبیّته ومفهومها أنّ هذا المالک مصلح وهادف فی خلقه للعالم.

وباختصار نقول: إنّه إضافه إلی ذکر کلمه «الله» التی هی إشاره إلی صفاته الکمالیه فی ذاته، ذکرت الآیه أربع صفات بشکل صریح: مالکیه وحاکمیه الله، ثمّ حقّانیّه وجوده، وکذلک عدم وجود شریک له، وأخیراً مقام ربوبیّته. وهذا کلّه دلیل علی أنّه تعالی لا یقوم بعمل عبثاً، کما أنّه لم یخلق البشر عبثاً.

کلمه «العرش» کما أشرنا سابقاً، هی إشاره إلی أنّ عالم الوجود کلّه خاضع لحکم الله (لأنّ العرش فی اللغه یعنی السریر ذی الأرجل العالیه والخاصّ بالحکّام، وهذه کنایه عن حکم الله المطلق). وللإطلاع أوسع علی معنی العرش فی القرآن المجید یراجع التّفسیر الأمثل تفسیر الآیه ۵۴ من سوره الأعراف.

الموت حق

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِی أَمْرٍ مَّرِیجٍ)(۱).

فی هذه الآیه الکریمه ردّ الله سبحانه وتعالی علی الذین جحدوا الحق المتمثل بالموت مع علمهم به، وإلا فإنه لا غُبار علی الحق، وکما صرح القرآن الکریم فی موارد کثیره فإنّهم یرون صوره مصغّره للمعاد بأعینهم مراراً فی هذه الدنیا ولیس عندهم مجال للشکّ والتردّد!

لذا فإنّ القرآن یختتم هذه الآیه مضیفاً: (فهم فی أمر مریج)! فلأنّهم کذّبوا الرساله فهم دائماً فی تناقض فی القول وحیره فی العمل واضطراب فی السلوک.

فتارهً یتّهمون النّبی بأنّه مجنون أو أنّه شاعر أو کاهن.

وتارهً یعبّرون عن کلماته بأنّها «أساطیر الأوّلین».

وتارهً یقولون بأنّه یعلّمه بشر.

وتارهً یقولون عنه بأنّه ساحر لنفوذ کلماته فی القلوب.

وتارهً یقولون بأنّنا نستطیع أن نأتی بمثله.

وهذه الکلمات المتفرّقه والمتناقضه تدلّ علی أنّهم فهموا الحقّ، إلّا أنّهم یتذرّعون بحجج واهیه شتّی، ولذلک لا یقرّون علی کلام واحد أبداً.

وکلمه «مریج» مشتقّه من مرج ـ علی زنه حرج ـ ومعناها الأمر المختلط والمشتبه والمشوش، ولذلک فقد أطلقوا علی الأرض التی تکثر فیها النباتات المختلفه والمتعدّده بأنّها «مرج» أو «مرتع».

حقیقه الموت قوله تعالی: (وجاءت سکره الموت بالحقّ).

۱- ق: ۵.

يتصوّر أغلب الناس أنّ الموت أمر عـدمی ومعناه الفناء، إلّا أنّ هـذه النظره لا تنسـجم مع ما ورد فی القرآن المجید وما تدلّ علیه الدلائل العقلیه ولا توافقها أبداً.

فـالموت فی نظر القرآن أمر وجودی، وهو انتقـال وعبور من عـالم إلی آخر، ولـذلک عُبّر عن الموت فی کثیر من الآیـات بـ «تُوفّی» ویعنی تسلّم الروح واستعادتها من الجسد بواسطه الملائکه.

والتعبیر فی الآیات المتقدّمه (وجاءت سکره الموت بالحقّ)(۱) هو إشاره إلی هذا المعنی أیضاً، وقد جاء فی بعض الآیات التعبیر عن الموت بالخلق: (الذی خلق الموت والحیاه)(۲).

وهناک تعبیرات متعدّده عن حقیقه الموت فی الرّوایات الإسـلامیه، ففی روایه أنّ الإمام علی بن الحسـین سـئل: ما الموت؟ فقال : «للمؤمن کنزع ثیـاب وسـخه قمله وفـکّ قیود وأغلاـل ثقیله والاسـتبدال بأفخر ثیاب وأطیبها روائـح وأوطیء المراکب وآنس المنـازل وللکـافر کخلـع ثیـاب فـاخره والنقـل عـن منـازل أنیسـه والاسـتبدال بأوسـخ الثیـاب وأخشـنها وأوحش المنـازل وأعظم العذاب»(۳).

لیست الآیات محلّ البحث وحدها تتحدّث عن الموت بأنّه حقّ، بل هناک آیات کثیره فی القرآن تصـرّح بأنّ الموت حقّ ویقین، إذ نقرأ فی الآـیه (۹۹) من سوره الحجر (واعبـد ربّـک حتّی یأتیـک الیقین). وفی الآیه (۴۷) من سوره المـدثر نقرأ ما یشـبه هذا التعبیر أیضاً.

کـلّ ذلـک لأنّ الإنسان إذا أنکر کلّ شـیء فلیس بوسـعه أن ینکر أنّ الموت حقّ وأنّه لابـدّ أن یَطرق بابه، فالموت یطرق أبواب الجمیع ویأخذهم معه أخیراً.

۱- ق: ۱۹.

۲- تبارک: ۲.

۳- معانی الأخبار، الشیخ الصدوق، ص ۲۸۹.

والالتفات ـ إلى حقيقه الموت ـ يُعدّ إنـذاراً لجميع الناس ليفكّروا أكثر وأحسن ويعرفوا طريقهم المقـدمين عليه وما هو أمامهم ويستعدّوا له!

الطريف أنّنـا نقرأ فى بعض الرّوايـات أنّ رجلا جاء إلى عمر فقال: إنّى أحبّ الفتنه وأكره الحقّ وأشـهد على ما لم أره، فأمر عمر به فحُبس، فبلغ ذلك علياً فقال: يا عمر إنّ حبسه ظلم وقـد أثمت على ذلك. فقال: ولِمَ؟ فقال على: إنّه ـ يحبّ أمواله وأولاده وقـد قـال الله عنهمـا فى بعض آيـاته أنّهمـا فتنه (إنّما أموالكم وأولادكم فتنه) ويكره الموت والقرآن يعبّر عنه بأنّه حقّ (وجاءت سكره الموت بالحقّ) ويشهد بوحدانيه الله وهو لم يره. فقال عمر: لولا على لهلك عمر(۱).

(يَوْمَئِذ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ)(۲).

المراد بالـدين الجزاء كما فى قوله تعالى (مالك يوم الـدين)(۳)، وتوفيه الشـىء بـذله تاماً كاملاً، والمعنى يوم القيامه يؤتيهم الله جزاءهم الحقّ ايتاءً كاملاً ويعلمون أن الله هو الحق المبين.

هـذا بـالنظر إلى اتصـال الآـيه بمـا قبلها ووقوعها فى سـياق ما تقـدمها، واما بالنظر إلى اسـتقلالها فى نفسـها فمن الممكن ان يراد بالدين ما يرادف المله وهو سـنه الحياه، وهو معنى عال يرجع إلى ظهور الحقائق يوم القيامه للإنسان، ويكون أكثر مناسـبه لقوله: (ويعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين).

والاـيه من غرر الآيـات القرآنيه تفسـر معنى معرفه الله فـإن قوله (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) ينبئ أن الله تعـالى هو الحق لا مستره عليه بوجهٍ من الوجوه ولا على تقدير من التقادير فهو من أبده البديهيات التى لا يتعلق بها جهل لكن البديهى ربّما

۱- تفسير روح البيان، ج ۹، ص ۱۱۸.

۲- النور:۲۵.

۳- الحمد: ۴.

یغفل عنه فالعلم به تعالی هو ارتفاع الغفله عنه الـذی ربما یعبر عنه بالعلم، وهذا هو الذی یبدو لهم یوم القیامه فیعلمون أن الله هو الحق المبین.

والی مثله یشیر قوله تعالی: (لقد کنت فی غفله من هذا فکشفنا عنک غطاءَک فبصرک الیوم حدید)(۱).

علائم یوم القیامه

حتی أُولئک الذین کان لهم فی هذا العالم نوع من الملک المجازی والمحدود والفانی والسریع الزوال، یخرجون أیضاً من دائره الملک، فتکون الحاکمیه من کلّ النواحی وجمیع الجهات لذاته المقدسه خاصّه، وبهذا (وکان یوماً علی الکافرین عسیراً).

نعم، فی ذلـک الیـوم تزول القـوی الکـاذبه تمامـاً، وتکون الحـاکمیه لله خـاصّه، فتتـداعی قلاـع الکـافرین، وتزول قوی الجبـابره والطواغیت، وإن کانوا جمیعاً فی هـذا العالم ـ أیضاً ـ لا شـیء أمام إرادته تبارک وتعالی. واذا کان لهم فی هـذه الدنیا بهرجه، فبأی ملاذ یلوذون من الجزاء الإلهی فی یوم القیامه، یوم انکشاف الحقائق وزوال المجازات والخیالات والأوهام، ولهـذا سـیکون ذلک الیوم یوماً بالغ الصعوبه علیهم، فی الوقت الذی یکون علی المؤمنین سهلا یسیراً وهیناً جدّاً.

فی حـدیث عن أبی سـعید الخدری قال: قال رسول الله (فی یوم کان مقداره خمسـین ألف سـنه) فقلت: ما أطول هذا الیوم!؟ فقال النّبی «والذی نفسی بیده إنّه لیخفف عن المؤمن حتی یکون أخفَّ علیه من صلاه المکتوبه یصلیها فی الدنیا»(۲).

والتأمل الدقیق فی سائر آیات القرآن یکشف عن دلائل صعوبه ذلک الیوم علی

۱- ق: ۲۲.

۲- تفسیر القرطبی «الجامع لأحکام القرآن»، ج ۱۳ ، ص ۲۳ ; ج ۷، ص ۴۷۳۹.

الکافرین، ذلک أنّنا نقرأ من جهه (و تقطعت بهم الأسباب)(۱).

و من جهه أخری (ما أغنی عنه ماله وما کسب)(۲).

حقانیه المعاد والعذاب الإلهی

(وَیَسْتَنبِئُونَکَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إی وَرَبِّی إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِینَ * وَلَوْ أَنَّ لِکُلِّ نَفْس ظَلَمَتْ مَا فِی الأَرْضَ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَهَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِیَ بَیْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ یُظْلَمُونَ * أَلاَ إِنَّ لله مَا فِی السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَلَکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاَ یَعْلَمُونَ)(۳).

الآیه الأُولی تقول: إنّ هؤلاء یسألونک بتعجب واستفهام عن حقیقه هذا الوعید بالعذاب الإلهی فی هذا العالم والعالم الآخر: (ویستنبئونک أحق هو) ومن المعلوم أنّ «الحق» هنا لیس فی مقابل الباطل، بل المراد منه هو: هل إنّ لهذه العقوبه حقیقه وواقعاً وأنّها ستتحقق؟ لأنّ الحق والتحقق مشتقان من ماده واحده، ومن البدیهی أنّ الحق فی مقابل الباطل بهذا المعنی الواسع سیشمل کل واقع موجود، وستکون النقطه المقابله له کل معدوم وباطل.

ویأمر الله سبحانه نبیّه أن یجیبهم علی هذا السؤال بما أوتی من التأکید: (قل أی وربّی إنّه لحق) وإذا ظننتم أنّکم تستطیعون أن تفلتوا من قبضه العقاب الإلهی فانتم علی خطأ کبیر: (وما أنتم بمعجزین).

الواقع إنّ هذه الجمله مع الجمله السابقه من قبیل بیان المقتضی والمانع، ففی الجمله الأُولی یقول: إن عذاب المجرمین امر واقعی، ویضیف فی الجمله الثّانیه أن أیه

۱- البقره: ۱۶۶.

۲- تبت: ۲.

۳- یونس: ۵۳-۵۶.

قدره لا تستطيع أن تقف أمامه، تماماً كالآيات (۸) _ (۹) من سوره الطور: (إنّ عذاب ربّك لواقع ما له من دافع).

إنّ التأكيدات التى تلاحظ فى الآيه تستحق الإنتباه، فمن جهه القسم، ومن جهه أُخرى إنّ ولام التأكيد، ومن جهه ثالثه جمله (وما أنتم بمعجزين) وكل هذه توكّد على أنّ العقاب الإلهى حتمى عند ارتكاب الكبائر.

أقصر الأدله على المعاد

(فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَلَهُ إنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُهْتَدُونَ)(۱).

لقد بحث أمر المعاد والبعث فى يوم القيامه كثيراً، ويستفاد من آيات القرآن الكريم أنّ هضم هذه المسأله كان أمراً صعباً وعسيراً بالنسبه إلى كثير من الناس فى العصور الغابره، إلى درجه أنّهم كانوا يتخذون أحياناً من طرح مسأله القيامه والمعاد من قبل الأنبياء دليلا على عدم صحه دعوتهم، بل وحتى (والعياذ بالله) دليلا على الجنون ويقولون: (افترى على الله كذباً أم به جنّه)(۲).

ولكن يجب الانتباه إلى أنّ ما كان يدعو لمزيد من تعجبهم ودهشتهم، هو مسأله المعاد الجسمانى، لأنّهم ما كانوا يصدّقون بأنّ الأبدان بعد صيرورتها تراباً، و تبعثر ذراتها بفعل الرياح والاعاصير وتناثرها فى أرجاء الأرض. أن تجتمع هذه الذرات المتبعثره من بين أكوام التراب. وأمواج البحار، ومن بين ثنايا ذرات الهواء، ويلبس ذلك الإنسان لباس الوجود والحياه مرّه أُخرى.

۱- الأعراف: ۳۰.

۲- سبأ: ۸.

إن القرآن الكريم أجاب فی آیات متنوعه علی هذا الظن الخاطیء، والآیه الحاضره تعکس إحدی أقصر وأجمل التعابیر فی هذا المجال، إذ تقول: أُنظروا إلی بدایه الخلق، انظروا إلی جسمکم الذی یتکون من مقدار کبیر من الماء، ومقدار أقل من المواد المعدنیه وشبه المعدنیه المختلفه المتنوعه أین کان فی السابق؟ فالمیاه المستخدمه فی جسمکم یحتمل أنّ کل قطره منها کانت سادره فی محیط من محیطات الأرض ثمّ تبخّرت وتبدلت إلی السُّحب، ثمّ نزلت فی شکل قطرات المطر علی الأراضی، والذرات التی استخدمت فی نسیج جسمکم من مواد الأرض الجامده کانت ذات یوم فی هیئه حبّه قمح أو ثمره شجره، أو خضروات مختلفه جُمعت من مختلف نقاط الأرض.

وعلی هذا فلا مکان للتعجب والدهشه إذا سمعنا أنّه بعد تلاشی بدن الإنسان ورجوعه إلی حالته الأُولی تجتمع تلک الذرّات ثانیه، وتتواصل و تترابط ویتشکل الجسم الأوّل، فلو کان هذا الأمر محالا فلماذا وقع فی مبدأ الخلقه.

إذاً «کما بدأکم» الله «تعودون» أی یعیدکم فی الآخره، وهذا هو الموضوع الذی تضمنته العباره القصیره.

فی الآیه اللاحقه یصف سبحانه ردود الفعل التی أظهرها الناس قبال هذه الدعوه (الدعوه إلی التوحید والخیر والمعاد) فیقول: (فریقاً هدی وفریقاً حق علیهم الضّلاله).

ولأجل أن لا یتصور أحد أنّ الله یهدی فریقاً أو یضلّ فریقاً من دون سبب، أضاف فی الجمله ما یلی: (أنّهم اتخذوا الشیاطین أولیاء من دون الله) أی إنّ الضالین هم الذین اختاروا الشیاطین أولیاء لهم بدل أن یدخلوا تحت ولایه الله، فضلوا.

والعجب أنّه رغم کل ما أصابهم من ضلال وانحراف یحسبون أنّهم المهتدون الحقیقون (ویحسبون أنّهم مهتدون).

إنّ هذه الحاله تختص بالذين غرقوا فی الطغيان والمعصيه، وكان انغماسهم فی الفساد، والضلال والانحراف، والوثنيه، كبيراً إلى درجه أنّه انقلبت حاسه تمييزهم رأساً على عقب، فحسبوا القبيح حسناً، والضلالات هدايه، وفی هذه الحاله أُغلقت فی وجوههم كل أبواب الهدايه، وهذا هو ما أوجدوه وجلبوه لأنفسهم.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ)(۱).

۱ ـ إنّ ما استعرضته الآيات الخاصّه بالمراحل التی تسبق مراحل الحياه للإنسان وعالم النبات، من أجل أن تعلموا أنّ الله تعالى حقّ (ذلك بأنّ الله هو الحقّ) وبما أنّه هو الحقّ، فالنظام الذی خلقه حقّ أيضاً، لهذا لا يمكن أن يكون هذا الخلق دون هدف، كما يذكر القرآن الكريم هذا المعنى فی مورد آخر: (وما خلقنا السّماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظنّ الذين كفروا).

وبما أنّ هذه الحياه ليست عبثاً، وأنّ لها هدفاً، وأنّنا لا نصل إلى تحقيق ذلك الهدف فی حياتنا، إذن نعلم من ذلك وجود المعاد والبعث حتماً.

۲ ـ إنّ هذا النظام الذی يسيطر على عالم الحياه يقول لنا (وأنّه يحيی الموتى). إنّ الذی يلبس الأرض لباس الحياه، ويغيّر النطفه التافهه إلى إنسان كامل، ويمنح الحياه للأرض الميته، لقادر على أن يمنح الحياه للموتى، فهل يمكن التردّد فی قبول فكره المعاد مع وجود كلّ هذه التشكيلات الحيّه الدائمه للخالق جلّ وعلا فی هذا العالم؟

۳ ـ الهدف الآخر هو أن نعلم (وأنّه على كلّ شیء قدير) ولا يستحيل على قدرته شیء.

هل يمكن لأحد تحويل الأرض الميته إلى نطفه؟ ويطوّر هذه النطفه التافهه فی مراحل الحياه؟ ويلبسها كلّ يوم لباساً جديداً من الحياه! ويجعل الأرض الجافّه

۱- الحج: ۶.

العديمه الروح خضراء زاهيةً تعلوها بهجه الحياه؟! أليس القادر على القيام بهذه الأعمال بقادر على أن يحيى الإنسان بعد موته؟!

۴ ـ إنّ كلّ هذا لتعلموا أنّ ساعه نهايه هذا العالم وبدايه عالم آخر، ستحلّ بلا شكّ فيها (وإن الساعه آتيه لا ريب فيها).

۵ ـ ثمّ إنّ كلّ هذا مقدّمه لنتيجه أخيره هى (وأنّ الله يبعث من فى القبور).

(مَا خَلَقْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)(۱).

إن كون هذا الخلق حقاً يوجب أن يكون هناك هدفاً عقلائياً، وذلك الهدف لا يتحقق إلّا بوجود عالم آخر. إضافه إلى أنّ كونه حقاً يقضى بأنّ لا يتساوى المحسنون والمسيئون، ولما كنا نرى كل واحد من هاتين الفئتين قلّما يرى جزاء عمله فى هذه الدنيا، فلا بد من وجود عالم آخر يجرى فيه الحساب والثواب والعقاب، ليتلقى كل إنسان جزاء عمله، خيراً أم شراً.

وخلاصه القول، فإنّ الحق فى هذه الآيه إشاره إلى الهدفيه فى الخلق، واختبار البشر وقانون التكامل، وكذلك تنفيذ أصول العداله: (ولكن أكثرهم لا يعلمون) لأنهم لا يعملون الفكر فى التوصل إلى الحقائق، وإلّا فإنّ أدله المبدأ والمعاد واضحه بينه.

تحقق الوعد الإلهى فى المعاد

(وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمنِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ)(۲).

۱- الدخان: ۳۹.

۲- النحل: ۳۸-۳۹.

تعتبر مسأله المعاد المسأله الثانیه بعد مسأله التوحید والتی تعتبر المسأله الأساس فی تعلیمات الأنبیاء بخصائصها وآثارها التربویه، لذا ففی بحوث القرآن الکریم نجد أنّ أکثر الآیات اختّصت ببحث مسأله المعاد، بعد الکثره الکاثره التی اختّصت ببحث مسأله التوحید.

والمباحث القرآنیه حول المعاد تارهً تکون بشکل استدلالات منطقیه، واُخری بشکل بحوث خطابیه وتلقینیه شدیده الوقع بحیث أنّ سماعها فی بعض الأحیان یؤدّی إلی قشعریره شدیده فی البدن بأسره. والکلام الصادق _ کالاستدلالات المنطقیه _ ینفذ إلی أعماق الروح الإنسانیه.

فی القسم الأوّل، أی الاستدلالات المنطقیه، فإنّ القرآن الکریم یؤکّد کثیراً علی موضوع إمکانیه المعاد، إذ أنّ منکری المعاد غالباً ما یتوهّمون استحالته، ویعتقدون بعدم إمکانیه المعاد بصوره معاد جسمانی یستلزم عوده الأجسام المهترئه والتراب إلی الحیاه مرّه اُخری.

ففی هذا القسم، یلج القرآن الکریم طرقاً متنوعه ومتفاوته تلتقی کلّها فی نقطه واحده، وهی مسأله «الإمکان العقلی للمعاد».

فتارهً یجسّد للإنسان النشأه الاُولی، وبعباره وجیزه ومعبّره واضحه تقول الآیه: (کما بدأکم تعودون)(۱).

وتارهً یجسّد حیاه وموت النبات، وبعثه الذی نراه بأُمّ أعیننا کلّ عام، وفی الختام یقول إنّ بعثکم تماماً کالنبات: (ونزّلنا من السماء ماءً مبارکاً وأنبتنا به جنّات وحب الحصید... وأحیینا به بلدهً میتاً کذلک الخروج)(۲).

۱- الأعراف: ۲۹.

۲- ق: ۹-۱۱.

وأخيراً فإنّ القرآن تارةً يدلّل على البعث بالنوم الطويل ـ النوم الذى هو قرين الموت وأخوه، بل إنّه الموت بعينه من بعض الجوانب ـ كنوم أصحاب الكهف الذى استمر ثلاثمائه وتسع سنين، وبعد تفصيل جميل حول النوم واليقظه يقول: (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنّ وعد الله حقّ وأنّ الساعه لا ريب فيها)(۱).

خلاصه القول، إنّ ما يعرضه القرآن الكريم عن المعاد ومظاهره المختلفه ومعلوماته ونتائجه، والدلائل الرفيعه التى يطرحها بهذا الخصوص، حيّه ومقنعه بحيث أنّ أىّ إنسان إذا كان لديه ذرّه من الوجدان فإنّه يتأثّر بعمق ما يطرحه القرآن الكريم.

وعلى قول البعض: فإنّ ألفاً ومائتى آيه من القرآن الكريم تبحث فى مسأله المعاد، لو جمعت وفسّرت لأصبحت وحدها كتاباً ضخماً.

لهذا السبب فإنّ استدلالات القرآن الكريم حول إمكانيه المعاد عموماً تدور حول هذا المحور وهو «المعاد الجسمانى» علاوةً على أنّ القرآن الكريم يذكر مراراً وتكراراً بأنّكم ستخرجون يوم القيامه من قبوركم والقبور مرتبطه بالمعاد الجسمانى.

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ)(۲).

جاءت هذه الآيات لتبيان مسأله حكايه عن لسان مبلغى الجن. هذا من جهه.

ومن جهه أُخرى فإنّ سوره الأحقاف تتحدث فى فصولها الأولى عن مسأله التوحيد، وعظمه القرآن المجيد، وإثبات نبوه نبى الإسلام ، وتبحث فى آخر فصل من هذه السوره مسأله المعاد لتكمل بذلك البحث فى الأصول الاعتقاديه الثلاثه.

۱- الكهف: ۲۱.

۲- الأحقاف: ۳۴.

وتجسّد الآيه التاليه مشهداً من العذاب الأليم المحيط بالمجرمين ومنكرى المعاد، فتقول: (ويوم يعرض الذين كفروا على النّار).

أجل، فمرّه تُعرض النّار على الكافرين، وأخرى يعرضون الكافرين على النّار، ولكل من العرضين هدف.

وعندما يَعرِضون الكافرين على النّار، ويرون ألسنه لهبها العظيمه المحرقه المرعبه يقال لهم: (أليس هذا بالحق)؟ وهل تستطيعون اليوم أن تنكروا البعث ومحكمه الله العادله، وثوابه وعقابه، وتقولون: ما هذا إلّا أساطير الأولين؟

غير أنّ أُولئك الذين لا حيله لهم: (قالوا بلى وربّنا) فهنا يقول الله سبحانه، أو ملائكه العذاب: (قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون).

وبهذا فإنّهم يرون كلّ الحقائق بأُم أعينهم فى ذلك اليوم ويعترفون بذلك الإعتراف الذى لن ينفعهم، وسوف لن تكون نتيجته إلّا الهم والحسره، وتأنيب الضمير والعذاب الروحى.

الجدال فى الحق والباطل

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْم وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتَب مُّنِير * ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَهِ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّم لِّلْعَبِيدِ)(۱).

تتحدّث هذه الآيات أيضاً عمّن يجادلون فى المبدأ والمعاد جدالا خاوياً لا أساس له، فى البدايه يقول القرآن المجيد: (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير).

۱- الحج: ۸-۱۰.

وعباره (ومن الناس من يجادل فی الله بغير علم) هی ذاتها التی ذكرت فی آيه سابقه، -الآيه (۳) من سوره الحج (ومن الناس من يجادل فی الله بغير علم ويتبع كلّ شيطان مريد)- وإعادتها تبيّن لنا أنّ العباره الأُولی إشاره إلی مجموعه من الناس، والثّانيه إلی مجموعه أُخری. وبعض المفسّرين يری أنّ الفرق بين هاتين المجموعتين من الناس هو أنّ الآيه السابقه الذكر دالّه علی وضع الأتباع الضالّين الغافلين، فی وقت تكون فيه هذه الآيه دالّه علی قاده هذه المجموعه الضالّه(۱).

وعباره (ليضلّ عن سبيله) تبيّن هدف هذه المجموعه، ألا- وهو تضليل الآخرين، وهذا دليل واضح علی الفرق بينهما، مثلما توضّح هذا المعنی عباره (يتّبع كلّ شيطان مريد) فی الآيات السابقه التی تتحدّث عن اتّباع الشياطين.

ولكن ما الفرق بين «العلم» و «الهدی» و «الكتاب المنير»؟

للمفسّرين آراء فی هذا المجال أقربها إلی العقل هو أنّ «العلم» إشاره إلی الاستدلال العقلی. و «الهدی» إشاره إلی إرشاد القاده الربّانيين. و «الكتاب المنير» إشاره إلی الكتب السماويه، أی أنّها تعنی الأدلّه الثلاثه المعروفه «الكتاب» و «السنّه» و «الدليل العقلی». وأمّا الإجماع فإنّه يعود إلی السنّه طبقاً لدراسات العلماء، ويمكن أن يكون الجدال العلمی مثمراً إذا استند إلی أحد الأدلّه: العقل، أو الكتاب، أو السنّه.

القيامه حقّ والشيطان وأتباعه باطل

(وَقَالَ الشَّيْطَنُ لَمَّا قُضِىَ الاَْمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَن إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(۲).

۱- تفسير الميزان، والتّفسير الكبير للفخر الرازی، فی تفسير الآيات موضع البحث.

۲- إبراهيم: ۲۲.

یشیر القرآن الکریم إلی موقف آخر من مواقف القیامه والعقاب النفسی للجبّارین والمذنبین وأتباعهم الشیاطین، حیث یقول تعالی: (وقال الشیطان لمّا قضی الأمر إنّ الله وعدکم وعد الحقّ ووعدتکم فأخلفتکم) وبهذا الترتیب فالشیطان وجمیع المستکبرین الذین هم قاده طرق الضلال، أصبحوا یلومون ویوبّخون تابعیهم البؤساء.

ثمّ یضیف (وما کان لی علیکم من سلطان إلّا أن دعوتکم فاستجبتم لی)ویستمرّ فی القول (فلا تلومونی ولوموا أنفسکم).

أنتم فعلتم فاللعنه علیکم!!

وعلی کلّ حال فلا أنا أستطیع إنقاذکم من العذاب ولا أنتم تستطیعون إنقاذی: (ما أنا بمصرخکم وما أنتم بمصرخی) والآن اُعلمکم بأنّی أتبرّأ من شرککم وإطاعتکم لی (إنّی کفرت بما أشرکتمون من قبل) فقد فهمت الآن أنّ الشرک فی الطاعه أدّی إلی شقائی وشقائکم، وهذه التعاسه لیس لها طریق للنجاه، واعلموا (إنّ الظالمین لهم عذاب ألیم).

ومن الطّریف أنّ هذه المواجهه غیر منحصره بالشیطان وأتباعه، بل إنّ جمیع أئمّه الضلاله فی هذا العالم لهم نفس البرنامج أیضاً، یأخذون بأیدی أتباعهم (بموافقتهم طبعاً) ویذهبون بهم إلی أمواج العذاب والبلاء، وحینما یرون الأوضاع سیّئه یترکونهم وشأنهم حتّی إنّهم یلومونهم ویوبّخونهم فی خسران الدنیا والآخره.

(یَأَیُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّکُمُ الْحَیوهُ الدُّنْیَا وَلاَ یَغُرَّنَّکُم بِاللهِ الْغَرُورُ)(۱).

هذه الآیه توضیح أهم البرامج البشریه، فتقول الآیه الکریمه: (إنّ وعد الله حقّ) فالقیامه والحساب والکتاب والمیزان والجزاء والعقاب والجنّه والنار کلّها وعود

۱- فاطر: ۵.

إلهيه لا يمكن أن يُخلفها الله تعالى.

ومع الإنتباه إلى هذه الوعود الحقّه: (فلا تغرنّكم الحياه الدنيا ولا يغرنّكم بالله الغَرور) فلا ينبغى أن تخدعكم الحياه الدنيا، ولا يخدعكم الشيطان بعفو الله ورحمته..

أجل، إنّ عوامل الإثاره، وزخارف الدنيا وزبارجها، إنّما تريد أن تملأ قلوبكم، وتلهيكم عن تلك الوعود الإلهيّه العظيمه، وكذلك فإنّ شياطين الجنّ والإنس دائمه السعى بوساوسها وإغرائها وبمختلف وسائل الخداع والإحتيال، وهى أيضاً تريد إلفات إهتمامكم إليها، وإلهائكم عن التفكير فى ذلك اليوم الموعود، فإن تمكّنت أضاليلهم وخدعهم منكم، فقد ضاعت عليكم حياتكم بأكملها، وكانت سعادتكم وآمالكم نقشاً على الماء، فالحذر الحذر!!

إنّ تكرار التنبيه للناس لكى لا يغترّوا بوساوس الشياطين أو بزخارف الدنيا ـ فى الحقيقه ـ إشاره إلى أنّ للذنوب طريقين للولوج إلى النفس الإنسانيه:

۱ ـ مظاهر الدنيا الخدّاعه، كالجاه والمقام والمال والكبرياء وأنواع الشهوات.

۲ ـ الإغترار بعفو الله وكرمه، وهنا فإنّ الشيطان يزيّن الدنيا فى نظر الإنسان ويصوّرها له متاعاً مباحاً وجذّاباً ومحبّباً وقيّماً من جهه.

ومن جهه اُخرى فإنّه كلّما أراد الإنسان أن يتذكّر الآخره ومحكمه العدل الإلهى ومقاومه الجاذبيه الشديده للدنيا وخِدعها، فانّه يغريه بعفو الله ورحمته، فيدفعه بالنتيجه إلى التسويف والطغيان وارتكاب الذنوب.

ثمّ يتطرّق القرآن المجيد فى جمله قصيره عميقه المعنى إلى أحد أسباب ضلال هؤلاء القاده، فيقول: (ثانى عطفه ليضلّ عن سبيل الله) إنّهم يريدون أن يضلّوا الناس عن سبيل الله بغرورهم وعدم إهتمامهم بكلام الله وبالأدلّه العقليّه الواضحه.

«ثانى» مشتقّه من «ثنى» بمعنى التواء و «عطف» تعنى «جانب» فالجمله تعنى ثنى الجانب، أى الإعراض عن الشىء وعدم الاهتمام به.

ویمکن أن تکون عباره «لیُضلّ» هدف هذا الإعراض، أی إنّهم (قاده الضلال) یستخفّون بآیات الله والهدایه الإلهیّه لتضلیل الناس. ویمکن أن تکون نتیجه لذلک. أی أنّ محصّله الإعراض وعدم الإهتمام هو صدّ الناس عن سبیل الحقّ. ویعقب القرآن ذلک ببیان عقابهم الشدید فی الدنیا والآخره بهذه الصوره: (له فی الدنیا خزی ونذیقه یوم القیامه عذاب الحریق).

العبره فی ضرب الأمثال

(مَثَلُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِیاءَ کَمَثَلِ الْعَنْکَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَیْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُیُوتِ لَبَیْتُ الْعَنْکَبُوتِ لَوْ کَانُواْ یَعْلَمُونَ *.. وَتِلْکَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا یَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَلِمُونَ * خَلَقَ اللهُ السَّمَوَتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِی ذلِکَ لَاَیَهً لِّلْمُؤْمِنِینَ)(۱).

کم هو بدیع هذا المثال وطریف، وکم هو بلیغ ودقیق هذا التشبیه!...

تأمّلوا بدقّه... إنّ کل حیوان ـ وکل حشره ـ له بیت أو وکر وما أشبه ذلک، لکن لیس فی هذه البیوت بیت أوهن من بیت العنکبوت!

والجدیر بالذکر، أنّ بیت العنکبوت ونسیج خیوطه المضروب به المثل، هو نفسه من عجائب الخلق، والتدقیق فیه یعرف الإنسان علی عظمه الخالق أکثر.،

فخیوط العنکبوت «مصنوعه» ومنسوجه من مائع لزج، هذا المائع مستقر فی حفر دقیقه وصغیره کرأس الإبره تحت بطن العنکبوت، ولهذا المائع خصوصیه أو ترکیب خاص هو أنّه متی ما لامس الهواء جمد وتصلّب.

والعنکبوت تخرج هذا المائع بواسطه آلیات خاصه وتصنع خیوطها منه.

یقال: إن کلّ عنکبوت یمکن لها أن تصنع من هذا المائع القلیل جدّاً ما مقداره خمسمائه متر من خیطها المفتول!

۱- العنکبوت: ۴۴،۴۳،۴۱.

ومع الالتفات إلى أن العناكب ليست نوعاً واحداً، بل ـ كما يدعى بعض العلماء ـ عرف منها حتى الآن عشرون ألف نوع، وكل نوع له خصوصياته التى تبين عظمه الخالق وقدرته فى خلق هذا الموجود الصغير بوضوح وجلاء.

التعبير بـ«الاولياء» جمع ولى مكان التعبير بالأصنام، ربّما كان إشاره ضمنيه إلى هذه اللطيفه، وهى أنّه ليس الحكم مختصاً بالأصنام والآلهه المزعومه، بل حتى الأئمه والقاده الأرضيين مشمولون بهذا الحكم أيضاً.

الله غير محتاج إلى مخلوقاته

(خَلَقَ السَّمَوَاتَ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَل مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّرُ)(۱).

لاجل إثبات حقيقه أنّ الله لا يحتاج إلى مخلوقاته، ولبيان دلائل توحيده وعظمته، يقول البارىء عزّ وجلّ: (خلق السموات والأرض بالحق).

كون تلك الأُمور حقّاً دليل على وجود هدف كبير من وراء خلقها، وذلك لتكامل المخلوقات وفى مقدمتها الإنسان، ثمّ لا تنتهى عند البعث.

بعد عرض هذا الخلق الكبير، تشير الآيه إلى جوانب من تدبيره العجيب، والتغيرات التى تطرأ بحسابات دقيقه، والأَنظمه الدقيقه أيضاً التى تحكم أُولئك، إذ يقول القرآن المجيد: (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل).

وعلى أيه حال، فإنّ القرآن المجيد يبيّن ظاهره الليل والنهار و(النور) و(الظلمات) فى عدّه آيات مختلفه، كلّ واحده منها تشير إلى نقطه معينه، وتنظر إلى هذه الظاهره من زاويه خاصه، فأحياناً يقول: (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل)(۲).

۱- الزمر: ۵.

۲- فاطر: ۱۳.

الحديث ـ هنا ـ يتطرق لتوغّل الليل فى النهار وتوغل النهار فى الليل التى تتمّ بصوره بطيئه وهادئه، و أحياناً اُخرى يقول: (يغشى الليل النهار)(۱)، وهنا تمّ تشبيه الليل بستائر مظلمه تنزل على ضياء النهار وتحجبه.

ثمّ تنتقل إلى جانب آخر، ألا ـ وهو التدبير والنظام الدقيق المسير لشؤون هذا العالم، قال تعالى: (و سخر الشمس والقمر كلّ يجرى لأجل مسمى).

فلا ـ يظهر فى حركه الشمس التى تدور حول نفسها، أو التى تتحرك مع بقيه الكواكب الأخرى من المجموعه الشمسيه أدنى خلل، فهى تتحرك وفق نظام خاص ودقيق جدّاً.

واحده من علامات الحق والباطل

(قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثمّ يُعِيدُهُ قُلْ اللهُ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ فَأَنَّئ تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِى إِلَىَ الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِى إِلَىَ الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لايَهِدِّى إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)(۲).

تعقب هذه الآيات أيضاً الاستدلالات المرتبطه بالمبدأ والمعاد، وتأمر الآيه الأُولى النّبى أنّ (قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثمّ يعيده) ثمّ تضيف: (قل الله يبدؤا الخلق ثمّ يعيده فأنى تؤفكون) ولماذا تصرفون وجوهكم عن الحق وتتجهون نحو الضلال؟

وهنا سؤلان:

الأوّل: إنّ مشركى العرب غالباً لا يعتقدون بالمعاد، خاصّه بالصوره التى يذكرها

۱- الأعراف: ۵۴.

۲- يونس: ۳۴-۳۶.

القرآن، وإذا كان هذا حالهم فكيف يطلب القرآن منهم الاعتراف به؟

الثّانی: فی الآیه السابقه کان الکلام عن اعتراف المشرکین وإقرارهم، إلّا أنّ هذه الآیه تأمر النّبی أن یقرّ هو بهذه الحقیقه، فلماذا هذا الإختلاف فی التعبیر؟

إلاّ أنّ الانتباه إلی مسأله یوضح جواب کلا السؤالین، وهی: إنّ المشرکین بالرغم من عدم اعتقادهم بالمعاد الجسمانی، إلّا أنّ ذلک القدر الذی آمنوا به من أن بدایه الخلق کانت من الله کاف لتقبل المعاد والاعتقاد به، لأنّ کل من عمل عملا فی البدایه قادر علی إعادته، وبناءً علی هذا فإنّ الاعتقاد بالمبدأ إذا ما اقترن بشیء من الدقه کاف لإثبات المعاد. ومن هنا یتّضح لماذا أقر النّبی بهذه الحقیقه بدلا من المشرکین، فإنّه بالرغم من کون الإیمان بالمعاد من لوازم الإیمان بالمبدأ، إلّا أنّ هؤلاء لما لم یتوجهوا إلی هذه الملازمه، اختلف طراز التعبیر وأقر النّبی مکانهم.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَیْنَهُمَآ إلاَّ بِالْحَقِّ وَإنَّ السَّاعَهَ لأَتِیَهٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِیلَ)(۱).

القرآن الکریم فی هذه الآیه یُبیّن مسأله التوحید والمعاد، لأنّ سبب ضلال الإنسان إلی عدم اعتناقه عقیده صحیحه، ولعدم ارتباطه بمسأله المبدأ والمعاد، فیشیر إلیهما معاً فی آیه واحده (وما خلقنا السماوات والأرض وما بینهما إلّا بالحق).

فنظامها محسوب ومحکم وهو حق، وکذا هدف خلقها حقٌّ.

فیکون هذا النظام البدیع والخلق الدقیق المنظم دلیلا واضحاً علی الخالق العالم القادر جلَّ وعلا، وهو حق أیضاً، بل هو حقیقه الحق، وکل حق بما هو متصل بوجوده المطلق فهو حق، وکل شیء لا یرتبط به سبحانه فهو باطل.. وهذا ما یخصّ التوحید أمّا فی المعاد فیقول: (وإنّ الساعه لآتیه).. وإنْ تأخرت فإنّها آتیه بالنتیجه.

۱- الحجر: ۸۵.

ولا يبعد أن تكون الفقره الأُولى بمنزله الدال على الفقره الثّانيه، لأنّ هذا العالم إنّما يكون حقاً عندما يكون لهذه الأيّام الدنيويه المليئه بالآلام والمتاعب هدف عال يبرر خلق هذا الوجود الكبير ـ فليست الدنيا لنحياها وتنتهى ـ ولهذا فمسأله خلق السماوات والأرض وما بينهما حقّ يدل على وجود يوم القيامه والحساب، وإلّا لكان الخلق عبثاً وليس حقّاً-.

وبعد ذلك.. يأمر الله تعالى نبيّه الكريم أنْ يقابل عناد قومه وجهلهم وتعصبهم وعداءهم بالمحبّه والعفو وغض النظر عن الذنوب، والصفح عنهم بالصفح الجميل، أىْ غير مصحوب بملامه (فاصفح الصفح الجميل).

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(۱)

فى هذه الآيه اللاحقه تكميلاً- لمبحث المعاد ـ يشير تعالى إلى قضيه «وزن الأعمال» الذى جاء ذكره فى السور القرآنيه الأُخرى مثل ما جاء فى سوره «المؤمنون» فى الآيه (۱۰۲ و۱۰۳) وسوره القارعه الآيه (۶ و۸).

فيقول أوّلاً: إنّ وزن الأعمال يوم القيامه أمر واقع لا ريب فيه: (والوزن يومئذ الحق).

ما هو ميزان الأعمال يوم القيامه؟

لقد وقع كلام كثير بين المفسّرين والمتكلمين حول كيفيه وزن الأعمال يوم القيامه، وحيث أنّ البعض تصور أن وزن الأعمال وميزانها فى يوم القيامه يشبه الوزن والميزان المتعارف فى هذه الحياه، ومن جانب آخر لم يكن للأعمال البشريه وزن، وخفه وثقل يمكن أن يُعرَف بالميزان، لهذا لابدّ من حلّ هذه المشكله عن طريق فكره تجسم الأعمال، أو عن طريق أن الأشخاص أنفسهم يوزنون بدل أعمالهم فى ذلك اليوم.

۱- الأعراف:

حتی أنّه روی عن «عبید بن عمیر» أنه قال: «یؤتی بالرجل الطویل العظیم فلا یزن جناح بعوضه» إشاره إلی أن أُولئک الأشخاص کانوا فی الظاهر أصحاب شخصیات کبیره، وأمّا فی الباطن فلم یکونوا بشیء(۱).

ولکن لو ترکنا مسأله المقارنه والمقایسه بین الحیاه فی ذلک العالم والحیاه فی هذا العالم، وعلمنا بأن کل شیء فی تلک الحیاه یختلف عمّا علیه فی حیاتنا هذه، تماماً مثلما تختلف أوضاع الفتره الجنینیه عن أوضاع الحیاه الدنیا، وعلمنا _ أیضاً _ أنّه لیس من الصحیح أن نبحث _ فی فهم معانی الألفاظ _ عن المصادیق الحاضره والمعینه دائماً، بل لابدّ أن ندرس المفاهیم من حیث النتائج، اتضحت وانحلت مشکله «وزن الأعمال فی یوم القیامه».

وتوضیح الأمر هو: أننا لو کنا نتلفظ فیما مضی من الزمن بلفظ المصباح کان یتبادر إلی ذهننا صوره وعاء خاص فیه شیء من الزیت، ونصب فیه فتیل من القطن. وربّما أیضاً تصوَّرنا زجاجه وضعت علی النّار لتحفظها من الإنطفاء بسبب الریاح، علی حین یتبادر من لفظ المصباح إلی ذهننا الیوم جهاز خاص لا مکان فیه للزیت، ولا للفتیل أمّا ما یجمع بین مصباح الامس ومصباح الیوم، هو الهدف من المصباح والنتیجه المتوخاه أو المتحصله منه، یعنی الأداه التی تزیل الظلمه.

والأمر فی قضیّه «المیزان» علی هذا الغرار، بل وفی هذه الحیاه ذاتها نری کیف أن الموازین تطوّرت مع مرور الزمن تطوراً کبیراً، حتی أنه بات یُطلق لفظ المیزان علی وسائل التوزین الأُخری، مثل مقیاس الحراره، ومقیاس سرعه الهواء وامثال ذلک.

إذن، فالمسلّم هو أن أعمال الإنسان توزن فی یوم القیامه بأداه خاصّه لا بواسطه موازین مثل موازین الدنیا، ویمکن أن تکون تلک الأداه نفس وجود الأنبیاء والأئمّه

۱- رویت هذه الروایه من عبید بن عمیر فی تفسیر «مجمع البیان» وتفسیر «الطبری» وظاهر العباره یوحی بأن الکلام هو لعبید ولیس لرسول الله .

والصالحين، وهذا ما يستفاد _ أيضاً _ من الأحاديث المرويه عن أهل البيت .

ففی بحار الأنوار ورد عن الإمام الصادق فی تفسير قوله تعالی: (وَنَضَعُ المَوازينَ القسط) أنه قال: «والموازين الأنبياء، والأوصياء، ومن الخلق من يَدخُل الجنّه بغير حساب»(۱).

وجاء فی روايه أُخری: إنّ أمير المؤمنين والأئمّه من ذريته هم الموازين(۲).

ونقرأ فی إحدی زيارات الإمام أميرالمؤمنين المطلقه: السلام علی ميزان الأعمال.

وفی الحقيقه أن الرجال والنساء النموذجيين فی العالم هم مقاييس لتقييم أعمال العباد، فكل من شابههم كان له وزن بمقدار مشابهته لهم، ومن بعد عنهم كان خفيف الوزن، أو فاقد الوزن من الأساس.

بل إنّ أولياء الله فی هذا العالم هم أيضاً مقاييس للوزن والتقييم، ولكن حيث أنّ أكثر الحقائق فی هذا العالم تبقی خلف حجب الإبهام والغموض. تبرز فی يوم القيامه بمقتضی قوله تعالی: (وبرزوا لله الواحد القهار)(۳) وتنكشف هذه الحقائق وتنجلی للعيان.

ومن هنا يتّضح لماذا جاء لفظ الميزان فی الآيه بصيغه الجمع: «الموازين» لأنّ أولياء الله الذين يوزَن بهم الأعمال متعددون.

ثمّ إن هناك احتمالاً آخر أيضاً، وهو أن كل واحد منهم كان متميزاً فی صفه معينه، وعلی هذا يكون كل واحد منهم ميزاناً للتقييم فی إحدی الصفات والأعمال البشريه، وحيث أن أعمال البشر وصفاتهم مختلفه، لهذا يجب أن تكون المعايير والمقاييس متعدده.

۱- بحار الأنوار، الطبعه الجديده، ج ۷، ص ۲۵۲ و ۲۵۱.

۲- المصدر السابق.

۳- إبراهيم: ۴۸.

ومن هنا أيضاً يتّضح أنّ ما جاء فی بعض الرّوايات والأخبار، مثل ما ورد عن الإمام الصادق حيث سألوه: ما معنی الميزان؟ قال: «العدل» لا ينافی ما ذكرناه، لأنّ أولياء الله، والرجال والنساء النموذجيين فی هذا العالم هم مظاهر للعدل من حيث الفكر، والعدل من حيث العقيده، والعدل من حيث الصفات والأعمال (تأملوا)(۱).

ثمّ إنه تعالی يقول فی المقطع الآخر من الآيه: (فمن ثقلت موازينُه فأُولئک همُ الصالحون، ومن خفّت موازينه فأُولئک الذِين خَسروا أنفسَهم بِما كانوا بآياتنا يَظلمون).

إنّ من البديهی أنّ المراد من الخفّه والثقل فی الموازين ليس هو خفه وثقل نفس الميزان، بل قيمه ووزن الأشياء التی توزن بواسطه تلک الموازين، وتُقاس بتلک المقاييس.

ثمّ إنّ فی التعبير بجمله «خسروا أنفسهم» إشاره لطيفه إلی هذه الحقيقه، وهی أن هؤلاء قد أصيبوا بأكبر الخسارات، لأنّ الإنسان قد يخسر ماله، أو منصبه، ولكنّه قد يخسر أصل وجوده من دون أن يحصل علی شیء فی مقابل ذلک، وتلک هی الخساره الكبری، والضرر الأعظم.

إنّ فی التعبير بـ«كانوا بآياتنا يظلمون» فی آخر الآيه إشاره إلی أن مثل هؤلاء لم يظلموا أنفسهم فحسب، بل ظلموا ـ كذا ـ البرامج الإلهيه الهاديه، لأنّ هذه البرامج كان ينبغی أن تكون سبلا للهدايه ووسائل للنجاه، ولو أنّ أحداً تجاهلها، ولم يكترث بها، فلم يحصل منها هذا الأثر، كان ظالماً لها.

وقد جاء فی بعض الرّوايات والأخبار أنّ المراد من الآيات هنا هم أئمّه الهدی ، على أن هذا النمط من التّفسير ـ كما أسلفنا مراراً ـ لا يعنی حصر مفهوم الآيه فيهم، بل هم المصاديق الأتمّ والأظهر للآيات الإلهيه.

۱- تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۵.

القسم الرابع: بحوث أخرى فی الحق والباطل

اشاره

الحقّ نور والباطل ظلمه

(وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَبُ وَجِاْىءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)(۱).

هذه الآيه تبدأ بالجمله: (وأشرقت الأرض بنور ربّها). وقد اختلف المفسّرون فی معنی إشراق الأرض بنور ربها، إذ ذكروا تفسيرات عديده، اخترنا ثلاثاً منها:

۱ ـ قالت مجموعه: إنّ المراد من نور الرب هما الحق والعداله، الذی ينير بهما ربّ العالمين الأرض فی ذلك اليوم، حيث قال العلامه المجلسی فی بحارالأنوار: «أی أضاءت الأرض بعدل ربها يوم القيامه، لأن نور الأرض بالعدل»(۲).

۲ ـ البعض الآخر يعتقد أنّه إشاره إلی نور غير نور الشمس والقمر، يخلقه الله فی ذلك اليوم خاصه.

۳ ـ أمّا المفسّر الكبير العلاّمه الطباطبائی أعلی الله مقامه الشريف صاحب تفسير الميزان فقد قال: إنّ المراد من إشراق الأرض بنور ربّها هو ما يخصّ يوم القيامه من انكشاف الغطاء وظهور الأشياء بحقائقها وبدو الأعمال من خير أو طاعه أو معصيه أو حق أو باطل للناظرين. وقد استدل العلاّمه الطباطبائی علی هذا الرأی بالآيه (۲۲)

۱- الزمر: ۶۹.

۲- روح المعانی و روح البيان ذيل الآيه اعلاه.

من سوره (ق) (لقد كنت فی غفله من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد). وهذا الإشراق ـ وإن كان عاماً لكل شیء يسعه النور ـ لكن لما كان الغرض بيان ما للأرض وأهلها يومئذ من الشأن خصها بالبيان.

وهذه التفاسير لا تتعارض فيما بينها، ويمكن القول بصحتها جميعاً، مع أن التّفسيرين الأوّل والثّالث أنسب من غيرهما. ولا شك تتعلق الآيه بيوم القيامه، وإن وجدنا بعض روايات أهل البيت الأطهار تفسّرها على أنّها تعود إلى ظهور القائم المهدى المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، فهی فی الواقع نوع من التطبيق والتشبيه،

ونقل (المفضل بن عمر) عن الإمام الصادق «إذا قام قائمنا أشرقت الأرض بنور ربّها واستغنى العباد عن ضوء الشمس وذهبت الظلمه»(۱).

بعدئذ ولزياده التأكيد يضيف سبحانه وتعالى: (قل جاء الحقّ وما يبدیء الباطل وما يعيد)(۲). وعليه فلن يكون للباطل أی دور مقابل الحقّ، لا ـ خطّه أُولى جديده، ولا ـ خطّه معاده، إذ أنّ خطط الباطل نقش على الماء، ولهذا السبب فلم يتمكّن الباطل من طمس نور الحقّ ومحو أثره من القلوب.

مع أنّ بعض المفسّرين أرادوا حصر مصاديق «الحقّ» و «الباطل» فی هذه الآيه فی حدود معيّنه، لكن الواضح أنّ مفهوم الإثنين واسع وشامل جدّاً، القرآن، الوحی الإلهيی، تعليمات الإسلام، جميعها مصاديق لمفهوم «الحقّ». والشرك والكفر، والضلال، والظلم والذنوب، ووساوس الشيطان، والبدع الطاغوتيه كلّها تندرج

۱- بحار الأنوار، مجلد ۵۲ ، ص ۳۳ ، المجلسی، وارشاد المفيد، وتفسير الصافی، ونور الثقلين.

۲- (يبدیء) من مادّه «بدء» بمعنى الإيجاد الإبتدائی، و (يعيد): من مادّه (عود) بمعنى التكرار، الباطل: فاعل، والمفعول محذوف، والتقدير «ما يبدیء الباطل شيئاً وما يعيد شيئاً».

تحت معنی «الباطل»، وفی الحقیقه فإنّ هذه الآیه شبیهه بالآیه (۸۱) من سوره الإسراء، (وقل جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل کان زهوقاً).

وقد ورد أنّ ابن مسعود قال: دخل رسول الله مکّه وحول البیت ثلاثمائه وستّون صنماً فجعل یطعنها بعود فی یدیه ویقول: «جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل کان زهوقاً _ جاء الحقّ وما یبدیء الباطل وما یعید»(۱).

وهنا یثار السؤال الآتی، وهو أنّ الآیه أعلاه تقول: إنّه بظهور الحقّ، یمحق الباطل، ویفقد کلّ خلاّقیته، والحال أنّنا نری أنّ الباطل له جولات وصیت إلی الآن، ویسیطر علی مناطق کثیره فی العالم؟

وللإجابه علی هذا السؤال، یجب الالتفات إلی ما یلی:

أوّلاً: إنّه بظهور الحقّ وإشراقه. فإنّ الباطل _ والذی هو الشرک والنفاق والکفر وکلّ ما ینبع عنها _ یفقد بریقه، وإذا استمرّ وجوده فبالقوّه والظلم والضغط، وإلاّ فإنّ النقاب قد اُزیل عن وجهه، وظهرت صورته القبیحه لمن یطلب الحقّ، وهذا هو المقصود من مجیء الحقّ ومحو الباطل.

ثانیاً: لأجل تحقّق حکومه الحقّ وزوال حکومه الباطل فی العالم، فإضافه إلی الإمکانیات التی یضعها الله فی خدمه عباده، هناک شرائط اُخری مرتبطه بالعباد أنفسهم، والتی أهمّها «القیام بترتیب المقدّمات للاستفاده من تلک الإمکانات الإلهیه». وبتعبیر آخر، فإنّ إنتصار الحقّ علی الباطل لیس فقط فی المناحی العقائدیه والمنطقیه وفی الأهداف، بل فی المناحی الإجرائیه علی أساسین، «فاعلیه الفاعل» و «قابلیه القابل» وإذا لم یصل الحقّ إلی النصر علی الباطل فی المرحله العملیه نتیجه عدم تحقّق (القابلیه) فلیس ذلک دلیلا علی عدم إنتصاره.

۱- مجمع البیان، مجلّد ۸، صفحه ۳۹۷.

ولنضرب لذلک مثلا قرآنیاً، فالآیه الکریمه تقول: (ادعونی أستجب)(۱)، ولکن المعلوم لدینا بأنّ استجابه الدعاء لیست بدون قید أو شرط، فإن تحقّقت شرائط الدعاء فهو مستجاب قطعاً، وفی غیر هذه الحاله ینبغی عدم إنتظار الاستجابه.

السنه الإلهیه علی أساس الحق

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِکَ رُسُلا إلی قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُمْ بِالْبَیِّنَتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِینَ أَجْرَمُواْ وَکَانَ حَقّاً عَلَینَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ)(۲).

هذه الآیه تشیر إلی أن الله ارسل الأنبیاء والرسل إلی أقوامهم وزودهم بالمعجزات والدلائل الواضحه والبراهین العقلیه، فاستجاب جماعه منهم لهذه الدلائل، ولم یستجب آخرون لها رغم النصائح (فانتقمنا من الذین أجرموا) ونصرنا المؤمنین (وکان حقّاً علینا نصر المؤمنین).

والتعبیر ب_ «کان» التی تدل علی أن هذه السنه لها جذر عمیق، والتعبیر ب_ «حقّاً» وبعده التعبیر ب_ «علینا» هو بنفسه مبین للحق ومشعر به، جمیع هذه الألفاظ تأکیدات متتابعه فی هذا المجال وتقدیم «حقاً علینا» علی «نصر المؤمنین» الذی یدل علی الحصر، هو تأکید آخر. وبالمجموع تعطی الآیه هذا المعنی «إن نصر المؤمنین من المسلّم به هو فی عهدتنا وهذا الوعد سنجعله عملیاً دون الحاجه إلی نصر من الآخرین».

وهذه الجمله _ ضمناً _ فیها تسلیه وطمأنه لقلوب المسلمین، الذین کانوا حینئذ فی مکّه تحت ضغوط الأعداء واضطهادهم وکان الأعداء أکثر عَدَداً وعُدَداً.

وأساساً فإنّ أعداء الله طالما کانوا غرقی فی الآثام والذنوب، فإنّ ذلک بنفسه أحد عوامل انتصار المؤمنین، لأنّ الذنب سیدمرهم آخر الأمر ویهیء وسائل هلاکهم

۱- المؤمن: ۶۰.

۲- الروم: ۴۷.

بأيديهم، ويرسل عليهم نقمه الله.

(وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)(۱).

يتناول القرآن الكريم قصه لوط وقومه وقسماً آخر من حياه هؤلاء المنحرفين الضالين ليُتابع بيان الهدف الأصلى ألا وهو سعاده المجتمع الإنسانى ونجاته باسره. يبين القرآن فى هذا الصدد...

أولاً:.. أنّه لما جاءت رسلنا لوطاً طار هلعاً وضاق بهم ذرعاً وأحاط به الهمّ من كل جانب (ولما جاءت رسلنا لوطاً سيىء بهم وضاق بهم ذرعاً).

وقد ورد فى الرّوايات الإسلاميه أنّ لوطاً كان فى مزرعَته حيث فوجىء بعدد من الشباب الوسيمين الصِباح الوجوه قادمون نحوه وراغبون فى النّزول عنده ولرغبته باستضافتهم من جهه، ولعلمه بالواقع المرير الذى سيشهده فى مدينته الملوّثه بالانحراف الجنسى من جهه أُخرى، كل ذلك أوجب له الهم...

ومرّت هذه المسائل على شكل أفكار وصور مرهقه فى فكره، وتحدث مع نفسه (وقال هذا يوم عصيب).

لاحتمال الفضيحه والتورط فى مشاكل عويصه كلمه (سىء) مشتقّه من ساء، ومعناها عدم الإرتياح وسوء الحال، و«الذرع» تعنى «القلب» على قول، وقال آخرون: معناها «الخُلق» فعلى هذا يكون معنى (ضاق بهم ذرعاً) أنّ قلبه أصيب بتأثر شديد لهؤلاء الأضياف غير المدعوين فى مثل هذه الظروف الصعبه.

ولكن بحسب ما ينقله «الفخر الرازى» فى تفسيره عن «الأزهرى» أنّ الذرع فى هذه الموارد يعنى «الطاقه» وفى الأصل معناه الفاصله بين اذرع البعير أثناء سيره.

۱- هود: ۷۹.

الارتداد عن الإسلام باطل

(كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إيَمانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)(۱).

فى هذه الآيات يدور الحديث حول من قبلوا الإسلام ثمّ رفضوه وتركوه، ويسمى مثل هذا الشخص «مرتد».

تقول الآيه: (كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أنّ الرسول حقّ وجاءهم البيّنات).

فالآيه تقول: إنّ الله لا يعين أمثال هؤلاء الأشخاص على الإهتداء، لماذا؟ لأن هؤلاء قد عرفوا النبىّ بدلائل واضحه وقبلوا رسالته، فبعدولهم عن الإسلام أصبحوا من الظالمين والشخص الذى يظلم عن علم واطلاع مسبق غير لائق للهدايه الإلهيّه: (والله لا يهدى القوم الظالمين).

المراد من «البينات» فى هذه الآيه القرآن الكريم وسائر معاجز النبى الأكرم ، والمراد من «الظالم» هو من يظلم نفسه بالمرتبه الأولى. ويرتد عن الإسلام وفى المرتبه الثانيه يكون سبباً فى إضلال الآخرين. ثمّ تضيف الآيه:

(أُولئك جزاؤهم أنّ عليهم لعنه الله والملائكه والناس أجمعين).

عقاب أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يعدلون عن الحقّ بعد معرفتهم له، كما هو مبيّن فى الآيه، أن تلعنهم الملائكه وأن يلعنهم الناس.

هؤلاء الأشخاص يكونون فى الواقع غارقين فى الفساد والإثم إلى درجه أنّهم يُصبحون مورد استنكار كل عاقل هادف فى العالم، من البشر كان أم من الملائكه.

۱- آل عمران: ۸۶.

الحقُ يعلو ولا يُعلى عليه

(قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَشَ لِلهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوء قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)(۱).

يجب أن تقلنَ الحقّ.. هل ارتكب يوسف خطيئه أو ذنباً؟

فتيقّظ فجأةً الوجدان النائم فى نفوسهنّ، وأجبنه جميعاً بكلام واحد _ متّفق على طهارته و (قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء).

أمّا امرأه العزيز التى كانت حاضره أيضاً، وكانت تصغى بدقّه إلى حديث الملك ونسوه مصر، فلم تجد فى نفسها القدره على السكوت، ودون أن تُسأل أحسّت بأنّ الوقت قد حان لأنّ تنزّه يوسف وأن تعوّض عن تبكيت وجدانها وحيائها وذنبها بشهادتها القاطعه فى حقّه، وخاصّه أنّها رأت كرم يوسف المنقطع النظير من خلال رسالته إلى الملك، إذ لم يعرّض فيها بالطعن فى شخصيتها وكان كلامه عامّاً ومغلقاً تحت عنوان «نسوه مصر».

فكأنّما حدث إنفجار فى داخلها فجأةً وصرخت و (قالت امرأه العزيز الآن حصحص الحقّ أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصادقين).

ثمّ واصلت امرأه العزيز كلامها (ذلك ليعلم أنّى لم أخنه بالغيب) لأنّى عرفت بعد هذه المدّه الطويله وما عندى من التجارب (أنّ الله لا يهدى كيد الخائنين).

فى الحقيقه (بناءً على أنّ الجمله المتقدّمه لإمرأه العزيز كما يقتضيه ظاهر العباره) فانّها ومن أجل إعترافها الصريح بنزاهه يوسف وما أخطأته فى حقّه، تقيم دليلين:

۱- يوسف: ۵۱.

الأوّل: إنّ وجدانها، ويحتمل بقايا علاقتها بيوسف، لا تسمح لها أن تستر الحقّ أكثر من هذا، وأن تخون هذا الشاب الطاهر فی غيابه.

الثّانی: إنّ من مشاهده الدروس المليئه بالعبر علی مرور الزمن تجلّت لها هذه الحقيقه، وهی أنّ الله يرعی الصالحين ولا يوفّق الخائنين فی مرادهم أبداً.

علائم معرفه الحق والباطل

يحتاج الإنسان فی بعض الأحيان لمعرفه الحقّ والباطل ـ إذا أشكل عليه الأمر ـ إلی علائم وأمثال حتّی يتعرّف من خلالها علی الحقائق والأوهام. وقد بيّن القرآن الكريم هذه العلامات من خلال المثال أعلاه.

ألف:ـ الحقّ مفيد ونافع دائماً، كالماء الصافی الذی هو أصل الحياه. أمّا الباطل فلا فائده فيه ولا نفع، فلا الزبد الطافی علی الماء يروی ظمآناً أو يسقی أشجاراً، ولا الزبد الظاهر من صهر الفلزات يمكن أن يستفاد منه للزينه أو للإستعمالات الحياتيه الأُخری، وإذا إستخدمت لغرض فيكون استخدامها رديئاً ولا يؤخذ بنظر الاعتبار.. كما نستخدم نشاره الخشب للإحراق.

باء:ـ الباطل هو المستكبر والمرفّه كثير الصوت، كثير الأقوال لكنّه فارغ من المحتوی، أمّا الحقّ فمتواضع قليل الصوت، وكبير المعنی، وثقيل الوزن(۱).

جيم ـ الحقّ يعتمد علی ذاته دائماً، أمّا الباطل فيستمدّ اعتباره من الحقّ ويسعی للتلبّس به، كما أنّ (الكذب يتلبّس بضياء الصدق) ولو فقد الكلام الصادق من العالم لما كان هناك من يصدق الكذب. ولو فقدت البضاعه السليمه من العالم لما وجد من يخدع ببضاعه مغشوشه. وعلی هذا فوجود الباطل راجع إلی شعاعه الخاطف

۱- يقول الإمام علی فی وصفه أصحابه يوم الجمل «وقد أرعدوا وأبرقوا ومع هذين الأمرين الفشل، ولسنا نرعد حتّی نوقع ولا نسيل حتّی نمطر».

واعتباره المؤقّت الذی سرقه من الحقّ، أمّا الحقّ فهو مستند إلی نفسه واعتباره منه.

لذلک کان أهل الباطل دائماً یتلبّسون بالحق ویتظاهرون به وقد نهی القرآن عن ذلک فقال سبحانه: (ولا تلبسوا الحق بالباطل)(۱).

النهی عن خلط الحق بالباطل

(وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَطِلِ وَتَکْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ)(۲).

فی هذه الآیه ینهی الله سبحانه عن خلط الحق بالباطل کما ینهی عن کتمان الحق: (وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَطِلِ وَتَکْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

فکتمان الحق، مثل خلط الحق بالباطل ذنب وجریمه، والآیه تقول لهم: قولوا الحق ولو علی أنفسکم، ولا تشوهوا وجه الحقیقه بخلطها بالباطل وإن تعرضت مصالحکم الآنیه للخطر.

روح الدین التسلیم للحقّ

«الدِین» فی الأصل بمعنی الجزاء والثواب، ویطلق علی «الطاعه» والإنقیاد للأوامر، و «الدین» فی الإصطلاح: مجموعه العقائد والقواعد والآداب التی یستطیع الإنسان بها بلوغ السعاده فی الدنیا، وأن یخطو فی المسیر الصحیح من حیث التربیه والأخلاق الفردیه والاجتماعیه.

«الإسلام» یعنی التسلیم، وهو هنا التسلیم لله. وعلی ذلک، فإنّ معنی (إنّ الدِین عند الله الإسلام): إنّ الدین الحقیقی عند الله هو التسلیم لأوامره وللحقیقه. فی الواقع لم تکن روح الدین فی کلّ الأزمنه سوی الخضوع والتسلیم للحقیقه.

۱- البقره: ۴۲.

۲- البقره: ۴۲.

وإنّما أطلق اسم «الإسلام» على الدِين الذى جاء به الرسول الأكرم ﷺ لأنّه أرفع الأديان.

وقد أوضح الإمام على ؑ هذا المعنى فى بيان عميق فقال: «لأنسبنّ الإسلام نسبه لم ينسبها أحد قبلى: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل»(۱).

والخلاصه إنّ لكلّ دين سماوى دلائله الواضحه التى لا تترك إبهاماً أمام الباحث عن الحقيقه. فالنبىّ الأكرم ﷺ مثلاً _ بالإضافه إلى أنّ المعجزات والدلائل الواضحه فى نصوص دينه تؤكّد صدقه _ وردت أوصافه وعلاماته فى الكتب السماويه السابقه التى بقى قسم منها فى أيدى اليهود والنصارى، ولذلك بشّر علماؤهم بظهوره قبل ظهوره، ولكنّهم بعد أن بُعث رأوا مصالحهم فى خطر، فأنكروا كلّ ذلك، يحدوهم الظلم والحسد والطغيان.

صراع الحق والباطل مستمر

المثال الذى ضربهُ لنا القرآن الكريم فى تجسيم الحقّ والباطل ليس مثالا محدوداً فى زمان ومكان معينين، فهذا المنظر يراه الناس فى جميع مناطق العالم المختلفه، وهذا يبيّن أنّ عمل الحقّ والباطل ليس مؤقتاً وآنياً. وجريان الماء العذب والمالح مستمر إلى نفخ الصور، إلاّ ـ إذا تحوّل المجتمع إلى مجتمع مثالى (كمجتمع عصر الظهور وقيام الإمام المهدى ؑ فعنده ينتهى هذا الصراع، وينتصر الحقّ ويطوى بساط الباطل، وتدخل البشريه مرحله جديده من تاريخها، وإلى أن نصل إلى هذه المرحله فالصراع مستمر بين الحقّ والباطل، ويجب أن نحدّد موقفنا فى هذا الصراع.

۱- نهج البلاغه: قصار الكلمات، ۱۲۰ ، اُصول الكافى: ج ۲ ص ۴۵ مع تفاوت يسير.

الذين استجابوا لدعوه الحقّ

بعدما كشفت الآيات السابقه عن وجهى الحقّ والباطل من خلال مثال واضح وبليغ، أشارت هذه الآيه إلى مصير الذين إستجابوا لربّهم والذين لم يستجيبوا لهذه الدعوه واتّجهوا صوب الباطل. تقول أوّلا: (للذين إستجابوا لربّهم الحسنى).

«الحسنى» فى معناها الواسع تشمل كلّ خير وسعاده، بدءاً من الخصال الحسنه والفضائل الأخلاقيه إلى الحياه الاجتماعيه الطاهره والنصر على الأعداء وجنّه الخلد.

ثمّ تضيف الآيه (والذين لم يستجيبوا له لو أنّ لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به).

وعلى أثر هذا الشقاء (عدم قبول ما فى الأرض مقابل نجاتهم) يشير القرآن الكريم إلى شقاء آخر (أُولئك لهم سوء الحساب).

الباطل له أشكال مختلفه

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ)(۱).

إنّ واحده من خصائص الباطل هى أنّه يُغيّر لباسه من حين لآخر، حتّى إذا عرفوه بلباسه يستطيع أن يخفى وجهه بلباس آخر، وفى الآيه أعلاه إشاره لطيفه لهذه المسأله، حيث تقول: لا يظهر الزبد فى الماء فقط، بل يظهر حتّى فى الأفران المخصوصه لصهر الفلزات بشكل ولباس آخر، وبعباره أُخرى فإنّ الحقّ والباطل موجودان فى كلّ مكان كما يظهر الزبد فى السوائل بالشكل المناسب لها. وعلى هذا يجب أن لا نُخدع بتنوّع الوجوه وأن نعرف أوجه الباطل ونطرحه جانباً.

۱- الرعد: ۱۷.

کیف یطرد الحقّ الباطل؟

«الجفاء» بمعنی الإلقاء والإخراج، ولهذا نکته لطیفه وهی أنّ الباطل یصل إلی درجه لا یمکن فیها أن یحفظ نفسه، وفی هذه اللحظه یُلقی خارج المجتمع، وهذه العملیه تتمّ فی حاله هیجان الحقّ، فعند غلیان الحقّ یظهر الزبد ویطفو علی سطح ماء القدر ویُقذف إلی الخارج، وهذا دلیل علی أنّ الحقّ یجب أن یکون فی حاله هیجان وغلیان دائماً لکی یُبعد الباطل عنه.

الباطل مدینٌ للحقّ ببقائه

کما قلنا فی تفسیر الآیه، فلو لم یکن الماء لما وجد الزبد، ولا یمکن له أن یستمر، کما أنّه لولا وجود الحقّ فانّ الباطل لا معنی له ولو لم یکن هناک أشخاص صادقون لما وقع أحد تحت تأثیر الأفراد الخونه ولما صدّق بمکرهم، فالشعاع الکاذب للباطل مدین فی بقائه لنور الحقّ.

حرمه کتمان الحق

(إِنَّ الَّذِینَ یَکْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَیِّنَتِ وَالْهُدَی مِن بَعْدِ مَابَیَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِی الْکِتَابِ أُوْلَئِکَ یَلْعَنُهُمُ اللهُ وَیَلْعَنُهُمُ اللاّعِنُونَ)(۱).

سبب نزول هذه الآیه:

روی جلال الدین السیوطی عن ابن عباس، أن عدداً من المسلمین أمثال «معاذ بن جبل» و«سعد بن معاذ» و«خارجه بن زید» سألوا أحبار الیهود عن مسائل فی التوراه قد ترتبط بظهور النّبی الخاتم ، فأبی الأحبار أن یجیبوا وکتموا ما عندهم

۱- البقره: ۱۵۹.

من علم(۱).

الآیه _ وإن خاطبت کما فی أسباب النّزول، علماء الیهود _ غیر محدوده بمخاطبیها، بل تبین حکماً عاماً بشأن کاتمی الحق.

وأیه خیانه للعالم أکبر من محاوله العلماء کتمان آیات الله المودعه عندهم من أجل مصالحهم الشخصیه ولتضلیل النّاس.

وعباره (مِنْ بَعْدِ مَا بَیَّنَّاهُ لِلنّاسِ فِی الْکِتَابِ) إشاره إلی أن هؤلاء الأفراد یصادرون فی الواقع جهود الأنبیاء وتضحیات أولیاء الله الصالحین، وهو ذنب عظیم.

والفعل (یلعن) تکرر فی الآیه للتأکید، واستعمل بصیغه المضارع لبیان استمرار اللعن، ومن هنا فإنّ لعنه الله ولعنه اللاعنین تلاحق هؤلاء الکاتمین لآیات الله باستمرار، وذلک أقسی صور العقاب.

«البینات» و«الهدی» لهما معنی واسع یشمل کل وسائل الهدایه والتوعیه والإیقاظ وإنقاذ النّاس.

مفاسد کتمان الحق

کتمان الحقائق من المسائل التی عانت منها المجتمعات البشریه علی مرّ التاریخ، وکان لها دوماً آثار سیئه عمیقه استمرت قروناً واعصاراً. ویتحمل تبعه هذه المساوىء دون شک أولئک العلماء الذین یعلمون تلک الحقائق ویکتمونها.

لعل القرآن لم یهدد ویذمّ فئه کما هدّد وذم هذه الفئه الکاتمه للحقائق. ولم لا؟ فإن عمل هؤلاء یجرّ أجیالا متعاقبه إلی طریق الضلال والفساد، کما أن نشر الحقائق یدفع بالأمم إلی طریق الهدایه والصلاح.

۱- لباب النقول فی أسباب النزّول، ص ۲.

البشریه تمیل للحقائق بفطرتها، وکتمان الحقائق عنها یعنی صدّ البشریه عن طریق تکاملها الفطری المرسوم لها.

لو أن علماء الیهود والنصاری أعلنوا ما عندهم من حقائق بشأن النّبی الخاتم ﷺ، ونشروا ما جاء فی العهدین من بشائر حول رسول الإسلام، لانضوی أهل الکتاب تحت رایه الإسلام، ولأصبحوا مع المسلمین أمه واحده.

کتمان الحقائق لا ینحصر دون شک فی کتمان علامات النّبوه والبشائر بالنّبی الخاتم ﷺ، بل یشمل کتمان کل حقیقه تستطیع أن تدفع النّاس إلی الفهم الصحیح بالمعنی الواسع لهذه الکلمه.

السکوت فی مواضع یجب فیها البیان قد یکون من مصادیق کتمان الحق، وذلک یکون فی موارد یحتاج النّاس فیها بشدّه إلی فهم الحقائق ویستطیع العلماء فیها أن یلبّوا هذه الحاجه.

إن القرآن لا یتحدث عن کتمان الحقائق فحسب، بل یتحدث فی مواضع اُخری عن تبیین الحقائق أیضاً، وهذا یرد علی أولئک الذین یلتزمون جانب الصمت أمام الانحرافات بحجّه عدم وجود سائل یطرح علیهم سؤالا بشأن تلک الانحرافات.

یقول سبحانه: (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِیثَاقَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتَابَ لَتُبَیِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَکْتُمُونَهُ)(۱).

جدیر بالذکر أن إلهاءَ النّاس بالمسائل الفرعیه، لصرف أنظارهم عن المسائل الأسیاسیه الحیاتیه نوع من کتمان الحقائق. إذا لم یشمله فرضاً تعبیر «کتمان الحقائق» فهو مشمول حتماً بملاک وفلسفه کتمان الحق.

۱- آل عمران: ۱۸۷.

کتمان الحق فی الأحادیث

حملت الأحادیث بشدّه أیضاً علی کاتمی الحق، فروی عن رسول الله قال: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْم یَعْلَمُهُ فَکَتَمَ أُلْجِمَ یَوْمَ الْقِیَامَهِ بِلِجَام مِنْ نَار»(۱).

ونعید هنا القول أن ابتلاء الناس بمسأله والحاجه الی بیانها یحل محل السّؤال. وبیان الحقائق فی هذه الحاله واجب.

وسُئل الإمام أمیر المؤمنین :

«مَنْ شَرُّ خَلقِ اللهِ بَعدَ إبلِیسَ وَفِرعَونَ؟ قَالَ: العُلَمَاءُ إذا فَسَدوا، هُم المُظهِرُونَ لِلأبَاطِیلِ، الکَاتِمُونَ للحَقَائِقِ، وَفِیهِم قَالَ اللهُ عزّ وجلّ: (أُولئک یَلعَنُهُم اللهُ ویَلعَنُهُم اللاعِنُونَ)(۲).

الدعوه إلی الحق ومکافحه الفساد

(وَلْتَکُن مِّنکُمْ أُمَّهٌ یَدْعُونَ إِلَی الْخَیْرِ وَیَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَیَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنکَرِ وَأُوْلَئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلاَ تَکُونُواْ کَالَّذِینَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْبَیِّنَاتُ وَأُوْلَئِکَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِیمٌ)(۳).

هاتان الآیتان تأمران «الأمر بالمعروف» و «النهی عن المنکر» اللذین هما ـ فی الحقیقه ـ بمثابه غطاء وقائی إجتماعی لحمایه الجماعه وصیانتها، إذ تقول (ولتکن منکم اُمه یدعون إلی الخیر ویأمرون بالمعروف وینهون عن المنکر وأولئک هم المفلحون).

لأن فقدان «الأمر بالمعروف» و «النهی عن المنکر» یفسح المجال للعوامل المعادیه للوحده الاجتماعیه بأن تنخرها من الداخل، وتأتی علی کلّ جذورها کما تفعل

۱- مجمع البیان، فی تفسیر الآیه.
۲- الاحتجاج للطبرسی، نقلاً عن نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۳۹.
۳- آل عمران: ۱۰۴-۱۰۵.

الأرضه، وأن تمزق وحده الأُمه وتفرق جمعها، ولهذا فلابدّ من مراقبه مستمره ورعايه دائمه لهذه الوحده، ولا يتم ذلك إلَّا بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

وهـذه الآـيه تتضـمن دسـتوراً أكيـداً للأـمه الإسـلاميه بأن تقوم بهاتين الفريضتين دائماً، وأن تكون أمه آمره بالمعروف ناهيه عن المنكر أبداً لأن فلاحها رهن بذلك: (وأولئك هم المفلحون).

يبقى أن نعرف أن «الأُمه» مأخوذه لغه من «الأُم» وهو كلّ ما انضم إليه الأشـياء الأُخرى، أو كلّ شىء ضم إليه سائر ما يليه، والأُمه كـلّ جمـاعه يجمعهم أمر جـامع إما دين واحـد، أو زمان واحـد، أو مكان واحـد لهـذا لا تطلق لفظه الأُمه على الأفراد المتفرقين، والأشخاص الذين لا يربطهم رباط واحدٌ.

سؤال:

وهنـا يُطرح سـؤال وهـو: أن الظـاهر من جمله «منكم أمه» هـو جمـاعه من المسـلمين لاـ كـافه المسـلمين، وبهـذا لاـ يكون الأـمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجباً عامّاً، بل وظيفه دينيه تختص بفريق من المسـلمين، وإن كان إنتخاب هـذا الفريق الخاصّ من مسؤوليه المسلمين جميعاً.

وبعباره أُخرى أن جمله «منكم أمه» ظاهره فى أن هذين الأمرين، واجبان كفائيان لا عينيان.

فى حين أن آيات أُخرى تفيد بأنهما عامان غير خاصين بجماعه دون أُخرى، كما فى آيه لاحقه وهى قوله سبحانه (كنتم خير أمه أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر).

أو مـا جاء فى سوره «العصـر»: (إلَّا الـذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر) فإن الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والتواصى بالحقّ، والتواصى بالصبر فى هذه الآيات وما شابهها عامه غير خاصّه.

والجواب:

إن الإمعان فی مجموعه هذه الآیات یوضح لنا الجواب، فإنه یستفاد منها أن «للأمر بالمعروف» و «النهی عن المنکر» مرحلتان: «المرحله الفردیه» التی یجب علی کلّ واحد القیام بها بمفرده، إذ یجب علیه أن یراقب تصرفات الآخرین، و«المرحله الجماعیه» وهی التی تعتبر من مسؤولیه الأُمه بما هی أُمه، حیث یجب علیها أن تقوم بمعالجه کلّ الإعوجاجات والانحرافات الاجتماعیه، وتضع حدّاً لها، بالتعاون بین أفرادها وأعضائها کافه.

ویعتبر القسم الأول من وظیفه الأفراد، فرداً فرداً، وحیث إن إمکانات الفرد وقدراته محدوده، ولذلک فإن إطار هذا القسم یتحدد بمقدار هذه الإمکانات. فهنا واجب عینی.

وأمّا القسم الثانی فإنه یعتبر واجباً کفائیاً، وحیث إنه من واجب الأُمه بما هی أُمه فإن حدوده یتسع ولهذا یکون من واجبات الحکومه الإسلامیه.

إن وجود هذین النوعین من مکافحه الفساد، والدعوه إلی الحقّ یعتبران ـ بحقّ ـ من أهم التعالیم التی تتوج القوانین الإسلامیه، کما ویکشف عن سیاسه تقسیم الواجبات والوظائف وتوزیع الأدوار فی الدوله الإسلامیه، وعن لزوم تأسیس «فریق المراقبه» للنظاره علی الأوضاع الاجتماعیه والمؤسسات المختلفه فی النظام الإسلامی.

وقد جرت العاده فیما سبق بوجود أجهزه خاصّه تقوم بمهمه الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر فی المستوی الإجتماعی فی البلاد الإسلامیه، وقد کانت تسمی هذه الأجهزه تاره باسم «دائره الحسبه» ویسمی موظفوها بالمحتسبین، وتاره باسم الآمرین بالمعروف، وقد کانت هذه الأجهزه بسبب موظفیها تقوم بمکافحه کلّ فساد فی المجتمع، أو کل فساد وظلم فی أجهزه الدوله، إلی جانب ما تقوم به من تشجیع الناس علی الخیر والحثّ علی المعروف.

ومع وجود مثل هـذه الجماعه بما لها من القوه الواسـعه لا يوجـد أى تناف بين شـمول فريضه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عليها وعلى الفرد بما له من القدره المحدوده.

تلازم الحق والوظيفه

(وَالْمُطَلَّقَـاتُ يَـتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِـهِنَّ ثَلاـثَهَ قُرُوء وَلاَـ يَحِـلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَـا خَلَقَ اللهُ فِى أَرْحَـامِهِنَّ إن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِـاللهِ وَالْيَوْمِ الاْـخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَلِكَ إنْ أَرَادُواْ إصْلاحاً...)(۱).

هنـا يشـير القرآن الكريم إلى أصـل أسـاس، وهو أنه كلّمـا كـانت هنـاك وظيفه ومسؤوليّه كان هناك حقّ إلى جانبها، يعنى أنّ الوظيفه والحقّ لاينفصـلان أبـداً، فمثلاً أنّ على الوالـدين وظائف بالنّسـبه للأولاد، وهذه الوظائف تسـبّب إيجاد حقوق فى عهده الأولاـد، أو أنّ القاضـى موظّف فى تحقيق العـداله فى المجتمع مـا أمكنه ذلـك، وفى مقابـل هـذه الوظيفه والمسؤوليّه له حقوق كثيره فى عهده الآخرين، وهكذا بالنّسبه إلى الأنبياء وأقوامهم.

وفى الآيه مورد البحث إشاره إلى هـذه الحقيقه حيث تقول إنّ النساء لهنّ من الحقوق بمقدار ما عليهنّ من الواجبات والوظائف، وهـذا التّساوى بين الحقوق والواجبات يسـهّل عمليّاً إجراء العداله فى حقّهن، وكذلك يثبت عكس هذا المطلب أيضاً فمن جُعل له حقّاً ففى مقابله عليه واجبات ومسؤوليّات لابدّ من أدائها، ولذلك لانجد أحداً له حقّ من الحقوق فى أحد الموارد وليست فى ذمّه وظيفه ومسؤوليّه.

۱- البقره: ۲۲۸.

عانت المرأه خلال العصور التاريخيّه المختلفه ألواناً من الظلم والإضطهاد والتعسّف، ويشكّل هذا التاريخ المؤلم المرّ جزءً هامّاً من الدراسات الاجتماعيه بشكل عامّ يمكن تقسيم تاريخ حياه المرأه إلى مرحلتين:

المرحله الأُولى: مرحله ما قبل التاريخ، وليس لنا معلومات صحيحه عن وضع المرأه فى هذه المرحله.

المرحله الثانيه: مرحله التاريخ، والمرأه كانت خلالها فى كثير من المجتمعات شخصيّه غير مستقله فى جميع الحقوق الإقتصاديه والسياسيه والاجتماعيه، واستمرّ هذا الوضع فى قسم من المجتمعات حتّى القرون الأخيره.

دينُ حق ومعبود واحد

تتناول الآيه موضوع البحث نفى الشرك – باعتباره أمراً باطلاً- تعقيباً لبحث التوحيد ومعرفه الله عن طريق نظام الخلق الذى ورد فى الآيات السابقه، لتتّضح الحقيقه من خلال المقارنه بين الموضوع، ويبتدأ ب_: (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنّما هو إله واحد فإيّاى فارهبون)(۱).

وتقديم كلمه «إيّاى» يراد بها الحصر كما فى «إيّاك نعبد» أىْ: يجب الخوف من عقابى لا غير.

ومن الملفت للنظر أنّ الآيه أشارت إلى نفى وجود معبودين فى حين أن المشركين كانوا يعبدون أصناماً متعدده.

ويمكن أن يكون ذلك إشاره إلى إحدى النقاط التاليه أو إلى جميعها:

۱ _ إنّ الآيه نفت عباده اثنين، فكيف بالأكثر؟!

۱- النحل: ۵۱.

وبعباره أُخرى: إنّها بيّنت الحد الأدنى للمسأله ليتأكّد نفى الأكثر، وأىُّ عدد ننتخبه (أكثر من واحد) لابدّ له أن يمر بالإثنين.

۲ ـ كل ما يُعبد من دون الله جمع فى واحد، فتقول الآيه: أن لا تعبدوها مع الله، ولا تعبدوا إلهين (الحق والباطل).

۳ ـ كان العرب فى الجاهليه قد انتخبوا معبودين:

الأوّل: خالق العالم، أىْ الله عزّ وجلّ وكانوا يؤمنون به.

الثّانى: الأصنام، واعتبروها واسطه بينهم وبين الله، واعتبروها كذلك منبعاً للخير والبركه والنعمه.

۴ ـ يمكن أن تكون الآيه ناظره إلى نفى عقيده (الثنويين) القائلين بوجود إله للخير وآخر للشر، ومع انتخابهم لأنفسهم هذا المنطق الضعيف الخاطىء، إلّا إنّ عبده الأصنام قد غالوا حتى فى هذا المنطق وتجاوزوه لمجموعه من الالهه!

لابد من قلوبٍ مهيأه.. لقبول الحقِّ

لاحظوا المُزارع والفلاّح الذى ينثر البذور، فقد تقع بعض هذه البذور على الأحجار، ومن الواضح أنّ ما يقع على الأحجار والصخور لا ينمو!

وبعض هذه البذور يقع على طبقه رقيقه من التراب الذى يغطّى الصخر، فتثبت هذه البذور وتمدّ جذورها، إلّا أنّ المكان حيث كان حرجاً لا يساعد على إمتداد الجذور (لكون الأرض صخريه) فما أسرع من أن تجفّ البراعم وتموت الجذور.

ويقع قسم من البذور على أرض ذات تراب صالحه، إلّا أنّ نبات الشوك والعلف تنمو إلى جانبها، فحتّى لو أورقت تلك البذور إلّا أنّها ما أسرع أن تغلبها الأشواك وتلتفّ عليها فتموت.

وأحسن هذه البذور حظّاً تلك البذور التى تستقرّ فى تربه صالحه ولا تعوقها

نباتات اُخرى.. فلا يمضى زمن حتّى تنبت وتنمو وتورق وتستوى على سوقها وتعطى ثمارها.

فكلمات الحقّ التى تخرج من أفواه الأنبياء ورسل الله وخلفائهم المعصومين كهذه البذور، فالقلوب الصخريه لا تتقبّل هذه الكلمات من الأساس، والقلوب الضعيفه تتقبّلها مؤقتاً ثمّ تعرض عنها، وهناك قلوب مهيّأه للقبول، لكن الأهواء والصفات الرذيله والشهوات نابته فيها، وهذه الاُمور تبطل تأثير تلك الكلمات الحقّه.

القلوب ـ الوحيده ـ التى تتقبّل كلمات هؤلاء الأئمّه العظام وتنمو فيها وتثمر هى القلوب التى تطلب الحقّ ويحكم عليها البحث عن الحقّ! وخاليه من الصفات السلبيه والدوافع الدنيويه أيضاً.. وتلك هى قلوب المؤمنين... (فذكّر إنّ الذكرى تنفع المؤمنين).

أشارت الآيات السابقه ـ بشكل عابر ـ إلى التناقض بين التمسّك بالحقّ وبين الأهواء النفسيّه، وهى إشاره ذات مدلول كبير، حيث تقول: (ولو اتّبع الحقّ أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهنّ). وتفسير هذه المسأله ليس صعباً للأسباب الآتيه:

الف ـ لا شكّ فى أنّ أهواء الناس متفاوته، وقد ينقض بعضها بعضاً، حتّى بالنسبه لشخص واحد فقد تتناقض أهواؤه.

ولو إستسلم الحقّ لهذه الأهواء لنتج عن ذلك الفساد وعمّت الفوضى. لماذا؟

لأنّ كلّ فرد له صنم ومعبود، فلو حكمت هذه الآلهه الكثيره والمتضادّه هذا العالم المترامى الأطراف، لظهر الفساد وتعمّ الفوضى من جرّاء ذلك، وهذا لا يخفى على أحد.

ب ـ إنّ أهواء الناس مع قطع النظر عن تناقضها، فهى تميل نحو الفساد والشرّ ولو سادت الوجود والمجتمع البشرى، فالنتيجه لا تكون سوى الفساد والشرّ.

ج ـ إنّ الميول والأهواء ذات بعد واحد، ولا تنظر إلى الأُمور إلّا من زاويه واحده وتغفل عن بقيّه الأبعاد، ومن المعلوم أنّ أحد العوامل المهمّه فى الفساد والخراب هو المنهج ذو البعد الواحد الذى يغفل عن الأبعاد الأُخرى.

والآيه محلّ البحث تشبه من بعض جوانبها ما ورد فى الآيه الثّانيه والعشرين من سوره الأنبياء (لو كان فيهما آلهه إلّا الله لفسدتا).

وبديهى أنّ الحقّ كالصراط المستقيم واحد لا نظير له، بينما الأهواء النفسيه متعدّده كأوثان المشركين. فأيّما نتّبع الحقّ أم الهوى؟ أنتّبع الهوى الذى هو مصدر الفساد فى السّماء والأرض وفى جميع الموجودات، أم الحقّ الذى هو رمز الوحده والتوحيد والنظام والانسجام؟ الجواب فى غايه الوضوح والإشراق.

الفناء نهايه الباطل

(وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْق وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطاناً نَّصِيراً * وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَطِلُ إنَّ الْبَطِلَ كَانَ زَهُوقاً)(۱).

هناك أمور تتطرق إليها الآيه الكريمه أعلاه وهى:

أولاً: العوامل الثّلاثه للإنتصار.

فى ميادين الصراع بين الحق والباطل يكون جيش الباطل ـ عادةً ـ ذا عدّه وعدد أكثر، إلّا أن جيش الحق ـ بالرغم مِن قلّه أفراده ووسائله الظاهريه ـ يحصل على انتصارات عظيمه. ويمكن مشاهده نماذج مِن ذلك فى غزوات بدر والأحزاب وحنين، وفى عصرنا الحاضر يمكن مُشاهده ذلك فى الثورات المُنتصره للأُمم المستضعفه فى مقابل الدول المستكبره.

۱- الإسراء: ۸۰ و ۸۱.

وهذا الأمر يكون سبب تحلّى أنصار الحق بقوّه معنويه خاصّه بحيث تصنع مِن (الإنسان) أُمَّه.

وفى الآيات أعلاه تمت الإشاره إلى ثلاثه عوامل للإنتصار، العوامل التى ابتعد عنها مسلمو اليوم، ولهذا السبب نرى هزائمهم المتكرِّره فى مقابل الأعداء والمستكبرين.

فعوامل الانتصار الثلاثه كما جاءت فى الآيه هى:

الصدق والإخلاص والأمانه.

الآيه الأخيره من الآيات ـ محل البحث ـ فى نهايه المطاف تزف البُشرى للمسلمين باستيعاب الإسلام العالم بأسره، وتكمل ما أشارت إليه ـ آنفاً ـ أن أعداء الإسلام لن يفلحوا فى محاولاتهم ومناوآتهم بوجه الإسلام أبداً، وتقول بصراحه: (هو الذى أرسَل رسولَه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون)(۱).

والمقصود من الهدى هو الدلائل الواضحه، والبراهين اللائحه الجليّه التى وُجِدَتْ فى الدين الإسلامى.

وأمّا المراد من دين الحق، فهو هذا الدين الذى أصوله حقّه وفروعه حقّه أيضاً، وكل ما فيه من تاريخ وبراهين ونتائج حق، ولا شك أن الدين الذى محتواه حق، ودلائله وبراهينه حقّه، وتأريخه حق جلى، لابدّ أن يظهر على جميع الأديان.

وبمرور الزمان وتقدم العلم وسهوله الإرتباطات، فإن الواقع سيكشف وجهه ويطلعه من وراء سُدُلِ الإعلام المضلله، وستزول كل العقبات والموانع والسدود التى وضعت فى طريق انتشار الإسلام.

وهكذا فإنّ دين الحق سيستوعب كل مكان، ولا يحول بينه وبين تقدمه شىء أبداً، لأنّ الحركات المضاده للإسلام حركات مخالفه لسير التأريخ وسنن الخلق.

۱- التوبه: ۳۳.

المراد «الهدى ودين الحقّ»

هـذا التعبير الوارد فى الآـيه محـل البحث: (أرسـل رسوله بالهـدى ودين الحق) بمثـابه الـدليل على انتصار الإسـلام وظهوره على جميع الأديان، لأنّه لمّا كان محتوى دعوه النّبى الهدايه، والعقل يدل على ذلك فى كل موطن، ولما كانت أصوله وفروعه موافقه للحق، ومع الحق، وتسير فى مسيرالحق، ولأجل الحق. فهذا الدين سينتصر على جميع الأديان طبعاً.

وقـد جاء عن أحـد علماء الهند أنّه سيّر فكره فى مطالعه مختلف الأديان فتره من الزمن، وانتهى أمره إلى اختيار الدين الإسـلامى من بين جميع أديان العالم، ثمّ نشر كتاباً بالإنجليزيه اسمه «لِمَ أسلمتُ؟» وبيّن فيه مزايا الدين الإسلامى على غيره من الأديان.

ومن أهم المسائل التى أثارت انتباهه ـ كما يقول ـ أنّ الإسـلام هو الـدين الوحيـد الذى له تأريخ ثابت محفوظ ويتعجّبُ كيف اختارت أوربا لها ديناً ترى إنَّ من جاء به أجَلّ من الإنسان وتعدّه ربّها، مع أن هذا الدين ليس له تاريخ دقيق(۱).

إنّ مطـالعه آراء الـذين اعتنقـوا الإسـلام دينـاً جديـداً وعزفـوا عن دينهم السـابق، تكشـف أنّهم كـانوا فى منتهى البسـاطه والغفله والتضليل، بينما دلّتهم أصول الإسلام وفروعه ذات الأدلّه المحكمه إلى الدين الإلهى البعيد عن الخرافات كلّها، والذى يتجلى فيه نور الحق والهدايه.

انتصار المنطق أم إنتصار القوّه؟

هناك كلام بين المفسّرين فى كيفيه ظهور الدين الإسلامى على سائر الأديان، وهذا الظهور أو الإنتصار فى أىّ شكل هو؟

۱- المنار، ج ۱۰ ، ص ۳۸۹.

قال بعض المفسّرین: هذا الإنتصار انتصار منطقی استدلالی فحسب، ویقولون بأن هذا الموضوع حاصل فعلا، لأنّ الإسلام من حیث منطقهِ ودلائله لا یقاس به دین آخر.

غیر أنّ التحقیق فی موارد استعمال ماده «الإظهار» فی قوله تعالی: (لیُظهره علی الدین کله) یکشف أنّ هذه الماده غالباً ما تستعمل فی القدره الظاهریه والغلبه المادیه، کما جاء فی قصّه أصحاب الکهف: (إنّهم إن یظهروا علیکم یرجموکم)(۱) وکما نقرأ فی شأن المشرکین (کیف وإن یظهروا علیکم لا یرقبوا فیکم إلاًّ ولا ذمّه)(۲).

فمن البدیهی أنّ الغلبه فی مثل هذه الموارد لیست غلبه منطقیه، بل هی غلبه عینیه وفعلیه، وعلی کل حال فمن الأفضل والأکثر صحه أن نعتقد بأنّ هذا الظهور والغلب ظهور مطلق ـ من جمیع الجوانب ـ لأنّه ینسجم ومفهوم الآیه التی هی مطلقه من جمیع الجهات أیضاً، فیکون المعنی أنّه سیأتی یوم ینتصر فیه الإسلام انتصاراً منطقیاً وانتصاراً ظاهریاً، فی امتداد سیطرته ونفوذه المطلق، وحکومته العامّه علی جمیع الأدیان، وسیجعل جمیع الأدیان تحت شعاعه.

إنّ الآیه ـ محل البحث ـ عینها وبالألفاظ ذاتها، وردت فی سوره الصف، کما وردت فی أُخریات سوره الفتح باختلاف بسیط.

والآیه تخبر عن حدث مُهِمّ کبیر استدعت أهمیته هذه أن تتکرر الآیه فی القرآن، وهذا الحدث الذی أخبرت عنه الآیه هو استیعابُ الإسلام للعالم بأسرهِ.

وبالرغم من أن بعض المفسّرین فسر الإنتصار ـ فی الآیه محل البحث ـ انتصاراً فی منطقه معینه ومحدوده، وقد حدث ذلک فعلا فی عصر النّبی أو ما بعده من العصور للإسلام والمسلمین، إلاّ أنّه مع ملاحظه أن الآیه مطلقه لا قید فیها لا شرط،

۱- الکهف: ۲۰.

۲- التوبه: ۸.

فلا دليل على تحديد المعنى، فمفهوم الآيه انتصار الإسلام كليّاً _ ومن جميع الجهات _ على جميع الأديان، ومعنى هذا الكلام أنّ الإسلام سيُهيمن على الكره الأرضيه عامّه، وسينتصر على جميع العالم.

ولا شك أن هذا الأمر لم يتحقّق فى الوقت الحاضر، لكنّنا ندرى أن هذا وعد من قبل الله حتمى وأنّه سيتحقق تدريجاً، فسرعه انتشار الإسلام وتقدمه فى العالم، والاعتراف الرسمى به من قبل الدول الأوروبيه المختلفه ونفوذه السريع فى أفريقياو أمريكا، وإعلان كثير من العلماء والمفكرين اعتناقهم الإسلام، كل ذلك يشير إلى أنّ الإسلام أخذ باستيعاب العالم.

إلاّ أنّه طبقاً للرّوايات المختلفه الوارده فى المصادر الإسلاميه، فإنّ هذا الموضوع إنّما يتحقق عند ظهور المهدى فيجعل الإسلام عالمياً.

روايات حول ثوره المهدى

هنا نذكر بعض الروايات التى تشير إلى انتصار الحق بظهور الإمام المهدى أرواحنا وأرواح العالمين لتراب مقدمه الفداء.

ففى روايه عن الإمام الباقر فى تفسير مجمع البيان فى تفسير ذيل الآيه (إن الأرض يرثها عبادى الصالحون) «هم أصحاب المهدى فى آخر الزمان».

وجاء فى تفسير القمّى فى ذيل هذه الآيه: (إنّ الأرض يرثها عبادى الصالحون) قال: «القائم وأصحابه».

لا يخفى أنّ معنى هذه الرّوايات ليس الحصر، بل هو بيان مصداق عال وواضح، وقلنا مراراً: إنّ هذه التفاسير لا تحدّ من عموميه مفهوم الآيه مطلقاً، وبناءً على هذا ففى كلّ زمان، وفى أى مكان ينهض فيه عباد الله الصالحون بوجه الظلم والفساد فإنّهم سينتصرون عاقبه الأمر، وسيكونون ورثه الأرض وحاكميها.

وإضافه إلى الرّوايات الوارده آنفاً فى تفسير هذه الآيه، فقد رويت روايات كثيره

جدّاً (بلغت حدّ التواتر) عن الرّسول وأئمّه أهل البيت ، وعن طريق السنّه والشيعه، فی شأن المهدی ، وكلّها تدلّ علی أنّ حكم الأرض سيقع فی أيدی الصالحين، وإنّ رجلا من أهل بيت النّبی يقوم فيملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت ظلماً وجوراً.

ومن جمله الرّوايات الحديث المعروف عن النّبی ، والذی نقلته أكثر المصادر الإسلاميه: «لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم، لطوّل الله ذلك اليوم حتّی يبعث رجلا (صالحاً) من أهل بيتی يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت ظلماً وجوراً».

وقد ورد هذا الحديث بهذا التعبير مع إختلاف يسير فی كثير من كتب الشيعه وأهل السنّه(۱).

ينقل العلامه الشيخ الطبرسی فی تفسيره (مجمع البيان) الآيه محل البحث عن الإمام الباقر أنّه قال: «إنّ ذلك يكون عند خروج المهدی، فلا يبقی أحدٌ إلّا أقرّ بمحمّد ».

كما ورد فی التّفسير ذاته عن النّبیّ أنّه قال: «لا يبقی علی ظهر الأرض بيت مدر ولا بر إلّا أدخله الله كلمه الإسلام».

كما أن الشيخ الصدوق رضوان الله عليه روی عن الإمام الصادق فی تفسير هذه الآيه ـ فی كتابه إكمال الدين ـ أنّه قال: «والله ما نزل تأويلها بعدُ،ولا ينزل تأويلها حتی يخرج القائم، فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله العظيم»(۲).

نكتفی بهذا القدر من الروايات وإن كانت كثيره جداً فی هذا المجال.

لكن نذكر هذه القضيه.

فقبل بضعه أعوام وجّه شخص من كينيا ـ يدعی أبا محمّد ـ سؤالا إلی رابطه العالم الإسلامی فی شأن المهدی المنتظر «عجّل الله فرجه الشّريف».

۱- راجع منتخب الأثر و(نور الأبصار).

۲- نورالثقلين، ج ۲، ص ۲۱۱.

فأجابه مدير الرّابطه، محمّد صالح القزاز، بردٍّ يتضـمّن تصريحاً بأنّ ابن تيميّه يؤمن بالاحاديث الوارده فی شأن المهدیّ أيضاً، وقد كتب هذه الرساله خمسه علماء معروفين من أهل الحجاز جواباً علی سؤال أبی محمّد الكينی.

وقد ورد فی هذه الرساله بعد ذكر اسم المهدی ومحل ظهوره «مكّه» مايلی:

«عنـد ظهوره يكون العـالم مليئـاً بالفسـاد والكفر والجور، فيملأ ـ الله به «المهـدی» العـالم عـدلا كمـا ملیء ظلماً وجوراً، وهو آخر الخلفاء الراشدين الاثنی عشر الذين أخبر عندهم النّبی فی كتب الصحاح.

وهنا بعض الروايات الشريفه التی تؤكد ان حكومه المهدی هی حكومه الحق المنتظره.

۱- سأل بعضهم الإمام الصّادق : ما تقول فی رجلٍ موالٍ للأئمّه وينتظر ظهور حكومه الحق، ثمّ يموت وهو علی هذه الحال؟!

فقال الإمام الصادق : هو بمنزله من كان مع القائم فی فسطاطه. ثمّ سكت هنيئه، ثمّ قال: هو كمن كان مع رسول الله (۱).

۲- كما ورد فی روايات متعـدده أن انتظار مثل هذه الحكومه الحقه من أفضل العبادات، وهذا المضـمون ورد فی بعض أحاديث النّبی وكلام الإمام أمير المؤمنين علی .

فقد ورد عن النّبی أنّه قال: «أفضل أعمال أُمّتی إنتظار الفرج من الله عزّ وجلّ»(۲).

وقال فی حديث آخر: «أفضل العباده انتظار الفرج»(۳).

۱- محاسن البرقی، طبقاً لما ورد فی البحار، الطبعه القديمه، ج ۱۳ ، ص ۱۳۶.

۲- الكافی، حسب ما جاء فی البحار، ص ۱۳۶-۱۳۷.

۳- المصدر السابق.

نتیجه البحث

بعد الانتهاء من بحث فی الحقّ والباطل نتوصل إلی النتیجه التالیه:

إنّ الصراع بین الحق والباطل موجود منذ أن خلق الله الإنسان، قال عزّ وجلّ: (یا آدمُ إنّ هذا عدوٌ لک ولزوجک فلا یخرجنّکما من الجنّه فتشقی)(۱). ومنذ تلک اللحظه ابتلی الإنسان بکید الشیطان، وصراعه معه، وما زال الشیطان یکید لآدم حتّی هبط لهذه الدنیا، وهنا انتقل میدان الصراع إلی هذه الأرض، یقول الله عزّ وجلّ (بعضکم لبعض عدوّ...)(۲)، وبعد هبوط آدم وحواء إلی الأرض، ظلت أجیال من الناس علی الهدی قرون طویله یتوارثون الهدی والایمان عن أبیهم آدم علیه الصلاه والسلام کما جاء فی تفسیر قول الله عزّ وجلّ فی سوره البقره: (کان الناس امّهً واحدهً فبعث الله النبیین مبشرین ومنذرین...)(۳)، قال ابن عباس: «کان بعد آدم عشره قرون کلهم علی الهدی فاختلفوا فبعث الله النبیین مبشرین ومنذرین» وهکذا جاء فی قراءه ابن مسعود وأُبی بن کعب (کان الناس امهً واحده فاختلفوا فبعث الله النبیین مبشرین

۱- طه: ۱۱۳.

۲- البقره: ۳۶.

۳- البقره: ۲۱۳.

ومنذرين) وهذا أحد الاوجه فی تفسیر الآیه، وبناءً علیه نستطیع أن نقول: ان الأجیال التالیه لآدم ظلت وفیه للحق وللتوحید الذی تلقته عن أدم حتّی أثر فیهم هذا الشیطان، فانحرفوا عن التوحید، واندرست معالمه، فاحتاج الأمر إلی بعثه نبی یجدد الإسلام والتوحید فبعث الله النبیین مبشرین ومنذرین.

وبعد بعثه هؤلاء الرسل صارت الخصومه بین الرسل وأتباعهم، وبین أعداء الرسل من الشیطاین وأتباعهم، ولذلک یقول الله تعالی: (وکذلک جعلنا لکل نبیّ عدوّاً من المجرمین...)(۱) فما من نبی یُبعث إلا ویتصدی له أعداء من المجرمین، ویضعون العراقیل فی طریقه ویعترضون علیه بمختلف الوسائل، ویقول الله عزّ وجلّ: (وکذلک جعلنا لکل نبیّ عدوّاً شیاطین الإنس والجن یوصی بعضهم إلی بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربُّکَ ما فعلوه فذرهم وما یفترون ولِتَصْغیٰ إلیه أفئده الذین لا یؤمنون بالآخره وَلِیَرْضَوْهُ ولیقترفوا ما هم مقترفون)(۲).

وبعد بعثه النبیّ الخاتم انحصرت الخصومه بین أتباع النبی وبین أعداءه، فالنبی کان له أعداء کثیرون من المجرمین، ومن الأکابر (کذلک جَعَلْنا فی کل قریه أکابر مجرمیها لیمکروا فیها وما یمکرون إلا بأنفسهم وما یشعرون)(۳)، وما أبو جهل، وعتبه، وأبو لهب، وشیبه، وغیرهم إلا أمثله ونماذج لأعداء الرسل .

ثم الذین یحاربون دعوته عبر العصور إلی أن یرث الله الأرض ومن علیها.

وبالمقابل بعد وفاه النبی أولیاءه: هم العلماء الذین ورثوا هَدیهِ، وتراثه، یقول : (إنّ العلماء ورثه الأنبیاء) رواه، أبو داود والترمذی، وابن ماجه، والدارمی، واحمد، وبیّن الله عزّ وجلّ أن هذه الأمه سیوجد فیها من یحمل الرساله،

۱- الفرقان: ۳.

۲- الأنعام: ۱۱۲-۱۱۳.

۳- الأنعام: ۱۲۳.

فکلما جاء جیل قیّض الله تعالی منهم من یحمل الرایه. ویقیم الحجه علی أهل هذا العصر، ولهذا یقول عزّ وجلّ فی محکم التنزیل: (وممن خلقنا أمهٌ یهدون بالحق وبه یعدلون)(۱) والاسم الخاص الذی میّز الرسول به هؤلاء هو: الطائفه المنصوره، قال : «لا تزال طائفه من أمّتی منصورین لا یضرّهم من خذلهم حتّی تقوم الساعه» رواه الترمذی، وابن ماجه، واحمد، یهدون بالحق وبه یعدلون.

ویقابلهم اعداء الرسل یُحاربونهم ویضعون فی طریقهم الأذی والشوک، فلا یضرُّنهم إلا بالتعب، والجهد (لن یضرُّکم إلا أذیً وان یقاتلوکم یولوکُم الأدبار ثم لا یُنصرون)(۲).

وهنا نُرید أن نُلقی الضوء علی بعض المسائل المهمه التی وردت فی شأن الخصومه بین الحق والباطل فی الأیات والأحادیث:

المسأله الأولی: وهی مهمه للمسلم فی هذا العصر: حرکه الصراع بین الحق والباطل وفیها ملاحظات:

الملاحظه الأولی: هی الرابطه الوثیقه التی یتناصر بها اعداء الرسل: یقول تبارک وتعالی: (وکذلک جعلنا لکل نبی عدوّاً شیاطین الإنس والجن) کل هؤلاء مصنفون فی اعداء الأنبیاء، ثم قال تعالی: (یُوحی بعضهم إلی بعض زخرف القول غروراً)(۳).

ویقول عزّ وجلّ: (المنافقون والمنافقات بعضُهم من بعضٍ)(۴) وقوله جلّ وعلا: (یا أیها الذین آمنوا لا تتخذوا الیهود والنصاری أولیاء بعضهم أولیاء بعض)(۵)،

۱- الأعراف: ۱۸۱.

۲- آل عمران: ۱۱۱.

۳- الأنعام: ۱۱۲.

۴- التوبه: ۶۷.

۵- المائده: ۵۱.

فأعداء الرُسل اعداء الإسلام يتناصرون بمقتضى العداوه وقد يكون بينهم من الخلاف، والصراع الشيء الكثير لكنهم حيث يواجهون الإسلام يكونون صفاً واحداً... فاليهود والنصارى مثلاً: بينهم عبر التاريخ خصومات طويله، ومع ذلك يقول الله عزّ وجلّ: (بعضهم أولياء بعض...)(۱) يعنى فى حرب الإسلام: ومواجهته ينسون خصومتهم الداخليه، والفرعيه، ويوحدون الوجهه ضد الإسلام وأهله وهذا أمر ملحوظ فى ولايه اعداء الرسل بعضهم لبعضٍ. وهذا يوجب على حمله الإسلام أنّه لابد ان يكونوا أولياء بعضهم لبعضٍ أيضاً، وهناك فرق أساسى: بين ولايه الكافرين، وولايه المؤمنين: فولايه الكافرين مبناها على التعصب والهوى؛ لذلك يقول جلّ وعلا: (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض...)(۲)، وكلمه من يقابلها فى الآيه الأخرى: (المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض)(۳)، وبادى الرأى قد يخيل للإنسان أن كلمه: (من) هنا أبلغ، فكى عبر عزّ وجلّ عن علاقه المنافقين بأنّ بعضهم من بعض وأما علاقه المؤمنين بعضهم أولياء بعض؟

والجواب أن جمله بعضهم من بعض توحى بوحده الاهداف والصفات والأعمال، ولكنّها تشير ضمناً إلى أنّهم يفتقدون إلى روح الموده والولايه بعضهم لبعض، بل إنّهم إذا شعروا فى أى وقت بأن منافعهم ومصالحهم الشخصيه قد تعرضت للخطر فلا مانع لديهم من خيانه حتّى أصدقائهم فضلاً عن الغرباء، بعكس المؤمنين أن ولايه بعضهم ثابته وحقيقه لا تتأثر بالمصالح الشخصيّه.

الملاحظه الثانيه:

ملاحظه التلبيس الذى يحدثه أعداء الرسل:

۱- المائده: ۵۱.

۲- التوبه: ۶۷.

۳- التوبه: ۷۱.

لاحظ قوله تعالى: (شياطين الإنس والجنّ يوحى بعضهم إلى بعضٍ زُخرف القول غروراً...)(۱) إذن هناك مؤامره عالميه، ليست جديده كما يتصور البعض... وقد تطورت الآن، وأخذت شكلاً جديداً، واسلوباً جديداً، وبعداً جديداً، لكنها قديمه، وهى الحرب الاعلاميه ضد الإسلام، وحملته، وحمله السنه، والتى تشوه الحق وتلبسه لبوس الباطل، وتلبس الباطل لبوس الحق بتزيين الألفاظ وزخرف العبارات، وزخرف القول، لذلك يقول القائل: فى زخرف القول تزيين لباطله والحقّ يعتريه سوء تعبير.

فالآيه توضح الجهد الذى يبذله أهل الباطل فى تزيين باطلهم، وفى تشويه الحق (يوحى بعضه إلى بعض زخرف القول غروراً...)(۲)، ولذلك نجد الحمله الاعلاميه العالميه اليوم ضد الإسلام، فتسمى: بالأصوليين مثلاً، أو المتشددين، أو المتطرفين... وغير ذلك من العبارات التى تبثها وكالات الاعلام العالميه، وتتناقلها حتّى الإذاعات والصحافه فى البلاد الإسلاميه على أنّها عبارات دارجه، ويصبح هؤلاء: أصوليون، ومتشدّدون، ومتطرّفون.. إلى غير ذلك من العبارات التى يلبسون بها على الحق بالباطل.

مثال آخر: قضيه الادب والشعر وغير ذلك من الوسائل المهمه فى كثير من البلاد الإسلاميه اصبحت وسائل للهدم والتخريب، وتهييج الغريزه والجنس والاثاره، إضافه ألوان كثير من الأفلام والمسلسلات والمسرحيات، وأعداد هائله من الدواوين الشعريه التى تسير فى اتجاه زخرفه الباطل وتلبسه بالحق، وهذا يؤكد أن الكلمه من أخطر ميادين الصراع بين الأنبياء واعداءهم فكلمه الحق لها وقع كبير، وبالمقابله كلمه الباطل لها تأثير كبير، وأهل الباطل يعملون على زخرفه باطلهم بالعبارات الرنانه،

۱- الانعام: ۱۱۲.

۲- الانعام: ۱۱۲.

والكلمات المعسوله، والذين ينخدعون بهذه الأشياء هم من قال الله فيهم: (ولتصغى إليه أفئده الذين لا يؤمنون بالآخره وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون)(۱)، إذن لا تُروج هذه الأشياء إلا إذا كان هناك خواء روحى وعقلى، فتُصبح الشعوب مستعده لتلقى هذا الزخرف من القول، ولو كان عند الناس وعى ما تأثروا بهذا الباطل.

وهذا مما يؤكد على أنّه لا بد لحَمَله رساله الإسلام أن يستفيدوا من أجهزه الاعلام مقروءه، أو مسموعه أو مرئيه فى الدعوه إلى الحق وحمايته، ونشره وبناء الفضيله والاخلاق، ولابد أن يستفيدوا من الوسائل الأدبيه: كالقصه والمقاله، والقصيده فى الوصول إلى كافه الناس من جميع الطبقات وإيصال الحق اليهم.

لأن الحق لابد ان يصل لكل أُذن بقدر المستطاع، والله تبارك وتعالى قد بيّن الصراع فى ناحيه الكلمه، فقال: (ضرب الله مثلاً كلمهً طيبه كشجره طيبه أصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى أُكلها كل حين بإذن ربّها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمه خبيثه كشجره خبيثه، اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار)(۲).

فالكلمه الطيبه تقارع الكلمه الخبيثه، ولابد أن تُقال فى كل ميدان، وبكل وسيله حتّى تفعل هذه الكلمه الطيّبه فعلها.

الملاحظه الثالثه:

هى ثبات الحق ورسوخه وانتصاره وطيشان الباطل وزواله: وهذا ظاهر بيّن يقول الله سبحانه وتعالى: (وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عَدوّاً من المجرمين وكفى بربِّك هادياً ونصيراً)(۳).

۱- الانعام: ۱۱۳.

۲- إبراهيم: ۲۴-۲۶.

۳- الفرقان: ۳۱.

وجمله (کفی بربک هادیاً ونصیراً) اشاره إلی أن الله تعالی ینصر المهتدین، ویؤیدهم، ویحفظهم. وقال تعالی (وکذلک جعلنا لکلِّ نبیّ عدواً شیاطین الإنس والجن) ثم عقّب ذلک بقوله تعالی: (وتمّت کلمه ربّک صدقاً وعدلاً لا مبدِّل لکلماته...)(۱) أی صدق فی الإخبار، وعدل فی الأحکام، وفی الآیه الثالثه قال جلّ وعلا: (ضرب الله مثلاً کلمه طیبه کشجره طیبه أصلُها ثابت وفرعها فی السماء)(۲)، ولما ذکر الکلمه الخبیثه قال: (اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار)(۳).

والطائفه التی تحمل الحق سماها الرسول ﷺ: الطائفه المنصوره، اشاره إلی أن النصر حلیفهم فی النهایه، طال الزمن أو قصر ولما قال عزّ وجلّ: (الذین آمنوا یقاتلون فی سبیل الله والذین کفروا یقاتلون فی سبیل الطاغوت...)(۴)، وهذا نموذج من الخصومه بین الحق والباطل، والخصومه، قد تکون فکریه، وقد تکون فی میدان القتال ثم عقّب بقوله سبحانه: (فقاتلوا أولیاء الشیطان إن کید الشطان کان ضعیفاً)(۵).

لذلک نقطع بأنّه: إذا وُجدت معرکه حقیقه بین الحق والباطل، ووجد للحق حماته الذین یدافعون عنه وهم موجودون لا محاله کما أخبر رسول الله ﷺ فان العاقبه ستکون للحق وأهله.

قال ورقه بن نوفل للنبی ﷺ أول ما بُعث: «لیتنی أکونُ حیّاً إذ یخرجوک قومک فقال رسول الله ﷺ أمُخرجیَّ هم قال: نعم لم یأت رجلٌ بمثل ما جئت به إلا عودِیَ وإن یُدرکنی یومَک أنصرک نصراً موزراً» رواه البخاری ومسلم، وأحمد، وهذا الذی

۱- الأنعام: ۱۱۵.

۲- إبراهیم: ۲۶.

۳- إبراهیم: ۲۶.

۴- النساء: ۷۶.

۵- النساء: ۷۶.

حدث فعلًا حيث أُخرج النبى فخرج حزيناً فلما وصل إلى الحزوره، وهو بقلب حزين دمعت عيناه وقال يخاطب مكه: «والله إنّك لخير أرض الله وأحبُّ ارض الله إلى الله ولولا أنّى أُخرجتُ منك ما خرجت» رواه الترمذى، وابن ماجه، والدارمى، واحمد. فالطريق شاق وطويل ويحتاج إلى جهاد دائم وحمله رساله الإسلام، والله تعالى يؤيد هذا الجهاد ولذلك قال: (وترجون من الله ما لا يرجون)(۱)، ويبارك فيه ولو كان قليلًا المهم أن يبذل الإنسان ما يستطيع.

المساله الثانيه والأخيره وهى ميدان الصراع بين الحق والباطل:

فالصراع بين الحقِّ والباطل له ميدانان.

الميدان الأول: هو ميدان النفس البشريه، فالإنسان قابل للهدى والضلال: (ونفسٍ وما سوّاها * فألهما فجورها وتقواها)(۲)

و(إنا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً)(۳)، فالإنسان حين يكون خيّراً لا- يعنى أنّ عناصر الشرّ زالت منه بالكليه بل النفس الآمره بالسوء موجوده، وكيد الشيطان موجود ولذلك قد يخطئ المستقيم، أو يضل، أو ينحرف عن هذا الطريق أو يتركه حيناً ثم يعود إليه وبالمقابل الإنسان المنحرف والضال لا يعنى أنّه أصبح شيطاناً رجيماً، فقد يستقيم ويهتدى للخير بل وحتى حين يكون مصراً على الشرّ الذى هو فيه لا تظن أبداً أنّه لا تثور فى نفسه نوازع الخير...

فقد ذُكر أناس قضوا زماناً فى ميادين الشرّ والفساد: أن قلوبهم أحياناً تغلى بمراجل الهم والندم والحزن والرغبه فى الإقلاع.

والمؤمن قد يعصى ولكنه لا يمكن ان يفرح بهذه المعصيه ويطمئن إليها بل لابد ان

۱- النساء: ۱۰۴.

۲- الشمس: ۷-۸.

۳- الإنسان: ۳.

یوجد فی قلبه ندم علی هذه المعصیه، ولذلک یقول تبارک وتعالی فی صفه المؤمنین: (والذین إذا فعلوا فاحشه أوْ ظلموا أنفسهم ذکروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن یغفر الذنوب إلا الله ولَمْ یصروا علی ما فعلوا وهم یعلمون)(۱)، وقال النبی ﷺ: «إنّ للشیطان لَمَّه بابنِ آدم وللملک لَمَّه فأما لَمَّه الشیطان فایعاد بالشر وتکذیب بالحقِّ وأما لَمَّه المِلک فایعاد بالخیر وتصدیق بالحق» رواه الترمذی. والإنسان الطیب لا یخلو من وجود شیء من الشرّ یحتاج إلی مدافعه وازاله ومقاومه ولذلک لابد من مجاهده النفس.

وبالمقابل الإنسان الشریر لا یوجد فیه ما یدعو للیأس منه، أو اعتقاد أنّه لا خیر فیه، رب کلمه توافق قلباً فتدخل فیه، وتغیره رأساً علی عقب.

فأما الیأس من النفس فإنه من مداخل الشیطان العظیمه علی النفس...

المیدان الثانی:

هو صراع عبر المجتمع، فالجهاد فی میدان النفس لا ینتهی، لکن الذین یجاهدون أنفسهم؛ منهم: من ینجح فی هذا الجهاد فیکون من أهل الخیر، ودعاه الإسلام، ومنهم من یفشل فی هذا الجهاد، ولا یجاهد أصلاً، فیکون من أهل الشرّ الذین عرفوا الحقَّ ورفضوه، أو لم یعرفوه أصلاً، وهنا یوجد الصراع بین هؤلاء وهؤلاء فی المیدان الکبیر، میدان المجتمع وهذا هو المبدأ الأخیر للمعرکه بین الحق والباطل، وبین الشیطان وبین الرسل وأتباعهم، ولذلک حرص الإسلام علی تحصین المجتمعات من عوامل الفساد، حتّی لو وجد فساد علی مستوی فردی، فالإسلام حریص علی أنّه لا ینتشر بحیث یُلِّوث البیئه.

علی الجبوری

۱۶ بهمن / ۱۳۸۸ش.

المصادف ۲۰ صفر / ۱۴۳۰ه_

۱- آل عمران: ۱۳۵.

المصادر

القرآن الكريم.

۱.أسباب النزول، الواقدی.

۲.الاحتجاج، الطبرسی، تعلیق وملاحظات: السید محمد باقر الخرسان، سنه الطبع: ۱۳۸۶ – ۱۹۶۶م، الناشر: دار النعمان للطباعه والنشر - النجف الأشرف.

۳.الإرشاد، محمّد بن محمّد النعمان المفید. تحقیق: مؤسسه آل البیت علیهم السلام لتحقیق التراث، الطبعه: الثانیه ۱۴۱۴ - ۱۹۹۳ م، الناشر: دار المفید للطباعه والنشر والتوزیع - بیروت – لبنان.

۴.الإصابه، تحقیق: الشیخ عادل أحمد عبد الموجود، الشیخ علی محمد معوض، الطبعه: الأولی، ۱۴۱۵، الناشر: دار الکتب العلمیه. بیروت.

۵.الأکاذیب الأعاجیب للعلامه الفقید الشیخ محمّد جواد البلاغی.

۶.البرهان فی تفسیر القرآن، السید هاشم بن سلیمان بن إسماعیل بن عبد الجواد الحسینی البحرانی، الطبعه الثانیه، قم، دار الکتب العلمیه، ۱۳۹۳ه .

۷.التوراه – سفر التکوین- الباب الرابع.

۸.الزهد ابن المبارک.

۹.الکافی، محمّد بن یعقوب الکلینی، تصحیح وتعلیق: علی أکبر الغفاری، الطبعه: الخامسه، ۱۳۶۳ ش، الناشر: دار الکتب الإسلامیه – طهران.

۱۰.المحاسن، أحمد بن محمد بن خالد البرقی، تصحیح وتعلیق: السید جلال الدین الحسینی، سنه الطبع: ۱۳۷۰ - ۱۳۳۰ ش، الناشر: دار الکتب الإسلامیه – طهران.

۱۱.بحار الأنوار. المجلسی، الطبعه: الثانیه المصححه، ۱۴۰۳ - ۱۹۸۳ م، الناشر: مؤسسه الوفاء - بیروت – لبنان.

۱۲.تفسیر أبی الفتوح الرازی، الطبعه الثالثه.

۱۳.تفسیر اسمی هابیل وقابیل، أبو الفتوح الرازی.

۱۴.تفسیر الأمثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ناصر مکارم الشیرازی.

۱۵.تفسیر البحر المحیط، أبی حیان الأندلسی، تحقیق: الشیخ عادل أحمد عبد الموجود - الشیخ علی محمد معوض، الطبعه: الأولی، ۱۴۲۲ - ۲۰۰۱م، الناشر: دار الکتب العلمیه بیروت.

۱۶.تفسیر الصافی، الطبعه: الثانیه، رمضان ۱۴۱۶ - ۱۳۷۴ ش، الناشر: مکتبه الصدر – طهران.

۱۷.تفسیر القرطبی، تحقیق: تصحیح: أحمد عبد العلیم البردونی، الناشر: دار إحیاء التراث العربی - بیروت – لبنان.

۱۸.تفسیر المنار.

۱۹.تفسیر المیزان، محمّد حسین الطباطبائی، الناشر: منشورات جماعه المدرسین فی الحوزه العلمیه - قم المقدسه.

۲۰.تفسیر روح البیان.

۲۱.تفسیر علی بن إبراهیم طبقاً لما ورد فی نور الثقلین.

۲۲.تفسیر فی ظلال القرآن، سید قطب.

۲۳.تفسیر مجمع البیان، الفضل بن الحسن الطبرسی، تحقیق وتعلیق: لجنه من العلماء والمحققین الأخصائیین، الطبعه: الأولی، ۱۴۱۵ - ۱۹۹۵ م، مؤسسه الأعلمی للمطبوعات - بیروت – لبنان.

۲۴.تفسیر منهج الصادقین.

۲۵.تفسیر نور الثقلین، الشیخ الحویزی، تصحیح وتعلیق: السید هاشم الرسولی المحلاتی، الطبعه: الرابعه، ۱۴۱۲ - ۱۳۷۰ ش، الناشر: مؤسسه إسماعیلیان للطباعه والنشر والتوزیع – قم.

۲۶.شرح تنقیح الفصول للقرافی.

۲۷.صحیح البخاری، سنه الطبع: ۱۴۰۱ - ۱۹۸۱ م، الناشر: دار الفکر للطباعه والنشر والتوزیع.

۲۸.عیون أخبار الرضا طبقاً لروایه تفسیر نور الثقلین.

۲۹.لباب النقول فی اسباب النزول.

۳۰.لسان العرب، ابن منظور، سنه الطبع: محرم ۱۴۰۵، الناشر: نشر أدب الحوزه - قم – ایران.

۳۱.معانی الأخبار، الشیخ الصدوق، تصحیح وتعلیق: علی أکبر الغفاری، سنه الطبع: ۱۳۷۹ - ۱۳۳۸ ش، الناشر: مؤسسه النشر الإسلامی التابعه لجماعه المدرسین بقم المشرفه.

۳۲.مجله (المشرق) المسیحیه العدد التاسع والعدد الرابع عشر السنه الخامسه.

۳۳.مجمع الزوائد. الهیثمی، سنه الطبع: ۱۴۰۸ - ۱۹۸۸ م، الناشر: دار الکتب العلمیه - بیروت – لبنان.

۳۴.مسند أحمد بن حنبل، الناشر: دار صادر - بیروت – لبنان.

۳۵.مفردات غریب القرآن، الراغب الأصفهانی، الطبعه: الثانیه، ۱۴۰۴، الناشر: دفتر نشر الکتاب.

۳۶.منتخب الأثر.

۳۷.نهج البلاغه، وهو ما جمعه السید الشریف الرضی من کلام أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب طبعه جدیده مصححه ومنقحه، الطبعه: الأولی، ۱۴۱۲ - ۱۳۷۰ ش، الناشر: دار الذخائر - قم – ایران.

۳۸.نور الأبصار.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ۱۴۲۶ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثرها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبيّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ في المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين في الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فى نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:
طبع الكتب والملزمات والدوريات
إقامة المسابقات فى مطالعة الكتب
إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فى الأمكنة الدينية والسياحية
إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية
افتتاح موقع القائمية الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com
إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...
الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها
تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسک kiosk، الرسالة القصيرة ((sms
إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس
إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين
إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛
١.JAVA
٢.ANDROID
٣.EPUB
٤.CHM
٥.PDF
٦.HTML
٧.CHM
٨.GHB
إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية
١.ANDROID
٢.IOS
٣.WINDOWS PHONE
٤.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فی تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزی

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فی طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹